تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة السابعة • العددان ٧٣-٧٤ • تشرين الثاني (نوفمبر) - كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٤م • الموافق صفر - ربيع الأول ١٤٠٥هـ



□ منظر صيد من مخطوطة قديمة، موجودة في المكتبة الوطنية، القاهرة.



الغلاف الاول

□ سوق إسلامي
في تركيا العثمانية.

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ٧٣/٧٤ ـــ تشرين الثاني ـــ كانون الأول ١٩٨٤م

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط. ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

		سوريا	٩ ل.س.
لبنان	٦ ل.ل.	تونس	١,٥ دينار
العراق	١ دينار	الكويت	١ دينار
السعودية	١٠ ريال	الامارات	١٠ درهم
الأردن	٨٠٠ فلس	قطر	١٠ ريال
البحرين	١ دينار	بريطانيا	١,٥ جنيه
مسقط	١٠٠٠ بيزة	ليبيا	١ دينار
صنعاء	١٠ ريال	مصر	١ جنيه

الإشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـــ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

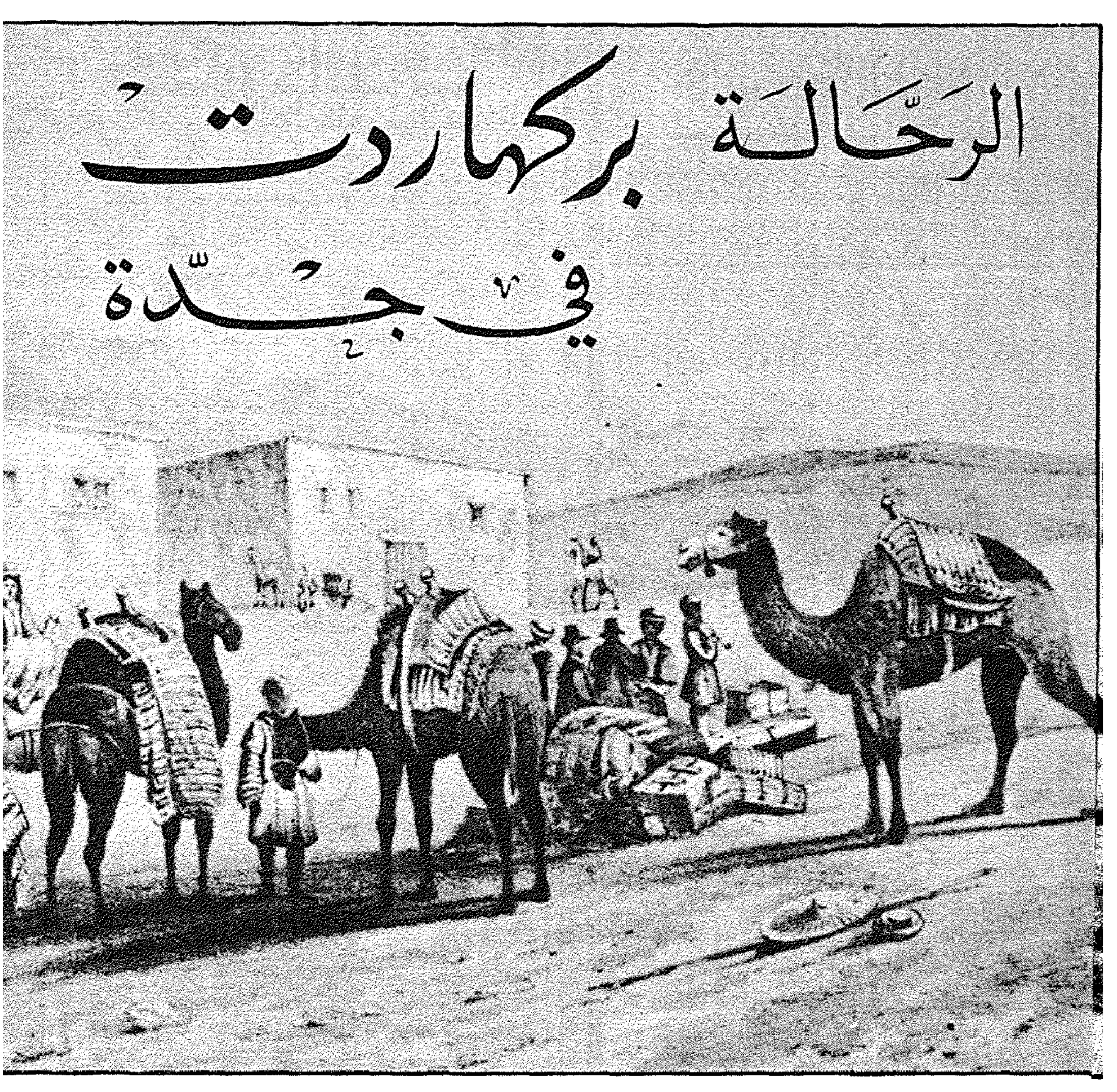
Vol. 7 — No. 73/74 — Nov-Dec. 1984

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

الرحالة بركهاردت في جدة

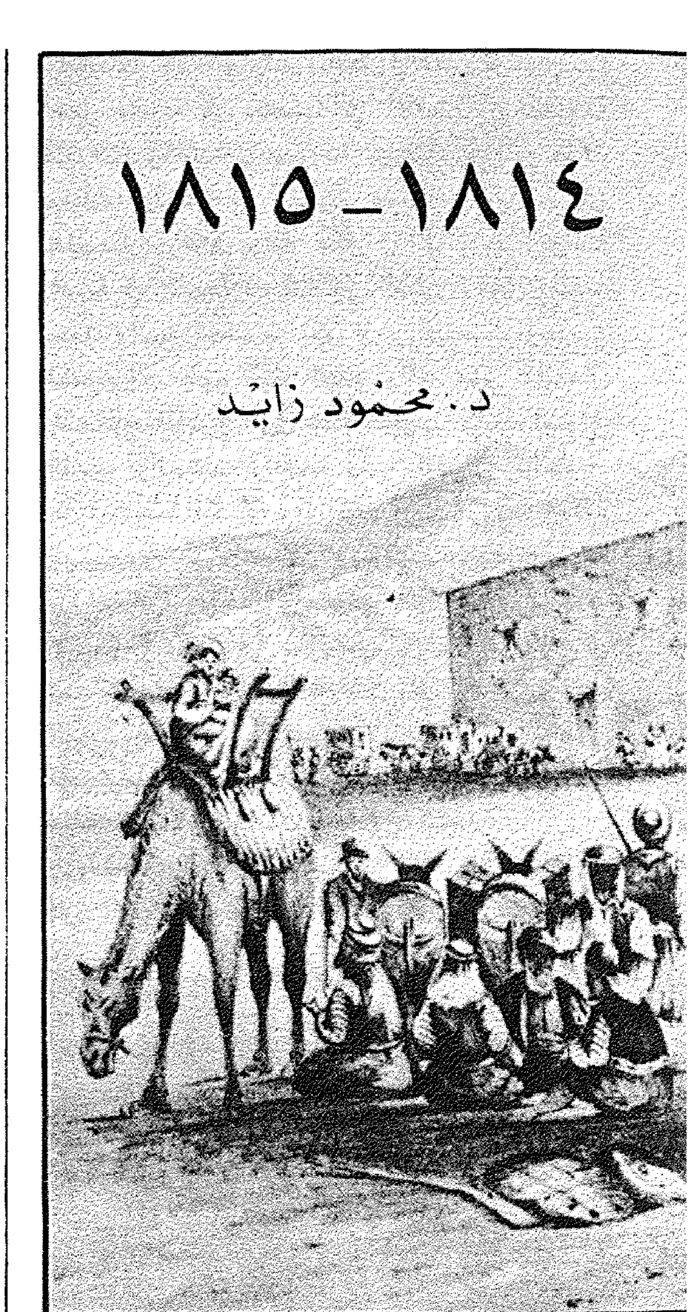


بركهاردت يتهيأ للرحلة

من أبرز الغربيين الذين وفدوا على بلاد العرب في القرن التاسع عشر العالم والرحالة السويسري يوهان لودفيج بركهاردت (١٧٨٤ ـ ١٨١٧) الذي كشف للأوروبيين عن وجود آثار مدينة البتراء بوادي موسى (بالأردن الحالي) في أعقاب زيارته لها عام ١٨١٢. وأخبار رحلته إلى الحجاز المدونة في كتاب «رحلات في بلاد العرب» كانت ولا تزال منذ أن نشرت في عام ١٨٢٩ مرجعا ودليلا لمن قام بعده بالرحلة إلى تلك الديار، وللمعنيين بأي مظهر من تاريخها الحديث وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية. ويصف الرحالة والمستشرق البريطاني ريتشارد بيرتون في كتابه عن رحلته إلى الحجاز دَيْنه لبركهاردت بقوله:

وهنا أود أن أعبر عن إجلالي لذكرى بركهاردت الدقيق فأقتبس من صفحاته

□ د. محمود زايد: أستاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة الاميركية، دكتوراه من جامعة «ييل»، كما علم في جامعة «ييل» و «تكساس».



الوصف الذي سوف أزيد عليه بعض الملاحظات لتوضيحه.

كان بركهاردت ظاهرة تكاد تكون فريدة بين الرحالة. إذ اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من الصفات والمؤهلات الضرورية للرحلة. فخلال دراسته بجامعة جوتنجن الألمانية تتلمذ على أب من آباء علم الانسان (الانثروبولوجيا) وهو الأستاذ يوهان بلومنباخ (١٧٥٢ ــ ١٨٤٠) الذي وجه الأنظار إلى ضرورة دراسة أحوال الشعوب في افريقيا الاستوائية لمعرفة مراحل التطور الحضاري للانسان. وفي عام ١٨٠٦ وفد



□ جوهان لودفيك بيركهاردت (١٧٨٤ ــ ١٨١٧)، كان من أهم الرحالة الذين زاروا الجزيرة العربية

على لندن حيث تعلم الانجليزية. وعرض خدماته على الجمعية الافريقية بلندن التي كانت تسعى إلى تشجيع استكشاف مجاهل القارة الافريقية وتجنيد الشبان لذلك الغرض. وقبلت الجمعية عرضه، وطلبت منه أن يمهد لذلك بالتسلح بالمعارف الضرورية فمكث في انجلترا زهاء ثلاث سنوات التحق خلالها بجامعة كمبردج ودرس علاوة على اللغة العربية الكيمياء والطب والفلك. وغادر انجلترا في عام ١٨٠٩ إلى مالطة حيث قضى ستة أسابيع يستزيد من معرفته للعربية. ومن هناك توجه إلى سوريا حيث تنكر في زي تاجر مسلم واتخذ لنفسه لقب الشيخ ابراهيم بن عبدالله. وخلال إقامته في حلب عكف على التزود بالثقافة الاسلامية فقرأ القرآن والتفسير والحديث والتفقه بأسرار العربية حتى صار يبدو للبعض وكأنه حجة في ذلك كله. وبعد أن تنقل في سوريا وفلسطين والأردن حيث زار آثار البتراء توجه إلى مصر ومنها إلى السودان. وفي تلك الأثناء شعر أن بلاد العرب أكثر اجتذابا له من افريقية فأبحر على أحد المراكب من ميناء سواكن إلى جدة، ميناء مكة المكرمة.

ميناء جدة

وصل بركهاردت إلى ميناء جدة في صباح الخامس عشر من شهر تموز عام ١٨١٤ بينما كانت الحروب دائرة بين جيوش محمد علي باشا

والي مصر الذي انتدبته الحكومة العثمانية لاخضاع الوهابيين وبين الوهابيين. ومنذ تلك اللحظة أخذ يستخدم علمه وقدرته العجيبة على الملاحظة الدقيقة في رسم صورة لجميع مظاهر الحياة في جدة وغيرها من مدن الحجاز التي زارها. ويمكننا أن نكون فكرة عن أهمية ما دونه عنها من خلال اللوحة التي رسمها للحياة منها، وفيما يلي مجمل لها.

كانت السفن التي تتوجه إلى ميناء جدة ترسو على بعد ميلين من الشاطىء ثم تقوم القوارب بنقل الركاب والبضائع إلى الميناء عبر حوضين يجري اقفالهما خلال الليل. وكان الميناء مسورا من جهة البحر بالسور القديم الذي أقامه السلطان الغوري عام ٩١٧هـ/ ١٥١١م، ومن جهة البر بسور أقامه السكان على أنقاض القديم المتداعي، وجعلوا فيه أبراجا يبعد أحدها عن الآخر بين أربعين وخمسين خطوة. والسور والأبراج بالاضافة إلى قلعة في القرنة الجنوبية عليها عشرة مدافع جعلت من المدينة قلعة منيعة في الواقع وفي نظر أهل الحجاز.

وبدت جدة عندئذ (طبعا في نظر بركهاردت) أجمل مدينة في حجمها في الأقطار الخاضعة للأتراك. وكانت في سورها من ناحية البر ثلاث بوابات: واحدة في الجنوب مسدودة، والأخريان مفتوحتان وهما بوابة مكة في الوسط وبوابة المدينة في الشمال. وكان يلي السور داخل المدينة فضاء واسع تحف به أكواخ من القصب وجذوع الشجيرات يقيم فيها البدو والفلاحون والعمال والحجاج الزنوج. وفي هذا الجانب كانت أسواق الماشية والخشب والفحم وبيع الفواكه بالجملة. أما في وسط المدينة وإلى ناحية البحر فكان يقيم الميسورون من السكان وبيوتهم جميعها تقريبا من الحجر، وتتخلل واجهاتها ألواح من الخشب الأحمر الذي يضفي عليها جمالا أخاذا. وكان كل بيت تقريبا يتألف من طبقتين على الأقل. وأفخم البيوت جميعا كانت بيوت الأثرياء الذين يقيمون على شاطىء البحر حيث يمتد شارع رئيسي على جانبيه المتاجر وخانات (فنادق) التجار.

وفيما عدا عناصر قليلة من الأشراف والعلماء كان السكان وعددهم قرابة خمسة عشر ألفا



□ منظر عام لمدينة جدة الحديثة.

يتألفون من جاليات أجنبية وأكبرها جاليتا اليمنيين والحضارمة. وضمت الجالية الهندية ما يزيد على مئة أسرة أكثر أفرادها من مدينتي بومباي وسورت بالهند. وكانت الجاليات الأخرى تضم عناصر من المغاربة ومسقط ومصر وسوريا وتركيا، وأفرادا قلائل من اليونانيين وغيرهم من الأوروبيين الذين كانوا يجلبون البضائع إلى المدينة.

وكان هؤلاء جميعا (كما يقول بركهاردت) يشتغلون بالتجارة أو بنقلها، أو بالملاحة. واشتهر بثرائه بينهم اثنان من المغاربة هما الجيلاني والسكّات. إذ بلغت ثروة كل منهما بين ١٥٠,٠٠٠ و ٢٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني. وبين الهنود من جمع ثروة طائلة تقارب هذه، ويمكن للمرء أن يجد أكثر من أسرة تبلغ ثروة كل منها بين أربعين وخمسين ألف جنيه استرليني.

سفن جدة

كانت جدة أهم ثغور البحر الأحمر. فلم تكن ميناء الحجاز وحده بل وميناء مصر والهند. ويقدر عدد السفن التي كان يمتلكها الجداويون (أي أهل جدة) والتجار الذين ينطلقون منها بمئتين وخمسين سفينة من مختلف الأنواع، ومنها السنابك والمراكب والدهوات ومفردها (دَهْو). وعلى هذه المراكب الأخيرة وحدها كانوا يبحرون إلى الهند. وكان أكثر البحارة من أهل اليمن والصومال. وكان كل منهم علاوة على عمله يتاجر لحسابه. ويقدر عدد السفن التي كان يجدها المرء في ميناء جدة في أي وقت بأربعين إلى خمسين سفينة.

ومما يلفت النظر أنه لم تكن في جدة أحواض لبناء السفن بالرغم من مركزها العظيم كثغر بحري. ويعلل بركهاردت ذلك بصعوبة الحصول على الأخشاب. لكن هذا لم يمنع قيام صناعة للسفن في ثغر مماثل وهو السويس. وكانت مصر تستورد الأخشاب من تركيا وأوروبا وتنقلها على ظهور الجمال من القاهرة إلى ذلك الميناء. وهذا ما فعله محمد علي باشا قبيل قدوم بركهاردت إلى بلاد العرب. وعلى أي حال فإن صناعة السفن في البلاد التابعة للدولة العثمانية على البحر الأحمر انحصرت في السويس وفي ميناءين يمنيين وهما الحديدة ومخا اللذان كانا يحصلان على الخشب من اليمن والساحل الافريقي المقابل.



□ محمد علي باشا، مدّ يد المساعدة لبيركهاردت.

ومما أثار دهشة بركهاردت أن القوارب في جدة لم تكن تستخدم للنزهة. ويعلل ذلك بأن موظفي الجمارك كانوا يرفضون السماح لمثل تلك القوارب بمزاولة نشاطها ويصرون على عودتها بعد الغروب إلى السفن التي انطلقت منها.

وكان يشرف على الميناء والضرائب التي تدفعها السفن لدى دخولها الميناء موظف كبير يعرف بأمير البحر. لكن مسؤوليته لم تكن تشمل الجمارك التي كانت تخضع لموظف آخر يعرف بالجمركي. ووجد بركهاردت أن أمير البحر كان قد فقد الكثير من الهيبة التي كان يتمتع بها في عهد سيطرة الأشراف، أي العهد الذي سبق فتوح الوهابيين.

تجارة جدة

كانت التجارة وتربية الماشية هما الحرفتان الرئيسيتان لأهل جدة. على أن المدينة كانت تدين بازدهارها في الأكثر للتجارة التي كان يشارك فيها الجميع بما فيهم الأشراف والعلماء. وتركز النشاط التجاري حول البن الوارد من اليمن والسلع المستوردة من الهند. ولم يكن لتجارة البن موسم خاص وذلك لأنه كان يرد على جدة بالسفن طوال العام. وقد سبق لبن اليمن أن كان الوحيد في الأسواق بمصر وتركيا. لكنه تلقى

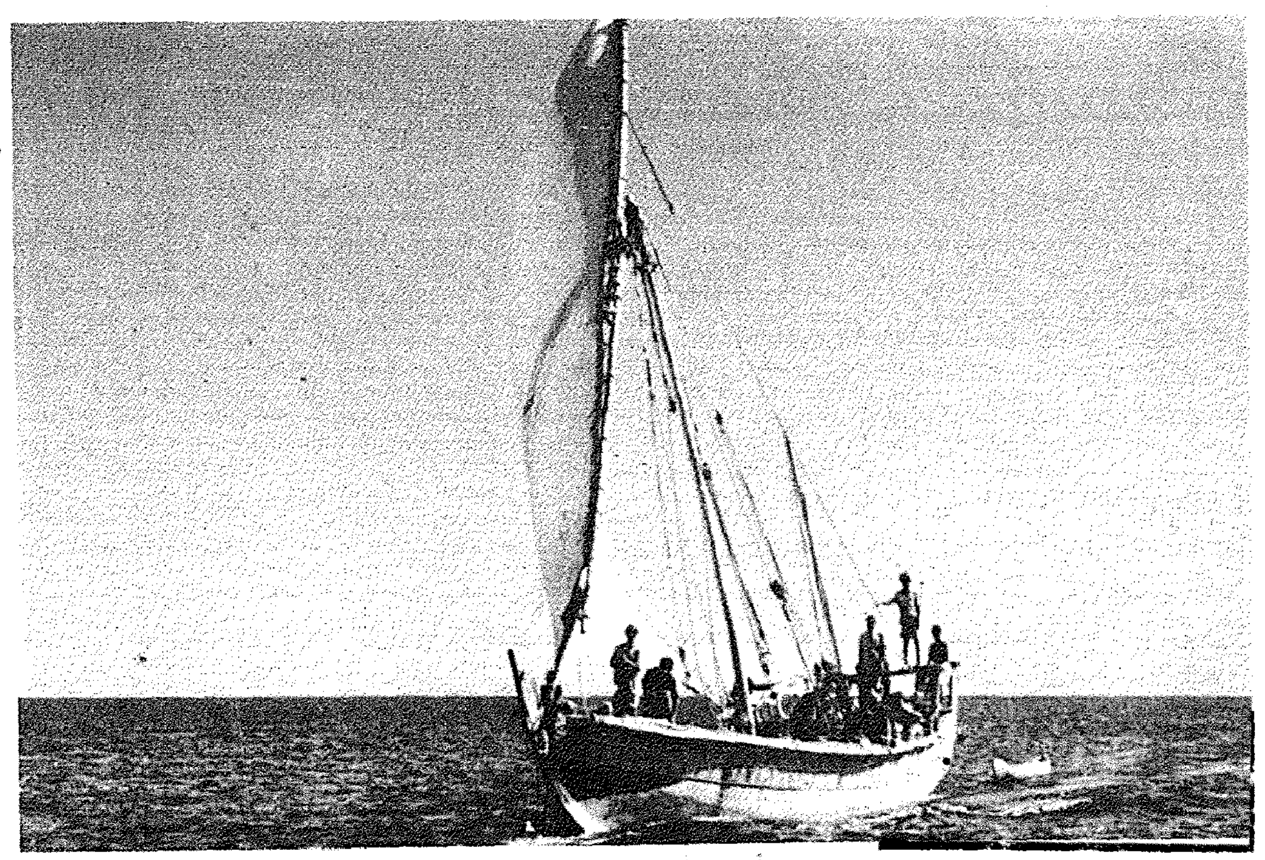
ضربة كبيرة بسبب منافسة بن جزر الهند الغربية الذي أخذ يرد إليها. ويذكر بركهاردت أنه لم تكد تمر ثلاثة أسابيع على وصوله حتى هبط سعر البن اليمني بمقدار الثلث تقريباً وذلك على أثر الصلح بين أنجلترا والولايات المتحدة الأميركية وتوقع ورود بن الجزر إلى أسواق تركيا. ولا عجب إذن أن صار الاتجار ببُن اليمن ينطوي على مجازفة كبيرة، وأن كثرة من التجار انصرفوا عن الاتجار به لحسابهم وإنما بوصفهم وكلاء. وصار بعض أصحابه يشحنونه للتجار الحجازيين في القاهرة لبيعه بالأسعار الجارية.

وفي حين أن الاتجار بالسلع الهندية لم يكن يقل فائدة عن الاتجار بالبن فإنه كان أسلم عاقبة. وكانت السفن المحملة بتجارة الهند ترد إلى ميناء جدة من الهند وبخاصة من موانىء كلكتا وبومباي وسورت في أوائل شهر أيار، فتجد تجار جدة في انتظارها ومعهم الأموال اللازمة لشراء بضائعها. وفي الشهر التالي وعندما تبدأ السفن بالعودة إلى الهند تأخذ أسعار البضائع التي باعتها لتجار جدة بالارتفاع، إذ يودعها التجار في مخازنهم إلى مطلع السنة الجديدة فيبيعونها بربح ثلاثين إلى أربعين بالمئة. وكان يبيعون القسم الأكبر من البضائع في القاهرة ويقبضون الثمن نقداً أو يبادلونها ببضائع مصرية وبخاصة الأقمشة.

وكان من الصعب على ميناء السويس أن يزاحم ميناء جدة لسببين رئيسيين أولهما عدم توافر رؤوس الأموال الضخمة الكافية لشراء البضائع بالجملة لدى تجار السويس وتجار القاهرة، والثاني أنه كان يتعين على سفن الهند التي تقصد السويس أن ترسو في طريقها بمينائي ينبع وجدة وأن تدفع ضرائب على دخولها الميناءين وجمارك على البضاعة. ولهذا كان أصحاب التجارات يفضلون بيعها في جدة اختصاراً للمسافة وتوفيراً للضرائب الاضافية، ورغبة في الحصول على أثمان بضائعهم فور تسليمها.

السلع المستوردة

كانت أكثر السلع التي ترد إلى جدة من خارج الجزيرة تجلب من الهند ومصر. فمن الهند كانت تستورد الرز ذا الحبة الطويلة والسكر. وكان



□ البحر الأحمر وزورق حديث، ولكنه نموذجاً مطابقاً للزورق الذي استقله بيركهاردت قاطعاً إلى جدة.



□ نقود تركية.

أهلها يفضلونها على أرز مصر وسكرها. كما كانت تستورد منها الأفاوية والتوابل، والشموع والورق والأواني الصينية والمعالق والأواني والأدوات الخشبية والسكاكين والمسابح والمرايا.

وكانت تستورد من مصر القمح والشعير والعدس والأرز والسكر إلى جانب الأقمشة والملابس والأواني النحاسية والخرز الزجاجي، والسيرج الذي كان يستخدم في الاضاءة.

ومن سواكن ومصوع على شاطىء السودان ومن القصير على ساحل مصر كانت جدة تستورد الزبدة وذلك لأن الزبدة التي كانت تجلب من المناطق المجاورة في الحجاز لم تكن كافية. وكان أفخرها زبدة مصوع التي كانت تعرف بزبدة دهلك، ودهلك جزيرة قرب ساحل السودان. ويذكر بركهاردت أن بعض الأهالي من العامة كانوا يفركون صدورهم وأكتافهم وأذرعهم وأرجلهم بالزبدة كما يفعل الزنوج اعتقاداً منهم بأنها تنعش البشرة.

ومن بلاد الشام كان يرد إلى جدة الصابون ومن جزر الهند الشرقية الصومال جوز الهند، ومن اليونان الجبنة والفواكه المجففة، ومن أوروبا الأبر والمقصات والسكاكين والساعات، والتبغ والغلايين من العراق وايران.

أسواق جدة

كانت في جدة عند زيارة بركهاردت لها سبع وعشرون قهوة وأكثر من مئتين وثلاثين مخزناً ودكاناً رئيسياً لبيع السلع. ولاحظ أن عادة تدخين الشيشة (الأرجيلة) والغليون في المقاهي والبيوت كانت منتشرة، وأن التبغ والتنباك كانا يستوردان بكميات ضخمة. وأفخر أنواع التبغ والتنباك كان يرد من شيراز بإيران. وأقل منه جودة هو التمباك الذي كان يستورد من العراق واليمن ومصر.

ولم تكن الفئات العليا في المجتمع تتردد على المقاهي لأن أفرادها كانوا يستقبلون الناس في بيوتهم. وعليه فكان روادها من الفئات الدنيا والبحارة. ولاحظ بركهاردت أن «الحكواتية» أي الذين يقرأون القصص الشعبية لا وجود لهم فيها. وكان الزبائن يتسلون بلعب المنقل والضاما.

وكان في جدة عندئذ ستة وعشرون دكاناً لبيع الفواكه بما فيها التمور التي كانت ترد إلى الأسواق طوال العام، وإثنان وثلاثون كانوا لبيع الفطائر والفول (المدمس) والحلويات والشيش كباب والشوربة والسمك المقلي بالزيت، والخبز واللبن.

وكان للعطارين ثمانية عشر دكانا، وهم جميعاً من أهل جزر الهند الشرقية والهند وبخاصة من ميناء سورت. وكان الاقبال شديداً على إحدى سلعهم وهي أزرار الورد التي كانت ترد من الطائف. وفي هذه الدكاكين كان يباع سكر الهند الذي يميل إلى الاصفرار. وكان العطارون يجنون

أرباحاً طائلة من بيع العطور والمواد المتصلة بها.

وكان من أعظم مخازنها أحد عشر مخزناً للمصنوعات الهندية التي أشرنا إليها، وأحد عشر مخزناً لبيع الأقمشة وخصوصاً المصرية والهندية وتشمل شالات الكشمير التي كانت تباع للميسورين. هذا إلى جانب ثلاثة دكاكين لبيع الأوعية النحاسية وأكثرها من الأباريق التي تستخدم في الوضوء، وثلاثة دكاكين لبيع قرب الماء التي كانت تتزود بها القوافل أو يدور بها السقاؤون لبيع الماء. وكان في جدة ساعاتي تركي.

ولاحظ بركهاردت أن جميع تجار مكة يقتنون الساعات الانجليزية التي كان يجلبها التجار أو الحجاج. واعتاد الحجاج الأتراك أن يحمل الواحد منهم معه ساعة ومسدساً وخنجراً وأن يبيع أحدها أو كلها إذا احتاج إلى المزيد من المال.

وبلغ عدد صيارفة جدة خمسة عشر. وكان الواحد منهم يجلس على رصيف الشارع وأمامه صندوق فيه العملة. وقد سبق أن كانت الصيرفة بيد اليهود فلما طردهم الشريف سرور (١١٨٦ ــ ١٢٠٢هـ/ ١٧٧٢ ــ ١٧٨٧م) حل محلهم أهل جدة. وكانت أسعار العملة في تقلب مستمر، ولكن الصيارفة كانوا شديدي الحذر. فكانوا يخرجون رابحين من كل صفقة.

وكانت العملات المتداولة هي التركية وأكثرها شيوعاً الغرش الذي كان يساوي أربعين بارة، ويأتي بعدها الدولار الاسباني الذي كانت تتراوح قيمته بين تسعة غروش واثني عشر غرشاً. وكان إذا وصل تجار الهند جدة بلغ أعلى قيمة له، وإذا بدأوا بمغادرتها أخذ يهبط حتى يصل إلى أدنى قيمة له. ويأتي بعد ذلك السِّكْوين المجري ثم الروبية الهندية.

واردات جدة

كانت واردات جدة الرئيسية تتألف من الجمارك والضرائب التي تفرض على التجارات التي ترد إليها. ففي الميناء كانت السفن تدفع جمارك عالية على السلع التي تجلبها. وعند باب مكة والمدينة كان موظفو الجمارك يفرضون الضرائب على السلع الواردة إلى المدينة من مناطق الحجاز المجاورة وأهمها الأغنام والجمال والزبدة والتمور. وفي عام ١٨١٤ بلغت واردات المدينة من هذه الجمارك أربعة ملايين غرش (أو ٨٠٠٠ كيس وتعادل ٤٠٠,٠٠٠ دولار).

وكانت هذه الواردات ضخمة في حساب أهل زمنها. ويمكننا أن نكون فكرة عن قيمتها إذا عرفنا أن اردب القمح (ووزنه خمسون كيلو) كان يباع بمبلغ يتراوح بين ١٣٠ و ١٦٠ غرشاً أي أن الكيلو كان يباع بثلاثة غروش. ومما يذكر أن القمح كان يستورد من مصر وأن الأردب هناك كان يباع بمبلغ لا يزيد على خمسة عشر غرشاً. وعليه فإن التجار كانوا يجنون منه أرباحاً طائلة. وكان رطل الحليب يباع بغرش ونصف غرش. وفي مكة كان كيلو الأرز الهندي يباع بثلاثة غروش، وكيلو العدس المصري بغرشين. وكان أجر الصانع في اليوم خمسة غروش، وأجر الخادم في الشهر ثلاثين غرشاً.

بركهاردت يدون أخبار رحلته

غادر بركهاردت الحجاز بعد أن زار جدة ومكة والمدينة في أوائل عام ١٨١٥ إلى مصر. وفي القاهرة عكف على تدوين أخبار رحلته. وكان من الواضح أنه دفع ثمناً كبيراً لهذه الرحلة. إذ أقعدته الحمى أكثر من مدّة في المدن الحجازية، وذهبت بشبابه. وبينما كان يهم بمواصلة رحلاته أصيب بالزحار. وأحسّ بدنو أجله، فاستدعى القنصل الانكليزي بالقاهرة هنري صولت، وأودعه وصيته التي طلب فيها أن يدفن في القاهرة. وتوفي وهو في الثانية والثلاثين من العمر. وبذلك خسر العلم رحالة من أرفع طراز وعالماً من أوسع العلماء الغربيين معرفة بالقرآن والتفسير والحديث. ودفن في القاهرة وكتب على قبره:

«هو الحي الباقي. هذا قبر المرحوم إلى رحمة الله تعالى الشيخ حاج إبراهيم المهدي بن عبدالله بيركهاردت اللوزاني... تاريخ ولادته ١٠ محرم ١١٩٩ من الهجرة وتاريخ وفاته إلى رحمة الله بمصر المحروسة في ١٦ ذي الحجة سنة ١٢٣٢ الموافق ١٨١٧م».

وفي أغلب الظن أنه مات مسلماً. والله أعلم! ●

«الشيوخ اللبنانيون» من خلال «معجم الشيوخ» للحافظ الذهبي

د. عمر عبد السلام تدمري

أخرجت المدن «اللبنانية» في تاريخها الاسلامي، عبر أربعة عشر قرناً هجرياً، المئات من العلماء الأعلام في مختلف فروع المعرفة وفنون العلم، من محدّثين، ومفسّرين، ومؤرّخين، وفلكيين، ومهندسين، ورياضيين، وفلاسفة، وأدباء، ولُغويين، ونحويين، ومقرئين، وشعراء، وأطبّاء، ونسّابة، وأخباريين، ومصنّفين، وفرائضيين، ومنطقيين، وغيرهم من أهل العلم.

كما استقبلت ــ في المقابل ــ مئات العلماء الأعلام من مختلف أصقاع العالم الاسلامي، فمنهم من طوّف بين مدن «لبنان» وقراه، وأخذ عن شيوخه أثناء متابعة رحلته الدراسية، ثم غادرها إلى أماكن أخرى مواصلاً رحلته العلمية، ومنهم من نزل إحدى المدن اللبنانية واستوطنها حتى نُسِب إليها لطول المدّة التي قضاها فيها قبل أن يتحوّل عنها، ومنهم من أقام فيها حتى قضى نحبه. وهؤلاء وأولئك، وغيرهم من المجاهيل الذين لم نقف على أسمائهم، وأهملتهم المصادر التاريخية، أسهموا كلّهم حسب نزعاتهم واهتماماتهم العلمية بإغناء الحياة الفكرية والثقافية في المدن اللبنانية، كما أغنوا الحياة الحضارية في بقيّة المدن والقرى على امتداد المحيط الاسلامي الكبير.

وفي هذه الدراسة نتناول واحداً من هؤلاء العلماء الأعلام الذين استقبلتهم المدن «اللبنانية»، واستفاد على أيدي علمائها، ونَهَلَ علومه من حياض موردهم، وهو المؤرّخ الحافظ الذهبي، الذي أحصى أسماء شيوخه اللبنانيين، وأدرجهم ضمن «معجم الشيوخ» الذي وضعه عِرفاناً لهم منه بالفضل.

□ د. عمر عبد السلام تدمري: رئيس قسم الآثار، استاذ التاريخ الإسلامي ــ الجامعة اللبنانية ــ فروع طرابلس.



الحافظ الذهبي، أشهر من أن يُعَرَّف، فهو الامام العالم العلاّمة الحافظ المؤرّخ **شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، أبو عبدالله التركماني الفارقي الدمشقي المشهور بالذهبي**، صاحب المصنّفات الكثيرة الجامعة النافعة في علم التاريخ بحوادثه وتراجم رجاله، وفي علم الحديث وجرح وتعديل رجاله، وفي علوم القرآن والتعريف بقرّائه، وفي علم الطبّ وحكمائه، فهو ذو الانتاج الفكري الوافر، ويذكّرنا من حيث وفرته بالطبري، وابن الأثير، والمسعودي، بحيث لا نعدو الحقيقة إذا اعتبرناه من المؤلّفين الموسوعيين، والمشاركين الذين أخذوا بكل علوم عصرهم، مع تخصّصهم في عدّة علوم أساسية اتّصفوا بها. والذهبي بمكانته العلميّة يمثّل دُرّة كبيرة في عِقْد الدُّرَر الذي يتحلّى به جيد التراث الاسلامي، في العصر المسمّى بالوسيط. فهو من الأعلام الذين ظهر انتاجهم في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ــ أي في عصر المماليك ــ والذي نؤكّد على القول بأنه عصر الموسوعات العربية الاسلامية، وعصر العلماء الموسوعيين، أمثال: **ابن كثير، والمقريزي، والصفدي، وابن حجر، والنويري، والعمري، والسيوطي، والقلقشندي، وابن منظور، وابن تغري بردي، والكتبي، وابن الفرات، وابن عبدالظاهر**، وغيرهم.

فلقد وُلد الحافظ الذهبي سنة ٦٧٣هـ بكفر بطنا من غوطة دمشق. وكانت وفاته ليلة الاثنين ٣ ذي القعدة ٧٤٨هـ في القاعة التي كان يسكنها بمدرسة أمّ الملك الصالح بدمشق.

وفي عصره كان علم الحديث مهملاً محتاجاً إلى علماء ذوي همّة يبعثون دراساته من جديد، فتوفر هو لهذا العمل الجليل، وحمد الناسُ أثَرَه، وامتدحه العلماء الذين جاؤوا من بعده، فقال الفقيه شمس الدين محمد بن علي الحسيني في ترجمته: «الشيخ الامام العلاّمة، شيخ المحدّثين، قدوة الحفّاظ والقرّاء، محدّث الشام ومؤرّخه ومفيده، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، كان أحد الأذكياء المعدودين، والحفّاظ المبرّزين،... حمل عنه الكتابَ والسُّنَّةَ خلائق، والله تعالى يغفر له»[١]. وقال التاج السُبْكي وهو تلميذه: «امّا أستاذنا أبو عبدالله فبَصَرٌ لا نظير له، وكبير هو الملجأ إذا نزلت المُعْضِلة، إمام الوجود حِفْظاً، وذَهَبُ العصر معنىً ولفظاً، وشيخ الجرح والتعديل، ورجل الرجال في كل سبيل، كأنّما جُمعت الأمة في صعيد واحد، ثم أخذ يُخبر عنها إخبار من حضرها»[٢]. وقال ابن شاكر الكتبي: «أتقن الحديث ورجاله، ونظر عِلَله وأحواله، وعرف تراجم الناس، وأزال الإيهام في تراجمهم والباس، جمع الكثير، ونفع الجمّ الغفير، وأكثر من التصنيف، ووفّر بالاختصار مؤنة التطويل في التأليف»[٣]. ووقف ابن الزملكاني على تاريخه الكبير المسمّى «تاريخ الاسلام وطبقات مشاهير الأعلام» جزءاً بعد جزء إلى أن أنهاه مطالعةً، وقال: هذا كتاب عِلْم. اجتمعت به وأخذت عنه وقرأت من تصانيفه ولم أجد عنده جمود المحدّثين ولا كَوْدَنَة النَقَلَة. بل هو فقيه النظر. له دِرْبَة بأقوال الناس ومذاهب الأئمة من السلف، وأرباب المقالات، وأعجبني ما يعانيه في تصانيفه من أنه لا يتعدّى حديثاً يورده حتى يبيّن ما فيه من ضَعْف مَتْن، أو ظلام إسناد، أو طعْن في رُواة. وهذا لم أر غيره يعاني هذه الفائدة فيما يورده.

وكانت للذهبي رحلة واسعة في طلب العلم، طوّف فيها في بلاد الشام ومصر والحجاز، وأول رحلته كانت إلى مدينة بعلبك سنة ٦٩٣هـ حيث قرأ فيها القرآن جَمْعاً على الموفَّق النصيبي المتوفّى سنة ٦٩٥هـ وأكثر عن المحدّث الأديب تاج الدين أبي محمد المغربي البعلبكي المتوفي سنة ٦٩٦هـ. ودخل بعلبك مرّة ثانية سنة ٧٠٧هـ[٤] وقد سمع في هاتين الرحلتين على كثير من شيوخ المدينة. ورحل بعد ذلك إلى حلب، وسمع بحمص، وحماة، وطرابلس، والكرك، والمَعَرَّة، وبُصْرَى، ونابلس، والرملة، والقدس، وتبوك، وبلبيس، والقاهرة، والاسكندرية، والحجاز، ومكة، وعرفة، ومنى، والمدينة، ومعان.

امّا مصنّفاته فكثيرة متنوعة، أحصى منها الصديق البّحاثة الدكتور «بشّار عوّاد معروف» (٢١٥) مئتين وخمسة عشر كتاباً، في القراءآت، والحديث، ومصطلح الحديث، والعقائد، وأصول الفقه، والفقه، والرقائق، والتاريخ والتراجم،

والسِيَر والتراجم المُفْرَدَة، والمنوّعات، والمختصرات والمُنْتَقَيات، والتخاريج، ومعجمات الشيورة، والمشيخات، والأربعينات الحديثية، والثلاثينات، والعوالي، والأجزاء[٥]. وأشهرها:

تاريخ الاسلام، وسِيَر أعلام النبلاء، وميزان الاعتدال، ومعرفة القراء الكبار، والعِبَر في خبر من غبر، ودول الاسلام، والمغني في الضعفاء، والكاشف، والمشتبه في أسماء الرجال، والكبائر، وتذكرة الحفّاظ، ومعجم الشيوخ الكبير، وهذا الأخير هو الذي سنعتمد عليه في تخريج الشيوخ اللبنانيين، وقد استعنت بنسخة الأخ الدكتور بشّار معروف المصوَّرة عن نسخة دار الكتب المصرية رقم ٦٥ مصطلح، وهي في جزأين، وتحمل العنوان التالي: «**كتاب فيه معجم محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن الذهبي**». وقد ذكر في المعجم أكثر من (١٣٠٠) ألف وثلاثمائة شيخ، ممن أخذ عنهم وسمعهم وروى عن طريقهم. ورتّبه على حروف المعجم، وبدأ بمن اسمه «أحمد» ثم «ابراهيم» وهكذا حسب الحروف الأبجدية، وهم على النحو التالي:

١ ــ **أحمد بن ابراهيم بن محمد بن إدريس بن باباجوك، قاضي شَيْزَر، نجم الدين ابن الشهاب البعلبكي الشافعي.**

اشتغل مدّة، وشارك في الفضائل، وكان فيه دين وسكون. مات سنة ٧٢٣ بشيزر وله نيّف وستون سنة، وهو تركماني.

أخبرنا أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن محمد، ووالده، ومحمد بن علي، وعلي بن عبدالولي، ومحمد بن الرشيد ببعلبك، بقراءتي، قالوا: أخبرنا أبو الغنائم المسلم بن محمد القيسي... عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تستضيئوا بنار المشرك ولا تنقشوا خواتيمكم عربياً». هذا حديث غريب...[٦].

٢ ــ **أحمد بن سلمان بن مروان بن علي بن البعلبكي العدل، أبو العباس.**

أديب فاضل متميّز، لكنّه يدخل في شهادة الزُّور، ولذلك عزله ابن الحريري في أيام قضائه بدمشق من شهادة القيمة.

أفرد القراءآت، وعَرَضَ الشاطبية على الشيخ علم الدين البخاري، وسمع منه ومن غيره.

وله نظم جيّد. مات في ربيع الآخر في سنة ٧١٢ وله ٨٥ سنة[٧].

٣ ــ **أحمد بن عبدالله بن أحمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بن سلطان بن يحيى القرشي، أبو العباس الشافعي المعروف بالقاضي شقير.**

اشتغل وحصّل، ثم ترك وتجرّد وصحب الفقراء المجرّدين الجريرية، واتُّهم بالاتحاد. وقد أراه شيخنا ما في نصوص الحكم في البلايا فتبّرأ منها، وقال: ما كنت أعرف. وكان فيه تعبُّد، وله أوراد في الجملة. وقدم طرابلس ولحق بها، فأعجبني فقره وإنجماعه عن متوليّها.

مات في جمادى الآخرة سنة ٧١٥ وله ٨٢ سنة[٨].

٤ ــ **أحمد بن عبدالله بن نصرالله بن رسلان الشيخ أمين الدين أبو العباس ابن البعلبكي.**

وُلد في صفر سنة ٦٢٦ وسمع من الزّبيدي في الخامسة، ومن ابن اللّتي، وأجاز له مشيخة أصبهان.

مات في شوّال سنة ٧٠١هـ[٩].

٥ ــ **أحمد بن عبدالرحمن بن يوسف المقرىء الزاهد أبو العباس بن شيخنا الامام الفخر البعلبكي السكاكيني الحنبلي.**

وُلد سنة ٦٤٨ ظنّاً، وسمع من خطيب مرداً وابن عبدالدائم وجماعة، وكان خيّراً صالحاً متواضعاً بقيّة سلف.

توفي في صفر سنة ٧٣٢[١٠].

٦ ــ **أحمد بن محمد بن محمد بن اسماعيل الفقيه شهاب الدين البعلي.**

خطيب حصن الأكراد. عالم فاضل له مشاركة في العلم والانشاء، فيه دين وكَيْس. سمع معنا من التاج عبدالخالق وغيره. ومولده سنة ٦٧٧ وقد ضُرب مرتين وسُجن ثم غرّب، ثم أضمرته البلاد ــ فإنّا لله ــ ثم استوطن سنجار، وأفتى بفتاوى منكَرَة ودخل فيما لا يعنيه حباً لرياسة الظهور، وعليه مآخذ دينية ــ سامحه الله.

توفي بالجزيرة في سنة ٨ أو ٧٣٧.

أنشدنا لنفسه بطرابلس (وذكر ثلاثة ابيات)[11].

٧ ــ أحمد بن يحيى بن طي بن علي أبو العباس البعلبكي.

المعدّل وكيل بيت المال ببلده. إنسان ساكن وقور. مولده سنة ٦٢٨ سمع من سليمان الأسعردي وعبدالرحيم الفناري.

مات في ذي الحجة سنة ٧١٨[12].

٨ ــ أحمد بن أبي بكر بن منصور بن عطية القاضي الامام شمس الدين الاسكندراني.

الفقيه قاضي طرابلس، رجل فاضل متفنّن عارف بالمذهب، يعاني التجارة، ودخل إلى بلاد الترك وجالس الكبار، وكان ذا رأي وحزم وشجاعة. له غلمان وعنده أسلحة، وأنشأ بطرابلس مدرسة نزلنا بها. صُرف عن القضاء لكونه مرض وحصل له جنان. قال لي: وُلدت سنة ٦٣٤ وسمعت من الزكيّ المنذري، واستعلمت على ابن عبدالسلام.

توفي في ربيع الأول سنة ٧٠٧.

وكتب إليّ شهاب الدين ابن مرّي أنه لما احضر حضره وزال عنه التخبّط وجمعنا حوله وأمسك بسرعة البقلة بيديه فرحاً مستبشراً، ثم كرّر كلمتيْ الشهادة وقال: ساعدوني وآنسوني فإنّ النفس لها عند المفارقة انزعاج، وإذا رأيتموني قد مُتُّ مسلماً فاشكروا ربكم على الهداية إلى هذا الدين العظيم، ثم كرّر الشهادة بخشوع نحو ثلاثين مرة، ثم توفي ــ رحمه الله تعالى.

أنشدني قاضي طرابلس أحمد بن أبي بكر، انشدنا الأديب شرف الدين التوحيدي لنفسه:

دعوا معشر الضلال عنّا حديثكم
فلا خطا منه يُجاب ولا عَمْدُ
دعوه إلهاً ثم قالوا بموته
ولو أنه ربٌّ لكان له الخُلْدُ
ومن جهلهم عدُّوا الثلاثة واحداً
ويلزمهم من ذلك العكس والطردُ
كان اعتقاد القوم في ربّهم ربّاً
فساموه ثلاثاً على أنه فَرْدُ[13]

٩ ــ أحمد بن أبي المحاسن بن ابراهيم الطيبي الأديب شمس الدين أبو الفضل.

الكاتب. له يد في النظم والنثر والكتابة، ولكنه يُرْمَى بالرفض، وقيل كان نُصَيْرِيّاً. وقد أنشدنا لنفسه قصده يدلّ على معتقده، فالله أعلم.

مات سنة ٧١٧ بطرابلس، وكان من كُتّاب الانشاء بها.

أنشدنا الشمس الطيبي لنفسه:

نور العلوم من القرآن والخبر الأصل
هذان وهي الفرع فاعتبر
هذا الكتاب وهذي السُّنّة القَفا
على هذا به أهل النقل والأثرِ

يمدح منها ملك الأمراء «أسندمر»[14] ويقول:

على سماع البخاري انقضى صفرٌ بنا
لديك فما أحلاه من صفر

وسمعت أيضاً من نظمه مع شيخنا علم الدين. وقيل اسم أبيه «يعقوب»[15].

١٠ ــ إبراهيم بن أحمد بن حاتم، الفقيه القدوة، أبو اسحاق البعلبكي.

إمام مسجد بطاعن (؟). وُلد سنة ٦٣١ وصحب الشيخ الفقيه، وسمع من خطيب مرداً، وسليمان الأسعردي والفقيه محمد. وأجاز له ابن روزبه وابن بهروز والقاضي نصر بن عبدالرزاق وطائفة. وكان يذكر عنه كرامات، وله حظّ من تألّهٍ وصلاة وصيام، وكان قانعاً متعفّفاً، أصيب ببصره في آخر عمره، والله يعوّضه بالجنة.

مات في صفر سنة ٧١٢[16].

١١ ــ إبراهيم بن بركات بن أبي الفضل البعلبكي، الشيخ أبو إسحاق، ويُعرف بابن القرشية.

من أعيان الفقراء القادرية، فيه دين وكَيْس وحُسْن ودّ، وعلى ذهنه فوائد ونوادر. مولده سنة ٦٥٠ وسمع من الشيخ الفقيه وابن عبدالدائم وابن الصيرفي.

توفي في رجب عام ٧٤٠.

أخبرنا إبراهيم بن بركات وابن عمّه محمد بن أبي الفتح بطرابلس قالا: أخبرنا محمد بن أبي الحسين الفقيه، أخبرنا أبو طاهر الخشوعي، أخبرنا أبو محمد القاسم بن علي الأديب في كتابه... عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الآيتان من آخر سورة البقرة مَن قرأهما في ليلة كَفَتَاه»[17].



□ منظر عام لمدينة بعلبك.

١٢ ــ إبراهيم بن عبدالغني المعدل الكبير، ناصر الدين أبو الفضل ابن البعلبكي الدمشقي.

وُلد في ذي القعدة سنة ٦٤٥ وسمع من قاضي القضاة صدر الدين الشافعي وعلي البشتي وابن رزمان الحنفي، ولم أره روى شيئاً أيام تغيُّره فإنه تغيّر ذهنه نحواً من سنة، ثم انقطع وجلس في حضرته ابن أبي الحسن، والتزم له في الشهر بتسعين درهم.

توفي في ذي القعدة سنة ٧٢٩[١٨].

١٣ ــ إبراهيم بن علي بن سناء المُلْك برهان الدين المصري.

صاحب الخط المنسوب، اجتمعت به بطرابلس في سنة ٧٠٧ وهو شاب عامل، فسألته خبر خدمة، فأملى هذه النسخة عليّ، قال: يؤخذ دخان زيت الكتّان ويوضع في صلابة صلبه ويخدم بفهر (؟) بماء الصمغ العربي، ويلقى منه فوق ذلك ويخدم بفهر كبير (!) ويستعمل على لبقة جديدة[١٩].

١٤ ــ إبراهيم بن محمد بن إدريس بن بابا جوك بن شعبان، المقريء شهاب الدين أبو أحمد التركماني البعلبكي.

وُلد سنة ٦٣٥ وسمع من الفقيه اليونيني والشيخ إبراهيم البطائحي وابن أبي الخير الحداد. وتلا بالسبع على الشيخ موفق الدين النصيبي، وكان فيه دين وخير وملازمة المسجد والاقراء. حكى أنه سمع من ابن عبدالدائم.

مات في صفر سنة ٧٢٢ وكان يخطب بالحنّاء مدّة[٢٠].

١٥ ــ إبراهيم بن منير البعلبكي.

الزاهد العابد، ويُعرف بالصّبّاح. سمعته يقول: سمعت عبدالرحمن بن حصن يحدّث عن أبيه قال: أتيت الشيخ عبدالله اليونيني الكبير، فقلت: يا سيدي أريد أن أصحبك، فقال: كيف تقدر وأنتم إذا رأيتم العافية رميتم أنفسكم إليها، وأنا إذا رأيت الموت دلّيت نفسي فيه.

توفي شيخنا إبراهيم الصبّاح في المحرّم سنة ٧٢٥ عن سبعين سنة، احترق بالمجمرة وشيّعه الخلق[٢١].

١٦ ــ إسحاق بن إبراهيم بن سلطان، أبو إبراهيم البعلي الكتاني.

المقريء، إنسان خيّر مبارك. مولده في سنة ٦١٠ كذا رأيته بخط ابن الجارة. روى عن البهاء عبدالرحمن.

توفي في ذي القعدة سنة ٦٩٣.

أخبرنا إسحاق الكتّاني والتاج عبدالخالق وبنت عمّه ستّ الأهل بقراءتي قالوا: أخبرنا عبدالرحمن بن إبراهيم ببعلبك، أخبرتنا شهدة الكاتبة، أخبرنا الحسين بن طلحة... عن عائشة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يقطع في ربع دينار فصاعداً[٢٢].

١٧ ــ إسماعيل بن إسماعيل بن جُوسَلين.

الفقيه العدل، عماد الدين البعلي. الرجل الصالح. تفقّه في مذهب أحمد، وأتقن الشروط، مع زُهد وعفاف وخير. مولده سنة ٦٠٤ سمع الشيخ الموفّق وأبا المجد القزويني والبهاء وجماعة، وروى الكثير.

توفي في صفر سنة ٦٨١[٢٣].

١٨ ــ آقوش أبو محمد حسام الدين القطبي اليونيني.

سمع ابن أبي اليُسْر والكمال بن عبد. مولده في حدود الأربعين وستماية، واشتراه أوّلاً بحلب القاضي بدرالدين ابن الأستاذ وهو خماسيّ، ثم سافر به على بعلبك، فوهبه وهو مراهق للشيخ قطب الدين ابن اليونيني، فبقي عنده نحواً من عشر سنين، ثم تحوّل إلى دمشق وصار مؤذّناً بتربة أمّ الصالح، ثم بجامع العقيبة، ثم تقرر بجامع دمشق في سنة ٧٠ فأذّن به نحواً من ٥٠ سنة. وكان قصيراً له قبقاب عالٍ، وكان من صوفية الأسديّة. فيه دين وكثرة تلاوة.

مات في ربيع الأول سنة ٧٢٠، قرأ لنا عليه الشيخ علم الدين[٢٤].

١٩ ــ آمنة ابن الشيخ الفقيه محمد بن احمد بن عبدالله بن عيسى، أم أحمد البعلبكية.

مولدها في سنة ٦٣٧ تقريباً، ولم أر لها سماعاً بل أجاز لها العزّ والنّسّابة والتاج القرطبي وابن الصلاح، وجماعة.

توفيت في آخر سنة ٧٢٥ وهي في عُشْر المئة، فإنني وجدت بخط الحافظ علم الدين مولدها تقريباً سنة ٣٣[٢٥].

٢٠ ــ داود بن إبراهيم بن محفوظ الحوراني، أبو سليمان البعلبكي.

الشاهد. حدّث مرات عن البهاء عبدالرحمن، ومات سنة ٧٠٣[٢٦].

٢١ ــ ذبيان بن أبي الحسن بن عثمان البعلبكي.

السمسار بسوق علي. سمع الشيخ الفقيه وابن عبدالدائم. توفي في جمادى الأولى سنة ٧٠٢ وقد شاخ[٢٧].

٢٢ ــ زينب بنت عمر بن كندي بن سعيد بن علي، أم محمد الدمشقية الكِنْدِية.

نزيلة بعلبك، شيخة صالحة جليلة كثيرة المعروف، حجّت وبنت رابطاً ووقفته على البرّ. رَوَتْ الكثير بإجازة المؤيّد الطوسي وأبي رَوْح وزينب بنت الشعري.

توفيت في أواخر شهر جمادي الآخرة سنة ٦٩٩[٢٨].

٢٣ ــ ستّ الأهل بنت الناصح علوان بن سعيد بن علوان، أم أحمد البعلبكية.

امرأة صالحة خيّرة زاهدة قانعة باليسير. وُلدت سنة بضع عشرة وستماية وسمعت الكثير، وروت عن البهاء عبدالرحمن، وتفرّدت بأشياء.

ماتت في المحرّم بأرض الفَرَسَة في سنة ٧٠٢ وحُملت إلى سفح قاسيون[٢٩].

٢٤ ــ صالح بن أحمد بن عثمان صلاح الدين، أبو أحمد الخلاطي ثم البعلي القوّاس.

الشاعر، رجل خير مبارك متواضع، صحب الفقراء وسافر الكثير، وكان يعبّر الرؤيا.

أنشدني قصيدته السائدة ذات الأوزان:

ذا ثوى بفؤاد شفّه سقم
لمحنتي من دواعي الهمّ والكمد

وقد سمع من الشيخ الفقيه وغيره. مات في ربيع الأول سنة ٧٢٣ ببعلبك وقد نّيف على الثمانين[٣٠].

٢٥ ــ عبدالله بن عبدالغني الشرف، أبو أحمد البعلبكي الدريني:

رجل من أهل القراءآت فيه كَيْس ومروءة،

سمع الكثير وأسمع أولاده، ومات كهلاً في حدود السبعماية.

انشدنا عبدالله بن عبدالغني ببعلبك سنة ٦٩٣ للشيخ يحيى بن يوسف من حفظه:

لولا شذا من نشركم ينشق ... ما من نحو المتيّم المُغرق
ولا صبا في الصبح نحو الصَبا ... ولا أبارت سحوه الأينق
فكّوا أسيراً لكم مولعاً ... عليه في حفظ الهوى موثق
فؤاده قيّده حبّكم ... ودمعه بين الورى مُطلق[٣١]

٢٦ ــ عبدالحميد بن عبدالرحمن بن رافع بن منهال.

الخطيب الزاهد أبو محمد اليونيني الحنبلي. شيخ خيّر متعبّد، يخطب بقرية عمشكا. سمع إسماعيل بن ظفر والشيخ اليونيني، وصحب الشيخ إبراهيم البطائحي فكان من أنجب أصحابه، وكان ليلة نصف شعبان قد صلّى بأصحابه في القرية مائة ركعة فأصبح وعمل في كرْمه أكبر النهار، ومات فجأة آخر النهار سنة ٦٩٨ وقد قارب الثمانين[٣٢].

٢٧ ــ عبدالخالق بن عبدالسلام بن سعد بن علوان.

القاضي الامام تاج الدين أبو محمد المعرّي ثم البعلبكي الشافعي الأديب. ولي قضاء بلده مدّة، وكان خيّراً صالحاً متواضعاً زاهداً، حسن الاعتقاد، له نظم ونثر. مولده في أحد الجُمادين سنة ٦٠٣ ورأى الشيخ عبدالله اليونيني الكبير وسمع كلامه، وسمع من الشيخ الموفق والبهاء والقزويني وابن واصل وابن رواحه واللبلي والحافظ البرزالي وغيرهم. وأجاز له الكندي وغيره.

اكثَرْتُ عنه ونِعْم الشيخ كان. مات في تاسع المحرّم سنة ٦٩٦[٣٣].

٢٨ ــ عبدالرحمن بن شيخنا التقيّ احمد بن عبدالرحمن بن مؤمن الصوري ثم الصالحي.

روى لنا عن ابن عبدالدائم، وسمع من ابن هامل والشرف بن النابلسي، وأجاز له اسماعيل بن الدرجي وجماعة.

مات في شعبان سنة ٧١٤ وبقي أخوه عمر إلى سنة عشرين[٣٤].

٢٩ ــ عبدالرحمن بن عبدالوهاب بن علي بن أحمد بن عقيل.

خطيب بعلبك أبو الفرج، وقيل أبو محمد السُلمي البعلبكي. وُلد في شوال سنة ٦١٤ وسمع أبا المجد القزويني وبه ختم حديثه وأبا المنَجا اللّتي وأبا عمرو بن الصلاح وأبا القاسم بن رواحه. وكان خطيباً، وكذلك خطب أبوه من قبله بها نحواً من ستين سنة، ثم توفي في سنة ٦٤٦.

وتوفي شيخنا في صفر سنة ثلاث وسبعماية[٣٥].

٣٠ ــ عبدالرحمن بن المفتي شمس الدين محمد بن المفتي فخر الدين عبدالرحمن بن يوسف.

الحافظ الفقير فخر الدين أبو الفرج البعلبكي ثم الدمشقي الحنبلي، المحدّث، صديقنا ورفيقنا. وُلد في أثناء سنة ٦٨٥ وحضر ابنَ البخاري في جماعة أجزاء، وسمع من ابن الواسطي والفاروتي وطائفة بإفادة والده، ثم طلب الحديث وهو ابن عشرين سنة، وعُني به ورحل وجمع فسمع من أبي جعفر الموازيني وفاطمة بنت سليمان وابن مشرف، وبمصر من سبط زيادة وعلي بن الصوّاف، وبالحرمين والاسكندرية وحلب والقدس. وخرّج لنفسه وللكبار. وقرأ للعامّة ونفعهم ــ نفعه الله ــ بما علّم، وغفر له.

توفي في ذي القعدة سنة ٧٣٢[٣٦].

٣١ ــ عبدالرحمن بن يوسف بن محمد بن نصر.

الامام المفتي الزاهد العابد فخر الدين البعلبكي الحنبلي، أحد العلماء العاملين. وُلد سنة ٦١١ وسمع: القزويني والبهاء عبدالرحمن والناصح الحنبلي وابن اللتي ومكرَّم بن أبي الصقر. وقرأ كتاب الله تعالى على خاله صدر الدين عبدالرحيم قاضي بعلبك، وتفقّه بدمشق على تقيّ الدين بن العزّ وأبي سليمان بن الحافظ وشمس الدين عمر بن المنجا. وعرض علوم الحديث من لفظه على ابن الصلاح، وحضر بحوث السيف الآمدي، وقرأ

النحو على ابن الحاجب. ودرّس بالجوزية وبالمسمارية نيابةً، وولي مشيخة الحديث بالنورية والصدرية وبالعُرْوبة، وتخرّج عليه أئمّة. وكان متواضعاً خيّراً يؤثر الخُمول ويلازم التهجّد وكثرة التلاوة ويكثر الصوم، ويؤثر عنه كرامات وأحوال، منها أنه قال في صحّته وعافيته منه: أنا أعيش عُمر الامام أحمد لكن شتّان ما بيني وبينه. فعاش مثله.

توفي في رجب سنة ٦٨٨، أجاز لي مروّياته(٣٧).

٣٢ ــ عبدالسلام بن عبدالخالق بن عبدالسلام ابن سعيد بن علوان.

العدل موفّق الدين أبو سعيد البعلبكي ابن شيخنا تاج الدين. سمع أبا سليمان بن الحافظ والفقيه محمداً، وسمع بحماه من صفية ــ عرفتُ ذلك بعد موته ــ، وأجاز له أبو إسحاق الكاشغري وغيره.

مولده سنة ٦٣٦ ومات سنة ٧٠٣ في ربيع الآخر.

قرأت عليه بعَرَفَة وغيرها مجلس البطاقة. وكان فاضلاً خيّراً حسن السَّمْت(٣٨).

٣٣ ــ عبدالقادر بن شيخنا أبي الحسن علي بن الشيخ الفقيه محمد بن أبي الحسين اليونيني البعلي الحنبلي.

الشيخ محي الدين أبو عبدالله. وُلد سنة ٦٨٢، وسمع من والده ومن الفخر بن البخاري وابن الكمال وجماعة. انتقيت له جزءاً. وهو فقيه عالم خيّر بارك الله فيه. سمع معي الكثير ببعلبك(٣٩).

٣٤ ــ عبدالكريم بن عبدالرحيم بن عبدان بن زيد أبو محمد البعلبكي.

روى لنا عن البهاء عبدالرحمن، وكان خيّراً حسن السَمْت مات في سنة ٦٩٨ وقد نيّف على الثمانين(٤٠).

٣٥ ــ عثمان بن موسى بن رافع بن منهال أبو عمر اليونيني الحنبلي.

المقرىء خطيب قرية نيحا. سمع أبا القاسم ابن رواحة وابن ظفر. روى عنه ابن الخيار وغيره.

توفي في ربيع الأول سنة ٦٩٦.

أخبرنا عثمان بن موسى وابن عمّه عبدالولي الخطيب وفاطمة بنت جوهر وإسحاق الأسدي قالوا: أخبرنا أبو الغنائم بن رواحة(٤١).

٣٦ ــ العزّ العقّاد.

شيخ ظريف صحب الفقراء، ويحكي عنه البعلبكيون طيب مزاح. أرسله شيخه أبو الحسين لفتح بيت الكويت ويحضر له مجلّداً، ففتح ودخل، وهناك قطرميز زيت طيّب، فوقع القطرميز مع أخْذ المجلّد، فأتلف الطرّاحة وبعض الكتب وعام به البيت، فخرج وأغلق بالكَيْلُون، وجاء فرماه للشيخ وقال: هذا القفل عَسِر ما ينفتح لي، فأعطى الشيخ الكَيْلُون لخادمه الملقّب بالقط، ثم قال: رُحْ أنت افتح وهات المجلّد، فذهب القط وفتح وتناول المجلّد وجاء به. فلما قام الشيخ إلى بيته وجد البيت في تلك الحالة، فغضب على القط وشاله على رجليه، ثم حدّث بها العزّ بعد مُدَيْدَة.

انشدني العزّ العقّاد لبعضهم:

إن تاه جزّاركم عليكم بفطنة عنده وكَيْس
فليس يرجوه غير كلب وليس يخشاه غير تيس

توفي العزّ هذا قبل السبعماية، وقد شاخ(٤٢).

٣٧ ــ علي بن سليم بن ربيعة الأنصاري الأذرعي.

القاضي ضياءالدين أبو الحسن الشافعي، ولي قضاء أماكن. علّقت عنه بطرابلس. عاش خمساً وثمانين سنة.

توفي سنة ٧٣١(٤٣).

٣٨ ــ علي بن عبدالولي بن أبي محمد بن خولان.

التاجر أبو الحسن البعلبكي، عدل فاضل عامل. روى لنا عن ابن علّان أحاديث. توفي في شعبان سنة ثلاثين. وهو والد الفقيه بهاءالدين. كتب إليّ أبو الغنائم بن علّان، وأخبرني عنه علي بن عبدالولي، ومحمد بن رشيد، ومحمد بن علي، وإبراهيم بن بابا جوك، وابنه أحمد أن حنبلاً أخبرهم...(٤٤).

٣٩ ــ علي بن محمد بن الحسين بن احمد بن عبدالله بن عيسى بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد.



□ مدينة طرابلس.

الإمام المحدّث الفقيه الأوحد، بقيّة السلف، شرف الدين أبو الحسينابن الإمام الربّاني الفقيه أبـي عبدالله اليونيني الحنبلي، شيخنا ومُفيدنا. وُلد في رجب سنـة ٦٢١ وسمع من البهـاء عبدالرحمن حضوراً، ومن ابن الصبـاح وابن الزُبيـدي وابن اللّتّي ومكرم وعبدالواحـد بن أبـي المضاء وابن رواج، وخلق سواهم بمصر والشام. واستنسخ صحيـح البخاري وحـرّره. حدّثني أنه قابله في سنة واحدة، وأسمعه إحدى عشرة مرة، وروى الكثير. وكان شيخـاً مهيباً منوّراً حُلْو المجالسة كثير الإفادة قويّ المشاركة في العلوم، حسن البشر مليح التواضع. أكثرت عنه ببعلبك وبدمشق، دخل في أول رمضان سنة ٧٠١ خزانة الكتب ببعلبك فدخـل إليه رجـل مضطرب العقل فضربه بسكّين صَفْرة في دماغه بقي أياماً وتوفي إلى رحمة الله[٤٥].

٤٠ ــ عمـر بن أبـي القـاسم بن عمـر اليونيني السلاوي.

الصوفي، أبو حفص، صحب الفقراء وروى عن الشيخ الفقيه وابن عبدالدائم. مولده سنة ٦٢٤ ومات في ذي القعدة سنة ٧٠٧[٤٦].

٤١ ــ عيسى بن عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالكريم أبو الفضل ابن المعرّي البعلبكي الفامي الزيات.

وُلد في ذي الحجة سنة ٦٣٧ وسمع من أبـي سليمـان بن الحـافظ. روى لنـا مجلس البطاقة. مات في ربيع الآخر سنة ٧١٤[٤٧].

٤٢ ــ عـائشـة بنـت عـبـدالله بـن عبـدالمؤمن بن أبـي الفتـح الصوري أم عبدالله.

روى عن خطيب مردا وابن عبدالدائم، وهي زوجـة شيخنا التقيّ بن مـؤمن. قرأت عليهـا أحاديث نُكْر.

ماتت في ذي القعدة سنة ٧٢٦ وأمّها هي صفيّة بنت الوسطي[٤٨].

٤٣ ــ فاطمة بنت القدوة الزاهد الشيخ إبـراهيم بن محمود بن جـوهـر البـطائحي البعلبكي أم محمد.

امرأة صالحة عابدة مُسْنِدة. وُلدت في رجب

سنة ٦٢٥ وسمعت صحيح البخاري من ابن الزبيدي، وصحيح مسلم من أبي الثناء محمود بن الحصيري شيخ الحنفية، وهي آخر من روى عنه وفاةً. وسمعت من أبي القاسم بن رواحة، وطال عمرها وروت الكثير.

توفيت في أواخر صفر سنة ٧١١[٤٩].

٤٤ ــ فاطمة بنت الزاهد البركة عمادالدين إسماعيل بن إبراهيم بن سلطان أم أحمد البعلبكية.

إمرأة خيّرة، وهي خالة صاحبنا الشمس بن الحبّال. روت عن الشيخ الفقيه. مضت الرواية عنها.

توفيت في رجب سنة ٧١٢ في عُشْر السبعين[٥٠].

٤٥ ــ فاطمة بنت الشيخ نفيس الدين ابي البركات محمد بن الحسين بن عبدالله بن رواحة الأنصارية الحموية أم أحمد.

سمعت منها بحماه وبطرابلس، وحدّثت بمصر أيضاً من دهر. روت عن عمّها أبي القاسم.

مولدها سنة بضع وستمائة وثلاثين، وتوفيت في ذي الحجة سنة ٧١٦ بحماه[٥١].

٤٦ ــ محمد بن أحمد بن تبع.

الفقيه الفاضل صلاح الدين أبو أحمد البعلبكي القصير. وُلد بعد الأربعين وستماية وقرأ بالروايات واشتغل وناب عن ابن عبدالدائم. وكان لطيف القد، حفظة للنوادر طريفاً.

مات في جُمادى الأولى سنة ٧١٠[٥٢].

٤٧ ــ محمد بن أحمد بن شعفور البعلي.

فقير نظيف مطبوع، جالسته بحماه فذكر لي أنه سمع من الشيخ الفخر. ومولده بعد سنة ٦٦٠ وتوفي سنة ٧٣٥.

أنشدني ابن شعفور: أنشدنا الفخر علي لبعضهم:

ولست بميّال إلى جانب الغِنى
إذا كانت العليا في جانب الفقر
وإنّي لصبّار على ما ينوبني
وحسبك أن الله أثنى على الصبر[٥٣]

٤٨ ــ محمد بن بلغز بن محمد بن بلغز بن دارة.

الشيخ فخر الدين أبو عبدالله البعلبكي. وُلد سنة ٦١٣ في جمادي الآخرة، وسمع من البهاء المقدسي، وكان شيخاً مباركاً عامّياً. سمع منه الحافظ علم الدين رابع المحامليات، وكتب إليّ شيخنا أبو الحسين أنه توفي في محرم سنة ٦٩٦[٥٤].

٤٩ ــ محمد بن داود بن الياس.

الفقيه الامام شمس الدين أبو عبدالله البعلبكي الحنبلي خادم الشيخ الفقيه. سمع الشيخ الموفق والقزويني وابن اللّتي وابن صصري وابن الزُبيدي وطائفة، وكتب الطباق ونسخ الأجزاء، وكان من كبار عدول بلده وفقهائهم. قال للوجيه الثغري: وُلدت في جمادى الأولى سنة ٥٩٨ أجاز لي مروّياته، وتوفي في رمضان سنة ٦٧٩[٥٥].

٥٠ ــ محمد بن سليمان بن مروان جمال الدين أبو عبدالله ابن البعلبكي الدمشقي الشافعي.

سمع من أصحاب الخشوعي، ونسخ الكتب الكبار، مضت الرواية عنه وستأتي مع أخيه يحيى. سمع من المجد وابن أبي اليُسْر «فضائل الشام» للربعي، وسمع جزء «الجصّاص» الأول، و «الضعفاء» للنسائي. وكان فيه دين وعلم وانقباض.

توفي في رمضان سنة ٧٣٩ وكان من أبناء الثمانين[٥٦].

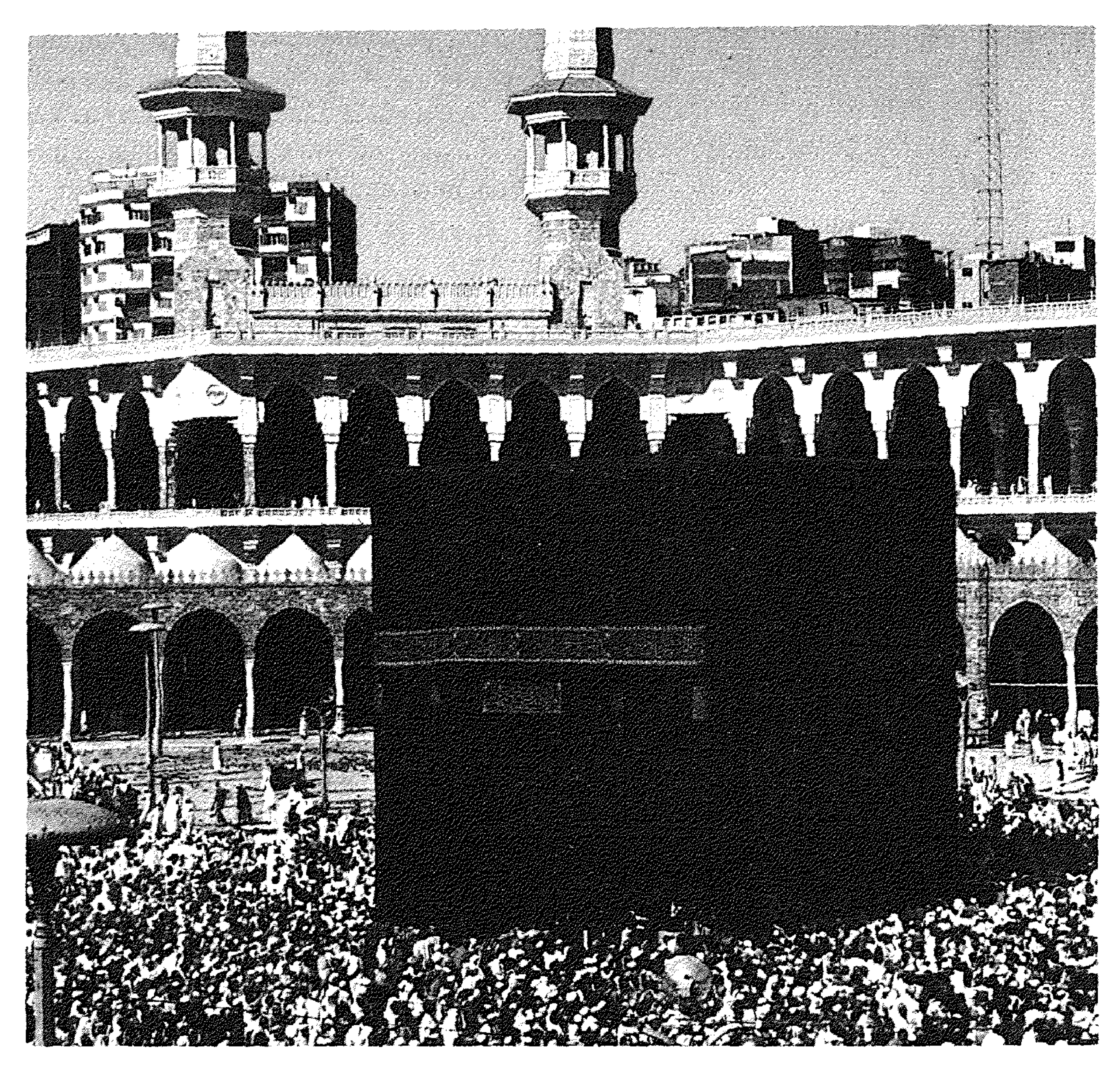
٥١ ــ محمد بن عبدالرحيم بن عبدالوهاب بن علي بن أحمد.

الخطيب العالم محي الدين أبو المعالي السُلمي الشافعي خطيب بعلبك. وُلد سنة ٥٨ في رمضان، ونشأ بدمشق، وسمع من ابن عبدالدائم اكثر «الترغيب والترهيب»، واشتغل وكتب واشتغل وكتب الخط المنسوب، ونسخ الكثير. وكان مُجيداً للخطابة، مليح الشكل عاقلاً متصّوناً كبير القدر، وهو والد المجوّد بهاء الدين.

توفي في شعبان سنة ٧٤٣[٥٧].

٥٢ ــ محمد بن عبدالولي بن ابي محمد بن خولان.

الامام العالم المحدّث الخيّر الصادق،



□ مكة المكرمة.

أمين الدين أبو عبدالله البعلبكي التاجر المقرىء. سمع من الشيخ الفقيه وابن عبدالدائم وجماعة. حدّثنا ببعلبك وبالمدينة النبوية وبتبوك. وكان محبّباً إلى الناس لمروءته وعلمه وتقواه.

وُلد سنة ٦٤٤ ومات في شعبان سنة ٧٠١[٥٨].

٥٣ ــ محمد بن علي بن محمد بن أحمد.

الامام الفاضل النبيل تقي الدين ابن شيخنا الامام أبي الحسين ابن الشيخ الفقيه اليونيني البعلي الحنبلي، شيخ بعلبك وابن شيخها. وُلد سنة ٦٦٧ وسمع من الجمال بن الصيرفي والشيخ شمس الدين وابن علّان والفخر علي، وعدّة. وتنازل في الفضائل، وكان ذا سؤدد وعقل وشجاعة وحسن محاضرة. مرّت الرواية عنه وله إجازة من ابن عبدالدائم وجماعة. رزقه الله التقوي والتواضع وإيّانا.

مات بدمشق سنة ٧٣٧[٥٩].

٥٤ ــ محمد بن عمر بن الياس بن الرشيد البعلبكي.

شاب حسن ذو مروءة وخير. روى لنا عن المسلم بن علّان. مولده بعد ٦٧٠ مضت روايته. توفي سنة ٧٢٠[٦٠].

٥٥ ــ محمد بن أبي بكر بن بُحتر.

الخطيب العالم شمس الدين أبو عبدالله خطيب حصن الأكراد. له مشاركة في الفقه والتفسير والانشاء، وفيه دين وخير. وُلد سنة

٦٥٤ قال لي أنه سمع «صحيح مسلم» و «جزءابن عرفة» من ابن عبدالدائم، فقرأت عليه بطرابلس من أول ذا وذا عدّة أحاديث.

توفي في أواخر سنة ٧٠٩[٦١].

٥٦ ـ محمد بنّ الامام القدوة الزاهد ابي الحسن بن حصن البعلبكي ثم الدمشقي الحنبلي.

المقريء الصالح شمس الدين أبو عبدالله. وُلد سنة ٦٦٨ وسمع من ابن أبي عمرو ابن علّان وجماعة، فأكثر، وحدّث بالمُسْنَد فأدركه قبل كماله الأجل في صفر سنة ٧٣٠[٦٢].

٥٧ ـ محمد بن أبي العزّ بن مشرّف بن بيان.

المعمَّر المُسْنِد شهاب الدين أبو عبدالله الأنصاري الدمشقي التاجر. وُلد سنة ٦١٩ وسمع من ابن الصبّاح والناصح الحنبلي وابن باسويه فكان آخر من حدّث عنهم بالسماع بدمشق، ومن الزُبيدي وابن المقير وابن الشيرازي وابن المكرم. وحدّث بدمشق وبعلبك وكفربطنا وطرابلس. وكان مليح الاصغاء إلى القاريء لا ينطق ولا ينعس. وصار مسمّعاً بدار الحديث الأشرفية إلى أن مات في ذي الحجة سنة ٧٠٧[٦٣].

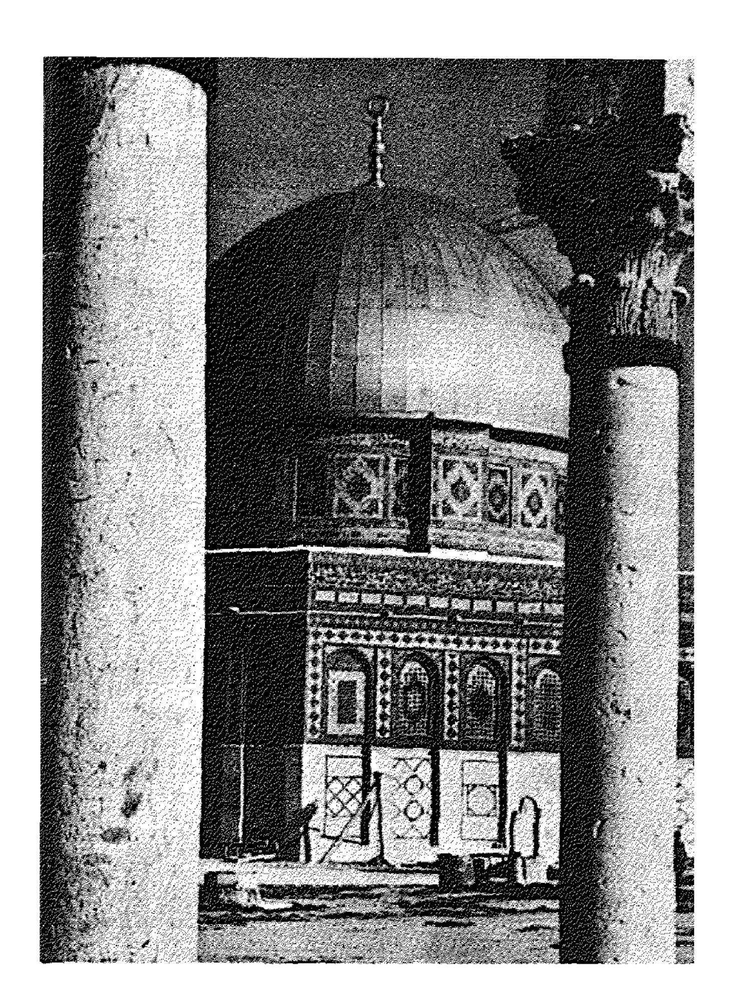
٥٨ ـ محمد بن أبي العلاء بن علي بن المبارك.

الامام المقريء المجوّد بقية السلف موفّق الدين أبو عبدالله الرّباني النصيبي الشافعي الصوفي شيخ الصوفية والقراء ببعلبك. وُلد سنة ٦١٧ وتلا بالسبع على أبي عمرون الحاجب والسديد عيسى، وسمع من ابن الحاجب والفقيه اليونيني.

مات في ذي الحجة سنة ٦٩٥ جمعت عليه الختمة وسمعت منه الحاجبية في النحو[٦٤].

٥٩ ـ محمد بن أبي الفتح بن ابي الفضل

الامام العلّامة المحدّث المفتي النحوي الصالح الخيّر شمس الدين أبو عبدالله البعلبكي الحنبلي. وُلد سنة ٦٤٥ وسمع من الشيخ الفقيه وتحوّل إلى دمشق فاشتغل واتقن الفقه، وسمع الكثير من ابن عبدالدائم والكرماني وأصحاب الخشوعي وحنبل ومن بعدهم، وعُني بالرواية



□ القدس.

والأجزاء، ولزم ابن مالك مدّة فكان من نجباء أصحابه، وصنّف في العربية وغيرها، وأفاد ودرّس، مع التواضع وحسن الخُلُق والقناعة والاقتصاد وكثرة المحاسن.

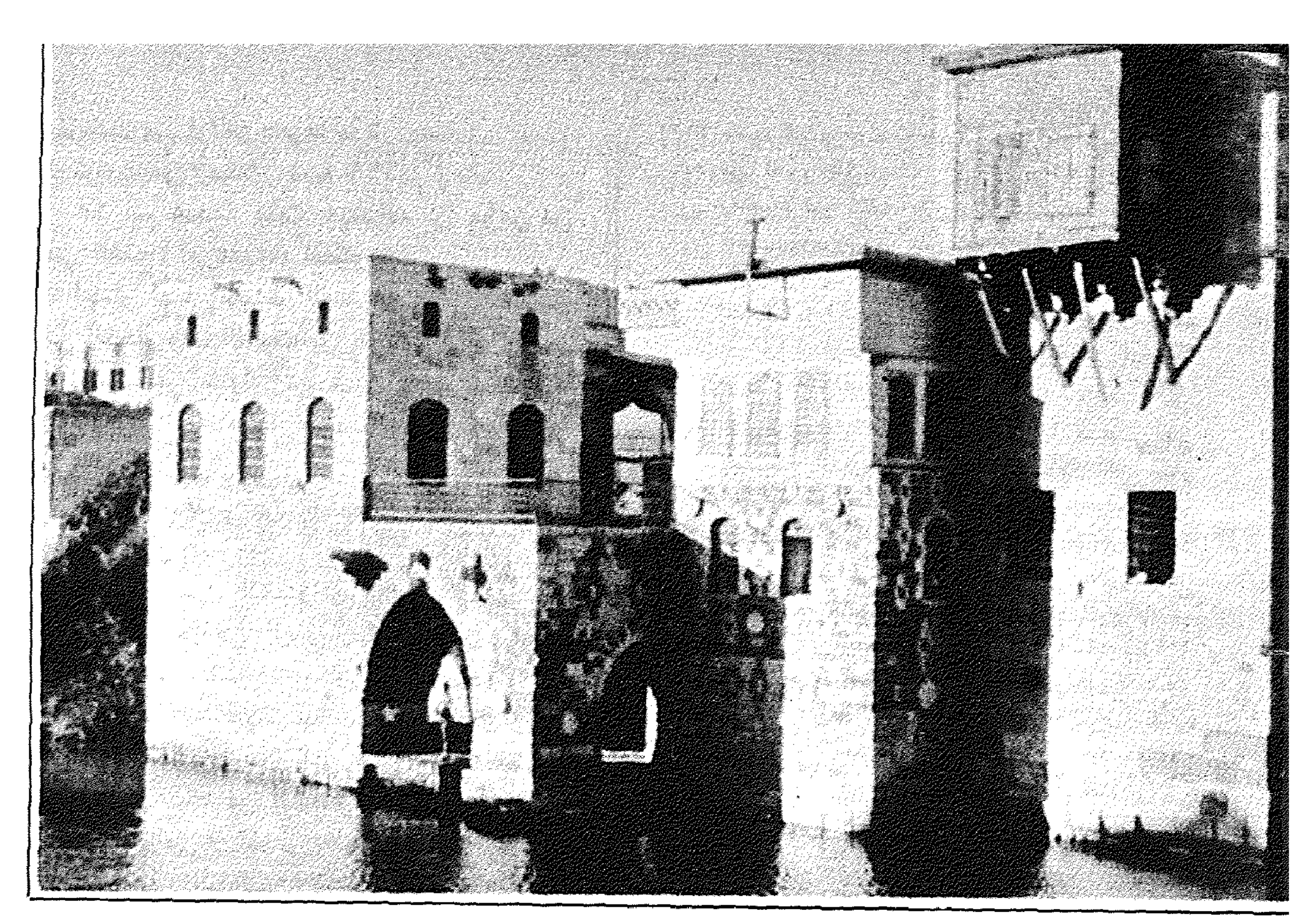
مات بالقاهرة بعد دخوله بأيام في المحرم سنة ٧٠٩.

مضت الرواية عنه، وأنشدنا ابن أبي الفتح لبعضهم:

ولقد عُرضت عليّ الملاح فلم أجد
قلبي يحبّ من الملاح سواه
معنى به تسبي العقول سوى
الذي تسمّى الجمال ولست أدري ما هو[٦٥]

٦٠ ـ المسلم بن محمد بن المسلم بن مكي بن علّان.

المُسْنِد الجليل الصادق العالم شمس الدين أبو الغنائم العنسي الدمشقي الكاتب. وُلد سنة ٥٩٤ وسمع من حنبل جميع المُسْنَد ومن ابن طبرزد والكِنْدي وابن الشريف وابن الحرستاني وآخرين، فسمع من الكِنْدي «تاريخ بغداد»، ومن ابن الحرستاني «صحيح مسلم»، ومن ابن طبرزد «الزهد» لابن المبارك، و «الترمذي»،



□ مدينة حلب.

واخبرنا داود، وسمع «صحيح البخاري» من ابن مندويه، وأجاز له أبو طاهر الخشوعي والقاسم بن عساكر وأبو سعد الصفار، وعُمّر دهراً. وروى المُسْنَد ببعلبك وبدمشق. ومات في ذي الحجة سنة ٦٨٠، أجاز لي جميع مروّياته، وكان سخيّاً سريّاً ديّناً، ولي نظر بعلبك(٦٦).

٦١ ــ منصور بن سليمان بن يوسف بن محبوب.

الشيخ الجليل عمادالدين البعلبكي، الكاتب على دار السُّكّر. روى عن الرشيد العراقي والبلداني وابن خطيب القرافة والشيخ الفقيه. وُلد سنة ٦٤١ وهو شيخ بهيّ عاقل متديّن.

مات في ربيع الأول سنة ٧٢٤ أصله من خره بُغْلَة(٦٧).

٦٢ ــ موسى بن عبدالعزيز بن جعفر بن شمخ بن طارق.

الشيخ العالم المقريء الصالح الزاهد البركة شمس الدين البعلبكي الأدفي الحنبلي. قرأ أكثر «مختصر الخرقي» على الشيخ الفقيه وسمع منه ومن غيره. مولده سنة ٣٦ أو في التي بعدها. ومات في ربيع الآخر سنة ٧٢٠(٦٨).

٦٣ ــ موسى بن الامام الرّباني الشيخ الفقيه تقي الدين محمد بن أبي الحسين احمد بن عبدالله.

الشيخ الجليل العالم النبيل قطب الدين أبو عمران اليونيني الحنبلي كبير البعلبكيين. وُلد في صفر سنة ٦٤٠ وسمع من أبيه، وبدمشق من ابن عبدالدائم، وشيخ الشيوخ محمد بن أبي العزّ بن الأنصاري، وبمصر من اسماعيل بن صارم وغيره. اختصر «التاريخ الكبير» الملقّب بـ «مرآة الزمان» ثم ذيّل عليه أربع مجلّدات. وكان كريم النفس والحديث حلو المحاضرة يرجع إلى دين في الجملة، نال عزّاً وجاهاً، فصديقه السلطان الملك المنصور سيف الدين، فأعطاه الآخر قرية وقطع رايتهم وما أنصفهم.

مات في شوال سنة ٧٢٦(٦٩).

٦٤ ــ مريم بن أحمد بن حاتم بن علي أم عيسى البعلية.

وُلدت سنة ٦٢١ وسمعت من البهاء عبدالرحمن حضوراً ومن الفخر الاربلي،

وعَرّضت في أواخر عمرها مدّة.

توفيت في رمضان سنة ٦٩٩[٧٠].

٦٥ ـ هدية بنت عبدالله بن مؤمن بن أبي الفتح، أم عبدالله الصورية.

اجاز لها أحمد المارستاني وعلي بن أبي الفخار وعبداللطيف بن القسطي.

توفيت في شوال سنة ٧١٩ وقد قاربت الثمانين. سمعنا منها مشيخة ابن أبي الفخار[٧١].

٦٦ ـ يحيى بن سليمان بن مروان بن البعلبكي.

الفقيه العدل الخيّر زين الدين أبو خليل الدمشقي الشافعي. روى عن ابن أبي اليُسر وغيره، وحفظ «التنبيه»، وكان له أملاك تكفيه.

مات سنة ٧١٥ وقد نيّف على السبعين[٧٢].

٦٧ ـ يوسف بن أبي عبدالله محمد بن يوسف بن سعد بن الحسن.

الفقيه البارع أقضى القضاة جلال الدين أبو المحاسن النابلسي ثم الدمشقي الشافعي معيد الشامية، ثم قاضي بعلبك ثم نابلس ثم بعلبك وبها مات. وكان ذا دين وخير وتقوى وتواضع، وكان ذا دين قويم ومعرفة بالمذهب. سمع من محمد بن محمد المجد الاسفرائيني والشرف المرسي وشيخ الشيوخ وابن عبدالدائم.

مات في رمضان سنة ٧١٠ وقد نيّف على السبعين[٧٣].

●

الحواشي

(١) ذيل تذكرة الحفّاظ ـ ص ٢٤.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ـ ج ٥/٢١٦.

(٣) فوات الوفيات ـ ج ٢/١٨٣.

(٤) مقدّمة سير أعلام النبلاء ـ ج ١/٢٥.

(٥) مقدّمة سير أعلام النبلاء ـ ج ١/٧٥ ـ ٩٠.

(٦) معجم الشيوخ ـ ج ١/٣ ب. وله ترجمة في الدُرر الكامنة لابن حجر ١/١٠١.

(٧) معجم الشيوخ ـ ج ١/٧ أ.

(٨) معجم الشيوخ ـ ج ١/٧ ب.

(٩) معجم الشيوخ ـ ج ١/٩ أ.

(١٠) معجم الشيوخ ـ ج ١/١٠ ب.

(١١) معجم الشيوخ ـ ج ١/٢٠ أ.

(١٢) معجم الشيوخ ـ ج ١/٢١ ب.

(١٣) معجم الشيوخ ـ ج ١/٢١ ب، ٢٢ أ، وله ترجمة في الدرر الكامنة ١/١٢١ و ١٢٢، الذهبي ومنهجه في كتابة «تاريخ الاسلام» ـ د. بشّار عوّاد معروف ـ ص ٨٩ (المتن والحاشية، ملحوظة ٨ ـ طبعة القاهرة ١٩٧٦، سير اعلام النبلاء (مقدّمة د. بشّار عوّاد معروف) ـ ج ١/٢٦ ملحوظة ٦ ـ طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

وأقول: إن المدرسة التي نزلها الذهبي هي المدرسة المعروفة بالشمسية القائمة على يسار البوّابة الرئيسة للجامع المنصوري الكبير بطرابلس، وبها ضريحان لاثنين من آل سُنَيْن المعروفة الآن بالمولوي. (أنظر كتابنا: تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك ـ ص ٣٣٤ ـ طبعة دار البلاد بطرابلس ١٩٧٤، وتاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور (عصر دولة المماليك) ـ ج ٢/٣٢٦ ـ طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١).

وقد نصّ ابن حبيب الحلبي في كتاب «تذكرة النبيه في سيرة الملك المنصور وبنيه» على أن المدرسة الشمسية هي للقاضي الاسكندري المذكور ـ ج ١/٣٣٤ ـ تحقيق د. محمد محمد امين ـ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٦.

وانظر: موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الاسلامي ـ وهي من إعدادنا ـ ق ٢ ـ ج ١/٢٧٥ رقم الترجمة ٩٢ ـ منشورات المركز الاسلامي للاعلام والانماء، بيروت.

(١٤) هو نائب السلطنة بطرابلس في عصر المماليك «سيف الدين أسندمر الكرجي». انظر عنه كتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ـ ج ٢/٣٤.

(١٥) معجم الشيوخ ـ ج١ / ٢٤ ب، وانظر عنه: تذكرة النبيه ١/٢٥١ و ٢٥٢، درّة الأسلاك ١/١٥٩، المنهل الصافي (مخطوط) ٥/١٦٦، السلوك للمقريزي ـ ج ٢ ق ١/١٧٨، تاريخ الحريري (مخطوط) ـ ج ١/١٠٧، النجوم الزاهرة ٩/٢٤٠، شذرات الذهب ٦/٤٣، نفح الطيب للمقّري ١/٣٤، تذكرة النبيه ٢/٨٥، عقد الجمان لبدر الدين العيني (مخطوط) ـ ج ٢٣ ق ١/١٣١ ـ ١٣٥، نهاية الأرب للنويري (مخطوط) ٣٠/١١٦، نثر الجمان للفيّومي (مخطوط) ٤/١٢١ أ، خطط الشام ٦/٣٧، الدرر الكامنة ١/٣٦٣ ـ ٣٦٥، الوافي بالوفيات للصفدي ٨/٢٩٧ و ٢٩٨، نفحات الأزهار على نسمات الأسحار لعبدالغني النابلسي ـ ص ٢٢٨، وكتابنا: تاريخ طرابلس ـ ج ٢/٤٥٣ ـ ٤٥٧.

(١٦) معجم الشيوخ ـ ج ١/٢٤ ب.

(١٧) معجم الشيوخ ـ ج ١/٢٦ أ ـ ب.
وأقول: إن الذهبي صحبه في رحلته إلى طرابلس، وكان البعلبكي ابن القرشية صديقاً لوالده. (انظر عنه: الدرر الكامنة ١/٢١).
(١٨) معجم الشيوخ ـ ج ١/٢٩ أ.
(١٩) معجم الشيوخ ـ ج ١/٢٩ ب.
(٢٠) معجم الشيوخ ـ ج ١/٣٤ أ.
(٢١) معجم الشيوخ ـ ج ١/٣٦ أ.
(٢٢) معجم الشيوخ ـ ج ١/٣٦ أ، طبقات الشافعية الكبرى ٥/٢١٦.
(٢٣) معجم الشيوخ ـ ج ١/٣٨ أ.
(٢٤) معجم الشيوخ ـ ج١/٤٠ب، وانظر: موسوعة علماء المسلمين، من إعدادنا ـ ق ٢ ـ ج ١/١٩٣ رقم الترجمة ١.
(٢٥) معجم الشيوخ ـ ج ١/٤١ ب.
(٢٦) معجم الشيوخ ـ ج ١/٥٠ ب.
(٢٧) معجم الشيوخ ـ ج ١/٥١ أ.
(٢٨) معجم الشيوخ ـ ج ١/٥٣ ب.
(٢٩) معجم الشيوخ ـ ج ١/٦٠ أ.
(٣٠) معجم الشيوخ ـ ج ١/٦٤ أ ـ ب.
(٣١) معجم الشيوخ ـ ج ١/٦٨ ب.
(٣٢) معجم الشيوخ ـ ج ١/٧٤ أ.
(٣٣) معجم الشيوخ ـ ج ١/٧٤ ب، طبقات الشافعية الكبرى ٥/٢١٦.
(٣٤) معجم الشيوخ ـ ج ١/٧٥ أ.
(٣٥) معجم الشيوخ ـ ج ١/٧٨ أ.
(٣٦) معجم الشيوخ ـ ج ١/٧٩ ب، ذيل العبر ١٧٥، طبقات المفسّرين للداودي ١/٢٨٢.
(٣٧) معجم الشيوخ ـ ج ١/٨١ ب.
(٣٨) معجم الشيوخ ـ ج ١/٨٣ أ.
(٣٩) معجم الشيوخ ـ ج ١/٨٦ أ.
(٤٠) معجم الشيوخ ـ ج ١/٨٧ ب.
(٤١) معجم الشيوخ ـ ج ١/٩٣ أ.
(٤٢) معجم الشيوخ ـ ج ١/٩٤ أ.
(٤٣) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٠٠ أ، البداية والنهاية ١٤/١٥٥، الدرر الكامنة ٣/١٢٣، السلوك ـ ج ٢ ق ٣/٤٢٦، تاريخ البرزالي (مخطوط) ٢٣٧، تذكرة النبيه ٢/٢١٢، شذرات الذهب ٦/٩٦ وانظر كتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ـ ج ٢/٥٨ رقم (١٠).
(٤٤) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٠١ ب، ١٠٢ أ.
(٤٥) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٠٢ ب، ١٠٣ أ، شذرات الذهب ٦/٣.
(٤٦) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١١٢ أ.
(٤٧) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١١٢ ب.
(٤٨) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١١٥ أ.
(٤٩) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١١٧ ب.
(٥٠) معجم الشيوخ ٢/١١٨ أ.
(٥١) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١١٩ ب، مرآة الجنان لليافعي ٤/٢٥٥، من ذيل العبر ٨٩، تذكرة الحفاظ ٣/٨٨٣.
(٥٢) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٢٦ أ.
(٥٣) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٢٦ أ ـ ب.
(٥٤) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٣٤ أ ـ ب.
(٥٥) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٣٦ أ.
(٥٦) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٣٨ أ.
(٥٧) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٤٢ ب.
(٥٨) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٤٥ب.
(٥٩) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٥٠ أ.
(٦٠) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٥٣ ب.
(٦١) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٦٦ ب، المشتبه في الرجال ١/٤٨.
(٦٢) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٦٨ ب.
(٦٣) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٦٨ ب، أعيان العصر (مخطوط) ـ ج ٦ ق ١/٧٨ و ٧٩، ذيل تذكرة الحفاظ ٣٩ و ٤٣، التنبيه والايقاظ لما في ذيول تذكرة الحفاظ ـ ص ١٩، تذكرة النبيه ١/٢٨٣، الوافي بالوفيات ٤/٩٤، درّة الحجال في أسماء الرجال لابن الفرضي ٢/٢٩٨، طبقات الشافعية الكبرى ٣/٣٧، ذيل مشتبه النسبة للذهبي ـ السلامي ـ ص ٢٥، من ذيول العبر ٤٠، إنباء الغمر في أبناء العُمر ١/٧٩ و ١٣٤ و ١٦١ و ٤٢٩ و ٥٣٦، شذرات الذهب ٦/١٦ وانظر كتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ـ ج ٢/٤٧٩.
(٦٤) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٦٩ أ وقال الذهبي في كتابه: معرفة القراء الكبار ٢/٥٦٧ و ٥٦٨: «قلّ من رأيت بفصاحة محمد بن محمد بن علي المعروف بابن أبي العلاء النصيبي شيخ الاقراء بالجامع الكبير والخانقاه ببعلبك، وعنه أخذت التجويد وقرأت عليه للسبعة من نحوٍ من خمسين يوماً في سنة ٦٩٣ ولما سافرت إلى بعلبك وتعوّقت بالقراءة على الموفّق بن ابي العلاء وثب على حلقتي محمد بن أحمد بن علي الامام المقريء الفقيه شمس الدين أبو عبدالله الرقي الدمشقي الحنفي الأعرج فأخذها لكوني لم أستأذن الحاكم في الغيبة».
(٦٥) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٦٩ أ.
(٦٦) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٧٣ أ.
(٦٧) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٧٤ أ.
(٦٨) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٧٤ ب.
(٦٩) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٧٥ أ.
(٧٠) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٧٥ ب.
(٧١) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٧٨ ب.
(٧٢) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٨٠ ب.
(٧٣) معجم الشيوخ ـ ج ٢/١٨٦ أ.

السلوك الطبي
للأطباء العرب والمسلمين

د. محمود الحاج قاسم محمد

السلوك الطبي أو الأدب الطبي ــ نعني به هنا ما يجب على الطبيب من التزامات أخلاقية في حياته الاجتماعية والعملية مع مرضاه والتزامات مهنية تجاه زملائه من الأطباء. والالتزامات الأخلاقية في ممارسة الطب هذه نشأت مع نشأة الطب حيث وضعت لها المجتمعات مع مر العصور قوانين جائرة بحق الطبيب ومنها مقبولة ما زال الطبيب يلتزم بها حتى اليوم.

وبغية إعطاء صورة واضحة المعالم عن دور العرب والمسلمين، ابان نهضتهم في العصور الوسطى، في ذلك سوف نتكلم عن خمس مسائل تشكل في مجموعها النظام المتميز للسلوك المهني للأطباء العرب والمسلمين.

أولاً ــ المسؤولية الطبية:



عرف المصريون القدماء المسؤولية الطبية، وسجلوا شروط ممارسة المهنة في كتبهم، فكان على الطبيب ممارسة مهنته بموجبها، أما إذا خالفها فكان جزاؤه الاعدام.

أما الآشوريون فكانوا أقل شدة من غيرهم حيث كان على الطبيب إذا أخطأ ولم يستطع علاج مريض أن يطلب العفو من الآلهة على ذلك بينما كان البابليون أكثر قسوة منهم على الأطباء حيث يتبين ذلك جلياً في بعض بنود قانون حمورابي.

جاء في البند (٢١٨) «إذا عالج الطبيب جرحاً بليغاً أصيب به رجل ــ بمبضع معدني ــ وسبب موته، وإذا شق ورماً بمبضع جراحي معدني وعطل عين الرجل، تقطع يده».

وجاء في البند (٢١٩) «إذا عالج طبيب عبد رجل من عامة الشعب بمبضع جراحي وسبب موته من الجرح، عليه أن يعطي سيده عبداً بعبد».

وجاء في البند (٢٢٠) «إذا شق الطبيب الورم ــ بمبضع معدني جراحي وعطل عين المريض، يدفع نصف قيمة العين فضة».

وعند الاغريق كان الطبيب يسأل جنائياً في أحوال الوفاة التي ترجع إلى نقص خطأ غير

□ د. محمود الحاج قاسم محمد: «عضو الجمعية الدولية لتاريخ الطب».



□ استشارة طبية، من مخطوطة قديمة، تعود إلى القرن الرابع عشر (المتحف الوطني ــ القاهرة)

النقص في كفايته. وجاء في القانون الروماني «إذا كان الموت لا يصح أن ينسب إلى الطبيب فإنه يجب أن يعاقب على الأخطاء التي يرتكبها نتيجة جهله، وأن من يغشون أولئك الذين يكونون معرضين للخطر، لا يصح أن يخلوا من المسؤولية، بحجة ضعف المعارف البشرية».

اما في أوروبا في العصور المظلمة فقد جاء في القانون الكنسي عند الغوط الشرقيين ــ اذا مات المريض بسبب عدم عناية الطبيب، أو جهله يسلم الطبيب إلى أسرة المريض ويترك لها الخيار بين قتله أو اتخاذه رقيقاً. والغوط الغربيون يعدّون الأتعاب التي تعطى للطبيب مقابلة الشفاء فإن لم يشف المريض، اعتبروا العقد غير منفذ، ولا يسأل الطبيب عن وفاة المريض إذا لم يثبت حصول الأخطاء وفي عهد الصليبيين كانت المحاكم في بيت المقدس، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تعتبر الطبيب مسؤولاً عن جميع أخطائه وجميع إهمالاته فإذا توفي الرقيق بسبب جهل الطبيب فإنه يلتزم بدفع ثمنه لسيده، ويترك المدينة أما إذا كان المجني عليه حراً وكانت المسألة تتعلق بجرح بسيط أو سوء عناية لم يترتب عليه الموت، تقطع يد الطبيب ولا تدفع أتعابه أما إذا مات المريض فيشنق الطبيب[١].

هذه القساوة دعت الأطباء في كثير من الأحيان، أن يحجموا عن التطبيب أو يشترطوا شروط عدم المسؤولية، كما حصل فيما رواه غليوم دي تيبر.

من أن الملك أموري الأول من ملوك أورشليم (١١٦٢ ــ ١١٧٣) أصيب بمرض خطير، ولكن الأطباء من أهل البلد رفضوا أن يعالجوه فلجأ إلى الأطباء الأجانب، فاشترطوا عليه أن يعدهم بعدم ترتيب أي عقاب عليهم في حال عدم نجاحهم[٢].

إن هذه القصة تشير إلى كون العقوبات التي ذكرناها لم تكن مطبقة بشكل دائم وإنما كانت الحد الأقصى لمعاقبة الطبيب.

المسؤولية الطبية في الشريعة الاسلامية[٣]

إن المسؤولية الطبية لم تكن معروفة في الشريعة الاسلامية فحسب، بل كان لها فيها من القواعد الدقيقة ما يجعل تنظيمها في جوهره اقرب ما يكون إلى أحدث ما وصلت إليه أرقى الشرائع المدنية في العصر الحديث، وها هي بعض النصوص الواردة في هذا الصدد ــ القاعدة الشرعية ــ إن كل من يزاول عملاً أو علما لا يعرفه يكون مسؤولاً عن الضرر الذي يصيب الغير نتيجة هذه المزاولة وقد جاء في الحديث «من تطبب ولم يكن بالطب معروفاً فأصاب نفساً فما دونها فهو ضامن» ويختلف الأمر من ناحية المسؤولية المدنية، بين الطبيب الجاهل والطبيب الحاذق، فعلماء الشريعة ينفون المسؤولية المدنية عن الطبيب الجاهل، إذا كان المريض يعلم أنه جاهل لا علم له، وأذن له بعلاجه رغم ذلك.

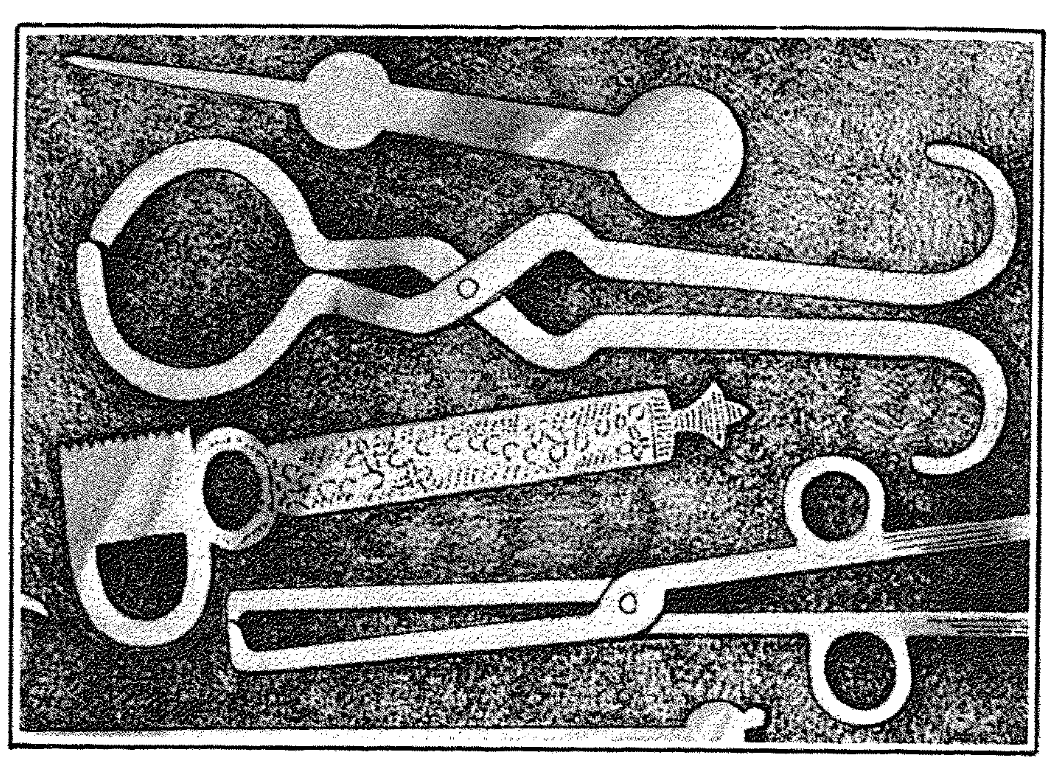
أما الطبيب الحاذق، فلا يسأل عن الضرر الذي يصيب المريض ولو مات المريض من جراء العلاج، ما دام المريض قد أذن له بعلاجه ولم يقع من الطبيب خطأ في هذا العلاج، بل كان الضرر أو الموت نتيجة أمر لا يمكن توقعه أو تفاديه. وعلى هذا اتفق الفقهاء على أن الموت إذا جاء نتيجة لفعل واجب مع الاحتياط وعدم التقصير، لا ضمان فيه.

ويمكن القول بأن الطبيب تنتفي مسؤوليته في الشريعة الاسلامية للأسباب التالية:

١ ــ إضفاء صفة الوجوب على عمله: لأن التطبب فرض غير قابل للسقوط في الأماكن التي ليس فيها طبيب ــ فهو إذاً يقوم بعمله إنما يقوم بواجب ملقى عليه، وله حرية كاملة في اختيار هذا العمل واختيار الطريقة التي يرى فيها صلاحها للمريض.

٢ ــ حسن النية: الطبيب إذ يؤدي عمله، إنما يؤديه بحسن النية هذا هو المفروض والمتطلب منه، فهو بعمله إنما يقصد نفع المريض، لا ضرره. أما إذا كان سيىء النية، أو قصد قتل المريض، فهو في عمله مسؤول عن فعله جنائياً ومدنياً حتى ولو لم يؤد فعله إلى الوفاة أو إلى إحداث عاهة.

٣ ــ إذن المريض: يعتبر إذن المريض موافقة، وسماحاً للطبيب بأن يأتي الفعل، والعبرة بإذن المريض لا شخصه بالذات بل قد يأذن وليه



□ ادوات طبية استعملها الأطباء العرب القدماء.

أو وصيه أو الحاكم عند عدم وجود الوصي أو الولي.

٤ ــ إذن ولي الأمر: المراد هنا بإذن ولي الأمر، هو السماح للطبيب بمباشرة عمله بصفة عامة، كإذن وزارة الصحة أو النقابة في إجازة الطبيب بالعمل، ذلك أن الشريعة الاسلامية تشترط في الطبيب، أن يكون على درجة مهنية من الفهم العلمي.

وأن يكون على جانب من الكفاءات تؤهله لأن يباشر التطبيب ويرد معيار الكفاءات إلى ولي الأمر.

إذا توفرت هذه الشروط، فإن الطبيب يعفى من المسؤولية ولو ألحق الضرر بالمريض، لطالما أنه لم يكن قاصداً إلا الاصلاح والنفع العام له، أما إذا انعدم شرط من هذه الشروط عد الفاعل مسؤولاً عن عمله، ووجب عليه التعويض.

مما لا شك فيه أن القوانين الوضعية تتفق مع الشريعة الاسلامية في اعتبار التطبيق عملاً مباحاً، كما تتفق مع الشريعة التي تمنع المسؤولية فتستلزم أن يكون الفاعل طبيباً، وأن يأتي الفعل بقصد العلاج وبحسن النية، وأن يعمل طبقاً للأصول الفنية، وأن يأذن له المريض في الفعل. وتعتبر القوانين الوضعية التطبيب حقاً، بينما تعتبره الشريعة واجباً، ولا شك أن نظرية الشريعة أفضل لأنها تلزم الطبيب بأن يضع مواهبه في خدمة الجماعة، كما أنها أكثر انسجاماً مع حياتنا الاجتماعية القائمة على التعاون والتكاتف وتسخير كل القوى لخدمة الجماعة.

وهذه الحصانة المحددة المعالم التي تمتع بها الأطباء العرب في ظل الشريعة الاسلامية كانت خير دافع لممارسة مهنة الطب بكل حرية مما دفع الكثيرين إلى الابداع دون خوف من عقاب أو اضطهاد وأوقف الكثيرين من المتطفلين على هذه المهنة من ممارستها. وأن ما جاء في كتب الحسبة في الأجزاء الخاصة بالأطباء تظهر الصورة التي كان الأطباء يتعاملون فيها مع مرضاهم، وحدود مسؤولية الطبيب، فعلى سبيل المثال جاء في كتاب معالم القربة في طلب الحسبة لابن الاخوة من جملة ما ذكره[٤].

«وينبغي للطبيب إذا دخل على المريض، وسأله عن سبب مرضه وعن ما يجد من الألم، ثم يرتب قانوناً (ويعني وصفة) من الأشربة وغيره من العقاقير ثم يكتب نسخة لأولياء المريض بشهادة من حضر معه عند المريض، وإذا كان من الغد حضر ونظر إلى دائه ونظر إلى قارورته (ويعني أدراره)، وسأل المريض هل تناقص به المرض أم لا . ثم يرتب له ما ينبغي على حسب مقتضى الحال، ويكتب له نسخة ويسلمها لأهله، وفي اليوم

الثالث كذلك، وفي اليوم الرابع كذلك إلى أن يبرأ المريض أو يموت، فإن برىء من مرضه أخذ الطبيب أجرته وكرامته، وإن مات حضر أولياؤه عند الحكيم المشهور وعرضوا عليه النسخ التي كتبها لهم الطبيب، فإن رآها على مقتضى الحكمة، وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب، قال هذا قضاء بفروغ أجله وإن رأى الأمر بخلاف ذلك، قال لهم خذوا دية صاحبكم من الطبيب فإنه هو الذي قتله بسوء صناعة الطب وتفريطه فكانوا يحتاطون على هذه الصورة الشريفة إلى هذا الحد حتى لا يتعاطى الطب من ليس من أهله، ولا يتهاون الطبيب في شيء منه.

ثانياً ــ الرقابة الطبية:

إن الحرية العظيمة التي تمتع بها الأطباء العرب والمسلمون لم تكن فوضى بل كانت محددة المعالم كما ذكرنا، وبغية الالتزام بالاطار العام لممارسة مهنة الطب وضعوا أساس الرقابة الطبية على نحو عصري مما نقوم به اليوم فسرعوا لذلك نظاماً حددوا الأركان التي يجب أن يدور عليها علاج الطبيب وتدبيره وهي «١ ــ حفظ الصحة الموجودة. ٢ ــ رد الصحة المفقودة بحسب الامكان. ٣ ــ إزالة العلة أو تقليلها بحسب الامكان. ٤ ــ تفويت أدنى المصلحتين لتحصيل اعظمهما»[٥].

وأناطوا تطبيق ذلك بالمحتسب في ديوان الحسبة[٦] الذي كان إضافة لواجباته الأخرى في مراقبة مرافق الدولة يقوم بمراقبة الصحة العامة والسلوك المهني للأطباء والصيادلة. ويقوم ايضاً باختبارهم ومنحهم إجازة الممارسة بعد أداء القسم الطبي أمامه، وكان له حق حجب الاجازة ممن يجد منه تقصيراً أو عجزاً، وتحميل المقصر مسؤولية فعلته.

وقد تعرضت كتب الحسبة بإسهاب إلى كل هذه المراقبة ووسائلها وطرقها إلى أن تتوغل في أعماق علم الطب وتفاصيله ومجال مراقبتها إجرائياً ومهنياً وأخلاقياً ولعلها قد ضبطت في هذه العناصر التالية[٧]:

١ ــ التعريف بالطبيب وتحديد مسماه علمياً.

٢ ــ أن يترأس الأطباء حكيم مشهور بحكمته كثير الحرمة بالغ التجربة بعد أدائه يميناً قاطعة لا كفارة فيها.

٣ ــ تحديد طريقة امتحان معلومات كل صنف من أصناف الأطباء والمواد العلمية التي يجب أن تتوفر في كل من يجاز ويؤذن له بالطبابة.

٤ ــ ما يجب أن يفعله الطبيب عند مباشرته لمريضه.

٥ ــ اللجوء إلى تحكيم رئيس الأطباء في طريقة المعالجة عند حدوث ما يدعو لذلك.

٦ ــ تضمين الطبيب ومسألته قضائياً.

٧ ــ على المحتسب أن يأخذ عهد ابقراط على الطبيب المجاز.

فعلى سبيل المثال ــ جاء في الحسبة على الأطباء والكحالين والجراحين والمجبرين قول ابن الأخوة[٨] فيما يخص الأطباء وصناعتهم: «وينبغي للمحتسب أن يأخذ عليهم عهد ابقراط الذي أخذه على سائر الأطباء، ويحلفهم على أن لا يعطوا أحداً دواء مراً ولا يركبوا له سمعاً، ولا يصنعوا له تمائم عند أحد العامة، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل، وليغضوا من أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى، ولا يفشوا الأسرار ولا يهتكوا الأستار، ولا يتعرضوا لما ينكر عليهم فيه».

وكانت مهنة الطب مهنة جليلة لها حرمة يحاسب ممارسوها إن استهانوا بها، ومن ذلك ما رواه ابن أبي أصيبعة (١٢٦٩ ــ ١٣٠٣م) عن أحد الأطباء الأجلاء وهو جمال الدين بن أبي الحوافر رئيس الأطباء في مصر زمن الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي قال «وحدثني بعض أصدقائه قال، كان يوماً راكباً فرأى في بعض النواحي على مسطبة بياع حمص مسلوق وهو قاعد وقدامه كحال يهودي، وهو واقف وبيده المكحلة والميل وهو يكحل ذلك البياع فحين رآه على تلك الحال ساق بغلته نحوه وضربه بالمقرعة على رأسه، وشتمه. وعندما مشى معه قال له إذا كنت أنت سفلة في نفسك، أما للصناعة حرمة، كنت قعدت إلى جانبه وكحلته ولا تبقى واقفاً بين يدي عامي



□ صفحة من رسالة تبحث في الطب، تعود للقرن الرابع عشر ميلادي (المتحف الوطني ـ دمشق)

بياع حمص، فتاب أن يعود لفعل ذلك الفعل وانصرف»[٩].

ثالثاً ــ صفات الطبيب:

من الحقائق الملفتة في مبادىء أخلاقيات وسلوك الطبيب عند العرب والمسلمين إضافة لتحديد مسؤوليته والرقابة عليه وضعهم الصفات الدقيقة الملزمة واللائقة بالطبيب الماهر الحاذق لأنه كما يقول الانطاكي «الطب أشرف العلوم موضوعه البدن الذي هو أشرف الموجودات، إذ العلوم لا تشرف إلا بمسيس الحاجة أو شرف الموضوع فما ظنك باجتماعهما»[١٠] وكما يقول رشيد الدين علي بن خليفة (مولده ٥٧٩هـ) «الطبيب مدبر لبدن الانسان من حيث هو مقارن نفسه لا من حيث هو بدن إنسان بالقول المطلق. وهذا التركيب من أشرف التراكيب ينبغي أن يكون معانيه من أشرف الناس»[١١].

وقبل ذكر التفصيلات التي ذكرها الأطباء العرب حول صفات الطبيب لا بد من تبيان وجهة النظر الاسلامية حول ذلك[١٢] من المعلوم «بأن الاسلام يهدف إلى تكوين الذات الاسلامية منذ الطفولة بحيث يمتزج الخلق الاسلامي مع تكوين الفرد وطباعه والطبيب المسلم الذي يحمل أمانة الاسلام أولاً وأمانة المحافظة على صحة المسلمين ودفع الضرر عنهم ثانياً أولى الناس أن تكون تربيته إسلامية وسلوكه محمدياً والتزامه بخلق الاسلام جزءاً من طبعه يمارسه بلا تكلف في جهره وعلانيته.

هذه القاعدة الأساسية تندرج تحتها كل الفضائل والأخلاقيات التي أوصى بها القرآن والرسول الكريم والتي لا يتسع المجال لذكر نصوصها هنا، ومنها (الصبر، الاحسان في العمل، الكلام الطيب، الابتسام، الحياء، الرحمة، الرفق، التواضع، الصحبة الحسنة) وهناك بعض الجوانب الأخلاقية المعينة تمس عمل الطبيب أكثر من غيره ويلزمه أن يتذكر دائماً حكم الاسلام فيها من ذلك:

١ ــ غض البصر: يقول القرآن الكريم «قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم» (سورة النور آية ٣٠) فلا يجوز أن يكون الترخيص بالاطلاع على عورات الناس عند الضرورة مبرراً للتخلي عن الحياء الواجب على كل مسلم. وعلى الطبيب الا يطلع إلا على ما هو ضروري. وأن يراعي حرمة الميت كما يراعي حرمة الحي.

٢ ــ لا يجوز إخبار المريض بخطورة مرضه ولو كان ميؤوساً من شفائه قال (ص) «إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في أجله فإن ذلك لا يرد شيئاً ويطيب نفسه». (رواه الترمذي وابن ماجة).

٣ ــ وتطبيقاً للقاعدة الشرعية (لا ضرر ولا ضرار) (رواه أبو داود وابن حنبل) فإن الطبيب عليه أن يحفظ المريض المصاب بمرض معد ويدعوه إلى الاعتكاف لمنع الضرر عن المسلمين، فعندما علم الرسول (ص) أن مريضاً بالجذام قادم إليه ليبايعه مع المسلمين أرسل إليه ليرجع قائلاً «إرجع فقد بايعناك». (صحيح مسلم).

٤ ــ الطبيب في مهنته معرض للاطلاع على أسرار المريض فيجب أن يتخلق بخلق الاسلام في هذا المجال «من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة». (صحيح مسلم).

وإذا استشاره المريض فليلتزم بالأمانة في إبداء المشورة وليحافظ على ما استشير فيه فالرسول يقول «المستشار مؤتمن».

٥ ــ فحص الطبيب للمريضة يجب أن تحضره ممرضة أو أحد محارم المريضة تطبيقاً لقوله (ص) «لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم» (صحيح البخاري).

٦ ــ ألا يقدم على ممارسة المهنة إلا إذا كان مطمئناً إلى كفايته لتنفيذها فالرسول (ص) يقول «لا حكيم إلا ذو تجربة» ويحترم التخصص المهني تنفيذاً لقول (ص) «من تطبب ولم يعلم عنه طب فهو ضامن» (سنن أبي داود) ويحافظ على كفاءته العلمية بالتعليم المستمر يقول (ص) «الحكمة ضالة المؤمن أن وجدها ينشدها» (جامع الترمذي).

٧ ــ توجيه عمله لله حتى يثاب عليه، وتجنب ما حرم الله في العلاج لقوله (ص) «ما جعل الله شفاءكم فيما حرم عليكم» وتجنب الممارسات كالاجهاض والوشم قال (ص) «لعن الله

الواشمات والمتوشمات والواشرات والمتوشرات».

٨ ــ أن يتعامل مع زملائه الأطباء على أسس من تعاليم الاسلام فيتجنب الغيبة والتجريح ويحترم الكبير ولا يتعالى على الصغير ويقدم النصح لمن يحتاجه وأن يسعى لتعليم زملائه الأقل خبرة يقول (ص) «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» (صحيح مسلم).

والآن لنتكلم عن صفات الطبيب على ضوء ما جاء عند الأطباء العرب والمسلمين، عندما وضع الدارسون الأقدمون من أطباء ومؤرخين وفقهاء تصوراتهم الواقعية المقبولة لهذا الفرد صاحب المكانة الخاصة المتميزة في المجتمع كان رائدهم الاقتداء بالقيم السمحة والمبادىء السامية التي جاءت بها الشريعة الغراء، وبتجارب المؤرخين السابقين في الدول التي سبقت الدولة الاسلامية.

ولأجل تهيئة من سيقوم بشرف معالجة هذه النفس البشرية التي كرمها الله سبحانه وتعالى بقوله «ولقد كرمنا بني آدم» أجمعوا على وجوب تحلي الطبيب ببعض القواعد الأخلاقية الكريمة والآداب المهنية العالية، إضافة للكفاءة العلمية، ويمكن تفصيل كل ذلك بما يلي:

١ ــ الشهادة الطبية وإجازة ممارسة المهنة: من الالتزامات المطلوبة اليوم من الطبيب أن يكون كفوءاً في مزاولته مهنته من الوجهة العملية والعلمية وأول شارات الكفاءة هذه حصوله على الشهادة الطبية حيث بدونها لا يمكن أن يحصل على إجازة ممارسة المهنة. والمشرفون على أمور الدولة العربية الاسلامية تنبهوا إلى ضرورة ذلك وكان الخليفة المقتدر العباسي أول من سن هذا النظام، والسبب الذي دعاه إلى إيجاد هذا النظام ما رواه ابن أبي أصيبعة على لسان سنان بن ثابت بن قرة رئيس الأطباء في عصره «لما كان عام ٣١٩هـ ــ ٩٣١م، اتصل بالمقتدر أن غلطاً جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل، فأمر الخليفة إبراهيم بن محمد بن بطيحة المحتسب بمنع سائر المتطببين من التصرف إلا من امتحنه سنان بن ثابت بن قرة، وكتب له رقعة بخطه يطلق له التصرف فيه من الصناعة»(١٣).

٢ ــ القَسَم الطبي:

لقد اشترطوا على كل من يريد ممارسة الطب أن يؤدي قَسَماً طبياً يقطع به عهداً على نفسه بتطبيق بنوده.

والقَسَم هذا شمل أغلب بنود وفقرات قسم ابقراط المعروف مع تغيير وتحوير فيه جعله أوفى تقنيناً لآداب المهنة وأكثر ملاءمة للمفاهيم الاسلامية الداعية للطهارة والفضيلة في ممارسة مهنة الطب. ولم يلتزم الجميع بقسم واحد ثابت بل نرى في كتبهم أنماطاً مختلفة لها تدور جميعها في نفس المفهوم الأدبي والأخلاقي مشددة على الالتزام بقدسية المهنة وعدم الخروج عن حدودها المرسومة.

فقسم ابقراط جاء ذكره عند ابن ابي أصيبعة كما يلي «قال ابقراط، إني أقسم بالله رب الحياة والموت، وواهب الصحة وخالق الشفاء وكل علاج. وأقسم بأسقليبيوس وأقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعاً، وأشهدهم جميعاً على أني أفي بهذا اليمين وهذا الشرط وأرى أن المعلم لي هذه الصناعة بمنزلة آبائي، وأواسيه في معاشي وإذا احتاج إلى مال واسيته وواصلته من مالي. وأما الجنس المتناسل منه فأرى أنه مساو لاخوتي، وأعلمهم هذه الصناعة إن احتاجوا إلى تعلمها بغير أجرة ولا شرط وأشرك أولادي وأولاد المعلم لي والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط وحلفوا بالناموس الطبي في الوصايا والعلوم وسائر ما في الصناعة، وأما غير هؤلاء فلا أفعل به ذلك وأقصد في جميع التدبير بقدر طاقتي منفعة المرضى، وأما الأشياء التي تضر بهم وتدني منهم بالجور عليهم فأمنع منها بحسب رأيي، ولا أعطي إذا طلب مني دواء قتالاً، ولا أشير أيضاً بمثل هذه المشورة، وكذلك أيضاً لا أرى أن أدني من النسوة فرزجة تسقط الجنين وأحفظ نفسي في تدبيري وصناعتي على الزكاة والطهارة، ولا أشق أيضاً عمن في مثانته حجارة، ولكن أترك ذلك إلى من كانت حرفته هذا العمل، وكل المنازل التي ادخلها إنما ادخل إليها لمنفعة المرضى، وأنا بحال خارجة عن كل جور وظلم وفساد إرادي مقصود إليه في سائر

الأشياء، وفي الجماع للنساء والرجال الأحرار منهم والعبيد، وأما الأشياء التي أعانيها في أوقات علاج المرضى، أو أسمعها أو في غير أوقات علاجهم في تصرف الناس من الأشياء التي لا ينطق بها خارجاً فأمسك عنها، وأرى أن أمثالها لا ينطق به، فمن أكمل هذه اليمين ولم يفسد منها شيئاً كان له أن يكمل تدبيره وصناعته على أفضل الأحوال وأجملها وأن يحمده جميع الناس فيما يأتي من الزمان دائماً، ومن تجاوز ذلك كان بضده»[١٤].

وسرد مهذب الدين علي بن أحمد بن هبل البغدادي (المتوفي سنة ٦١٠هـ) قواعد الحكمة التي يستوجب أن يتحلى بها الطبيب والتي يقول بأنه عاهد الله تعالى على ذلك. نوجز فيما يلي بعضاً منها:

١ ــ أن يكون تعلمه إياها طالباً بها وجه الله تعالى وحسن ثوابه.

٢ ــ وأن يتوفر الطبيب على من يستطع أن يفي بواجب تدبيره منهم وأن يمشي إلى ضعفائهم ولا يتكبر على فقرائهم ولا يستنكف عن مداواة من أنهكته الأغلال وكثرت به الجراحات والمواد استقذاراً.

٣ ــ أن لا يلتمسوا ــ الأطباء ــ من المرضى إلا أن يعطوا من غير طلب وأن يستعينوا بما يصل من أغنيائهم على مداواة الضعفاء الذين تتعذر عليهم الأدوية.

٤ ــ وأن يلقوا المرضى بالهشاشة والبشاشة والايناس.

٥ ــ وأن لا يعزب في ذكر الأدوية عن المشهور. وأن يكون من عمل هذه الصناعة متقرباً بنصحه إلى الله تعالى لا إلى الخلق.

٦ ــ أن لا يصفوا الأدوية لاسقاط الأجنة ولا ما يمنع الحبل لقطع النسل إلا أن يدعو إلى ذلك أمر عظيم خشي منه هلاك المرأة في الحمل والوضع.

٧ ــ وأن لا يعطوا السموم لغرض وسخط ولا يتخذوها ولا يعلموها ولا يتعلموها إلا في معرض مداواة من لعله يشفى منه.

٨ ــ يأخذون عليهم العهود في حفظ الأسرار فإنهم يطلعون على ما لا يطلع عليه الآباء والأولاد من أحوال الناس.

٩ ــ وأن يلزموا العفة وغض الطرف وإذا دخلوا بيوت الناس لا تكون همتهم مصروفة إلا إلى ما يعود بمصالح المرضى[١٥].

٣ ــ اتقان العمل ومتابعة التحصيل العلمي:

أعطى الأطباء العرب والمسلمون مسألة اتقان العمل والمحافظة على مستوى جيد في مزاولة مهنة الطب أهمية قصوى لأن المسألة تتعلق بحياة الانسان وموته. يقول الكندي «ليتق الله تعالى المطبب، ولا يخاطر فليس عن الأنفس عروض، فكما يجب أن يقال أنه كان سبب عافية المريض وبرئه، وكذلك أن يحذر أن يقال أنه كان سبب علته وموته».

ونصائح الرازي (٢٥١ ــ ٣١٣هـ) لطلاب الطب والأطباء، شملت إلى جانب قراءة الكتب والمطالعة والتتبع تأكيدات على ضرورة تحكيم العقل والاعتماد على التجربة الشخصية لكي تؤتي المعالجة ثمارها فيقول:

«الاستكثار من قراءة كتب الحكماء، والوقوف على أسرارهم نافع لكل حكيم عظيم الخطر».

«متى كان اقتصار الطبيب على التجارب، دون القياس، وقراءة الكتب خذل».

«ما اجتمع الأطباء عليه، وشهد عليه القياس، وعضدته التجربة فليكن أمامك».

«الحقيقة في الطب غاية لا تدرك والعلاج بما تنصه الكتب دون إعمال الماهر الحكيم برأيه خطر»[١٦].

ويؤكد علي بن العباس (من أبناء القرن العاشر الميلادي) نفس المعني عندما يتكلم عن صفات الطبيب الجيد حيث يقول: «ولا ينبغي أن يكون أكثر تشاغله إلا بقراءة الكتب والحرص على النظر فيها أعني كتب الطب، ولا يمل من ذلك ولا يضجر منه في كل يوم ويلزم نفسه حفظ ما قراه...».

«ومما ينبغي لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازماً للبيمارستان ومواضع المرضى كثير المداولة لأمورهم وأحوالهم مع الأستاذين من الحذاق من الأطباء»[٧].

وشدد الرازي على مسألة الخبرة الشخصية في معالجة المرضى محذراً المريض من الأطباء

المقلدين والأحداث منبهاً الأطباء على عدم التسرع ومساءلة المريض بشكل تفصيلي عن المرض يقول: «الأطباء الأميون والمقلدون، والأحداث الذين لا تجربة لهم، ومن قلت عنايته وكثرت شهواته قتالون»[18].

ويقول في كتاب الفصول «ومن أبلغ الأشياء فيما يحتاج إليه في علاج الأمراض بعد المعرفة الكاملة بالصناعة، حسن مساءلة العليل وأبلغ من ذلك لزوم الطبيب العليل، وملاحظة أحواله. ومن ذلك أنه ليس كل عليل يحسن أن يعبر عن نفسه..»[19] ومن وصايا رشيدالدين علي بن خليفة «الأمراض لها أعمار، والعلاج يحتاج إلى مساعدة الأقدار، وأكثر صناعة الطب حدس وتخمين وقلما فيه اليقين. وجزآها القياس والتجربة لا السفسطة وحب الغلبة ونتيجتها حفظ الصحة إذا كانت موجودة وردها إذا كانت مفقودة وفيها يتبين سلامة الفطر ودقة الفكر، ويتميز الفاعل عن الجاهل، والمجد في الطب عن المتكاسل، والعمال بمقتضى القياس والتجربة، عن المحتال على اقتناء المال وعلو المرتبة»[20].

ومن أقوال عبدالله الاشبيلي الحريري (٥٩١ ــ ٦٤٦هـ) في صفات الكحال «وأن يكون قد أنفق زمانه في تحصيل صناعته وخدم المشائخ وعمل بين أيديهم فإن هذه الصناعة تحتاج إلى مباشرة وتطبيق على قانون طبي».

«وينبغي أن تطاوعه يده على الحذق في الأعمال الدقيقة ولقط السبل، وكشط الظفرة، وقدح الماء... إلى غير ذلك مما يقع فيه الخطأ بسبب عدم الحذق والخوف، لذلك ينبغي أن يكون ثبت الجنان مشفقاً، ولا تكون شفقته لضعف قلبه»[21] ومن الأمثلة على ضرورة بذل الجهد في الدرس والتحصيل وتحمل المشقة دونما خجل أو غرور في سبيل الحصول على الكفاءة العلمية قول عبداللطيف البغدادي (٥٥٧ ــ ٦٣٩هـ) «ومن لم يعرق جبينه إلى ابواب العلماء لم يعرق في الفضيلة، ومن لم يخجلوه لم يبجله الناس... ومن لم يحتمل ألم التعليم لم يذق لذة العلم، ومن لم يكدح لم يفلح».

«وينبغي أن تكثر إيهامك لنفسك ولا تحسن الظن بها، وتعرض خواطرك على العلماء وعلى تصانيفهم وتتثبت ولا تعجب فمع العجب العثار ومع الاستبدال الزلل»[22].

ومن الوصايا القيمة لمهذب الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن هبل البغدادي (المتوفى سنة ٦١٠هـ) قوله في مقدمة كتابه المختارات في الطب:

«ومما يمتحن به الطبيب حتى يوثق بعلمه وعمله أن ينظر فيما إذا أنفق زمانه الماضي إن كان في الاشتغال بهذه الصناعة وملازمة خدمة الكبراء من أهلها، وطول ملازمتهم، والقراءة عليهم، والعلاج بين أيديهم والتدرب في الدخول على المرضى في بيوتهم، وملازمة خدمة البيمارستان الذي يجتمع فيه حذاق الأطباء، وكثرة نظره إلى معالجة الأستاذ، فيشار إليه ويقول عليه ــ وكذلك هل يثني عليه الناس لحسن سيرته وديانته، وإن همته إذا خلا في بيته مطالعة الكتب ودراسة هذه الصناعة، وإنه غير مشتغل باللهو واللعب والشرب التي تستغرق الزمان بالتضييع، والخاطر بالتوزيع، فإن كان ينسب إلى شيء من ذلك فلا ينبغي أن يوثق إليه ولا يعول في هذه الصناعة عليه».

وفي وصايا أبي عبدالله محمد بن الحاج العبدري (المتوفى سنة ٧٣٧هـ ــ ١٣٣٦م) في كتابه المدخل نجد لوناً من ألوان آداب الطبابة التي تحتوي على حيوية وحركة نشيطة تكاد تربط حاضرنا بماضينا وتلامس أوضاعنا وكأنها وضعت ليومنا وكأن ما يتحدث عنه قد شاهده في حياتنا المعاصرة يقول:

«فيتعين على الطبيب أن يسمع كلام المريض إلى آخره فلعل آخره ينقض أوله أو بعضه ولربما يغلط المريض في ذكر حاله أو يعجز عن التعبير عنه فإذا تأنى الطبيب وأعاد عليه السؤال برفق أمن الغلط فإن الغلط في هذا خطر لأن أصل الطب والمقصود منه معرفة المرض فإذا عرف سلمت مداواته غالباً. ويتعين على الطبيب إن كان غير عارف بدوائه أن لا يكتب شيئاً من الأدوية لما في ذلك من إضاعة المال.

وينبغي للطبيب أن لا يقتصر على سؤال المريض وحده بل يسأل من خدم المريض إذ ربما يعرف عن المريض أكثر مما يعرفه هو. وينبغي للطبيب أن يعرف حال المريض في حال صحته في

مزاجه ومرباه وإقليمه وما اعتاده من الأطعمة والأدوية سواء بالسؤال من المريض أو ممن يلوذ بـه وإذا تعذر عليـه ذلك فليسأل عن والدي المريض ويطببه بمقتضى حالهما»[٢٣].

وأخيراً وليس آخراً نذكر هذا النص الحي النابض بالحياة والقوة والذي يبين المرونة التي تمتع بها الأطباء العرب والمسلمون وعدم الحياء من الاعتراف بعدم معرفتهم إن كانوا يجهلون أمراً «قال أبو الثناء الحلبـي شكوت إلى ابن النفيس عقالاً في يدي فقال أنا والله بـي عقال فقلت له فبأي شيء أداويه؟ فقال والله لا أدري بأي شيء أداويه»[٢٤].

٤ ــ حسن الخلق والهيئة:

لقد تنبه فلاسفـة الطب منذ زمن ابقراط على أن العلاقة بين الطبيب والمريض علاقة إنسانية نفسية إلى جانب كونها مسألة علمية وعملية، لذلك نجـدهم يؤكـدون على ضـرورة اتصاف الطبيب بحسن الخلق والشكل والهيئة، لما لذلك كله من موقع حسن في نفس المريض وأثر طيب في العلاج والشفاء.

والأطباء العرب والمسلمون بلغوا في ذلك شوطاً بعيداً، نذكر فيما يلي بعضاً مما قالوه:

يقول علي بن العباس «ينبغي لمن أراد أن يكون طبيباً فاضلاً، أن يتخلق بالأخلاق الفاضلة وأن لا يتهاون فيها، فإنه إن فعل ذلك كانت مداواته للمرض مداواة صواب»[٢٥].

من بين الشروط التي ذكرها ابن رضوان في الطبيب «أن يكون تام الخلقة صحيح الأعضاء، حسن الذكاء، جيد الرواية عاقلاً ذكوراً، خير الطبع».

«أن يكون حسن الملبس، طيب الرائحة، نظيف اليدين والثوب».

«أن يكون سليم القلب عفيف النظر، صادق اللهجة، لا يخطر بباله من أمور النساء والأحوال التي شاهدها في منازل الأعلاء فضلاً عن أن يتعرض إلى شيء منها»[٢٦].

وقال الحكيم أبو الخـير في كتابـه امتحان الأطباء «أنه يجب أن يكون الطبيب حسن القد، صحيح الأعضاء متناسبة في مقاديرها حسنة في شكلها قوية في وضعها، معتدل المزاج... يخالط نظره دائماً سرور وفرح وفيه بشاشة وطلاقة» «فأما في نفسه فأن يكون ذكياً ذكـوراً، جيد التصوير قوي الحدس والتخمين صبوراً علـى التعب والنصب، في درك الحق من الأمور، كتوماً متحملاً ما يسمعه من المرضى»[٢٧].

ومن ذلك قول الانطاكي (من أبنـاء القرن العاشر الميلادي) «ينبغي لهذه الصناعة وكشف دقائقها.. وينبغي تنزيهه عن الأراذل والضن به على ساقطي الهمة لئـلا تدركهم الرذالة عنـد الدعوة إلى واقع في التلف فيمتنعون أو فقير عاجز فيكلفونه ما ليس في قدرته».

«ويجب اختيار الطبيب حسن الهيئة، كامل الخلقة، صحيح البـدن، نظيف الثيـاب، طيب الرائحة، يسر من نظر إليه وتقبل النفس على تناول الدواء من بين يديه، وأن يتقن بقلبه العلوم التي تتوقف الاصابة في العلاج عليها، وأن يكون متيناً في دينه متمسكاً بشريعته دائراً معها حيث دارت، واقفاً، عند حـدود الله تعالى ورسـوله، نسبته إلى الناس بالسواء، خلي القلب من الهوى لا يقبل الارتشاء ولا يفعل حيث يشاء ليؤمن معه الخطأ وتستريح إليه النفوس من العنا»[٢٨].

ويتكلم الاشبيلي عن الصفات التي يجب أن يتحلى بها جراح العين وهي لا تختلف عما يؤكده أطباء اليوم، يقول «وأن يكون ذكي الحواس، فإن يسيراً من ضياء الحس خـير كثير من درس الحكمة.

ولا يؤلم مريضاً بما فيه صلاحه، بل ينبغي له أن يجتهد في حفظ الصحة وردها بالطف طريق يمكنه، ويستحب أن يطيب معانيه (أي عزيمته) وأن تكون عينه سليمة من الأمراض.

وأن يكون... لا يستنكف عن مداواة من كثرت في عينه الأمراض والأوساخ... والقرح والدموع استقذاراً منه وأنفة.

وأن ينوي الخير للناس كافة، ولا يقصد أذى أحـد من المخلوقـين ويـرفق بـالضـعيفـين والمساكين»[٢٩].

وأوصوا الطبيب والعالم بعدم اقتناص المال، لأن المال هو يجري نحوه متى ما أدى واجبه على الوجه الأكمل.

يقول الرازي في ذلك (ينبغي أن تكون حالة الطبيب معتدلة لا مقبلاً على الدنيا كلياً ولا معرضاً

عن الآخرة كلية فيكون بين الرغبة والرهبة»[٣٠].

ويقول عبداللطيف البغدادي «إني لا أقول أن الدنيا تعرض عن طالب العلم، بل هو الذي يعرض عنها... «للعلم عبقاً وعرفاً ينادي عن أصحابه كتاجر المسك لا يخفى مكانه ولا تجهل بضاعته»[٣١].

ويقول العبدي «أن يكون الطبيب خالص النية في عمله لله تعالى حتى يكون عمله من أعظم العبادات لا يريد عليه عوضاً من الدنيا، وأن قصده امتثال السنة المطهرة في التطبيب وكشف الكرب عن إخوانه المسلمين ومشاركتهم في مصائبهم والنوازل التي تنزل بهم كما ينوي الشفقة عليهم»[٣٢].

وجاء في وصية رشيدالدين علي بن خليفة بعض النصائح التي تبين العلاقة بين التلميذ والأستاذ، قال «إحترم المشائخ ولو سكتوا عن جواب سؤالك فلعل ذلك لبعد العهد وكلال القوى، أو لأنك سألت عما لا يعنيك، أو معرفتهم بعجز فهمك عن الجواب».

«إذا تطببت فاتق الله واجتهد أن تعمل بحسب ما تعلمه علماً يقيناً، فإن لم تجد فاجتهد أن تقرب منه».

«إذا وصلت إلى رتبة المعلمين فلا تمنع مستحقاً وهو العاقل الذكي الخير الحكيم النفس، وامنع سواه»[٣٣].

٥ ـ السر الطبي والصراحة الطبية:

نعني بالسر الطبي هنا، كتمان ما أطلع عليه من أحوال مريضه والتي لا يجوز إفشاؤها. وهذا ما كان يطالب به الطبيب منذ الوهلة الأولى من حياته العلمية، عندما يؤدي القسم الطبي ويعطي العهد الذي جاء في أحد بنوده كما ذكرنا «سوف أحتفظ بكل ما أراه أو أسمعه من أسرار الناس التي ينبغي أن لا أكشف ما لا يجب ذكره مما تصل معرفتي إليه في حدود مهنتي أو خارجها أو في مخالطتي اليومية مع الناس بل أكتمه سراً».

ويقول الرازي في ذلك «ينبغي للطبيب أن يكون رفيقاً بالناس حافظاً لغيبهم كتوماً لأسرارهم... فإنه ربما يكون ببعض الناس من المرض ما يكتمه عن أخص الناس به مثل أبيه وأمه وولده، وإنما يكتمونه خواصهم ويفشونه إلى الطبيب ضرورة...». وبقي الأطباء العرب والمسلمون ملتزمين بهذا الشرط مع مرضاهم في حياتهم وحتى بعد مماتهم، وكمثال لعدم إفشاء أسرار المرضى حتى بعد وفاتهم. قول البلدي (كان حياً ٣٦٨هـ) عند التحدث عن مرضى الصرع حيث قال «رأينا من عرض لهم الصرع ممن تجاوز الأربعين والخمسين فمنهم من برىء براءاً كاملاً ومنهم من كان لا يعرض له ذلك إلا في زمان طويل وعلى غير نظام في حفظ الأدوار ممن لو ذكرتهم لعرفوا لكن أكتفي عن ذكر أسمائهم رحمهم الله تعالى»[٣٤].

وعن الصراحة الطبية نقول بأن أخلاقية المهنة الطبية في الحضارة الاسلامية تدعو إلى عدم التصريح، كما تحبب إظهار التفاؤل أمام المريض فيما يسره. روى ابن ماجة قول الرسول (ص)، إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل فإن ذلك لا يغير شيئاً وهو تطمين لنفس المريض. كما أن في الأقوال المأثورة عن النبي الكريم، لكل داء دواء، ما أنزل الله داء إلا أنزل له الشفاء... مما يقوي نفس المريض ويحثه على طلب الدواء والتفتيش عنه فيعلق قلبه بروح الرجاء ويتفاءل بالخير وقد يجده، والفأل كلمات يسمعها العليل فتقوى بها عزائمه، وكان من بين الكلمات التي جاءت في قسم الأطباء العرب دعوتهم إلى اجتناب ما يغم المريض وقعه من الكلام»[٣٥].

وفي ذلك أيضاً يقول مهذب الدين البغدادي «ولا يؤيسوا المرضى في أمراضهم المعروفة الخطر من العافية فيتعجلوا منهم سقوط القوة وضعف الرجاء الذي وراءه من جانب الله تعالى علم ما لم يعلموه فليس في طاقة البشر الاطلاع على جميع أسرار الخليقة ومعرفة نظام العالم فقد طالما خرج الطبيب من عند المريض وهو ميؤوس منه فعاد إليه وقد فتح الله له أبواباً من الصحة وخرج من عند آخر ورجاؤه فيه أوثق من وثوقه بقوة بدنه واستقامة صحته، ثم قضي عليه»[٣٦].

وهناك من أوصى بوجوب التصريح والتنبيه في الحالات الميؤوس منها ولكن بأسلوب غير مباشر وطريقة لبقة فمن ذلك قول السبكي «من حقه ـ ويقصد الطبيب ـ بذل النصح، والرفق

بالمريض وإذا رأى علامات الموت لم يكره لمن ينبه الوصية بلطف من القول».

رابعاً ـ حقوق الطبيب:

تمتع الأطباء في الدولة العربية الاسلامية بحقوقهم كاملة، فنالوا احترام الجميع من خلفاء ووزراء وعامة الناس، وبلغوا حتى غير المسلمين منهم مراتب عالية ومراكز حساسة في الدولة. كل ذلك لأنهم قدروهم حق قدرهم، يقول ابن ابي أصيبعة عن جده حينما أراد تعليم والده وعمه مهنة الطب «وقصد إلى تعليمهما صناعة الطب لمعرفته بشرفها، وكثرة احتياج الناس إليها، وأن صاحبها الملتزم لما يجب من حقوقها يكون مبجلاً حظياً في الدنيا وله الدرجة العلياء في الآخرة»(٣٧).

ويمكن تقسيم حقوق الأطباء إلى:

١ ـ تكريم الأطباء:

لقد أوصى الرسول الكريم (ص) في بداية الدولة العربية الاسلامية بالتطبب عند الحارث بن كلدة. وكرم خلفاء بني أمية عدداً من الأطباء أمثال ابن أثال النصراني طبيب معاوية وأبي بكر الدمشقي وابنه الحكم وابن ماسرجويه السرياني أيام عمر بن عبدالعزيز وتبعهم في ذلك خلفاء بني العباس حيث أعطوا مكانة خاصة للأطباء، على سبيل المثال عائلة بختيشوع من الأطباء النصارى الذين فازوا بكرم العديد منهم. ومن بين من اشتهر وكرم من غير المسلمين أيضاً في عهدهم حنين بن إسحاق (المولود عام ١٩٤هـ) الذي كان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب العربية وابنه، ويوحنا بن ماسويه (المولود عام ١٦١هـ) وغيرهم، وبلغ البعض منهم درجة من التكريم بحيث كان يوقع عن الخليفة، فمثلاً أيام المعتضد بالله «كانت التوقيعات تخرج بخط داود بن ديلم لمحله منه ومكانته(٣٨).

هذا بالنسبة لغير المسلمين من الأطباء، اما المسلمون منهم فقد بلغ بعضهم من التكريم ما جعل الخلفاء ينيطون بهم أعلى مراتب وظائف الدولة إلى جانب الطب، فولي بعضهم الوزارة مثل الرئيس ابن سينا (ولد عام ٣٧١هـ)، والحفيد ابي بكر بن زهر (١٠٩٤ ـ ١١٦٢م)، وفخرالدين الساعاتي والصاحب نجم‌الدين بن اللبدي (ولد عام ٦٠٧هـ)، ومهذب‌الدين يوسف بن أبي سعيد والصاحب أمين الدولة من أبناء القرن السابع الهجري.

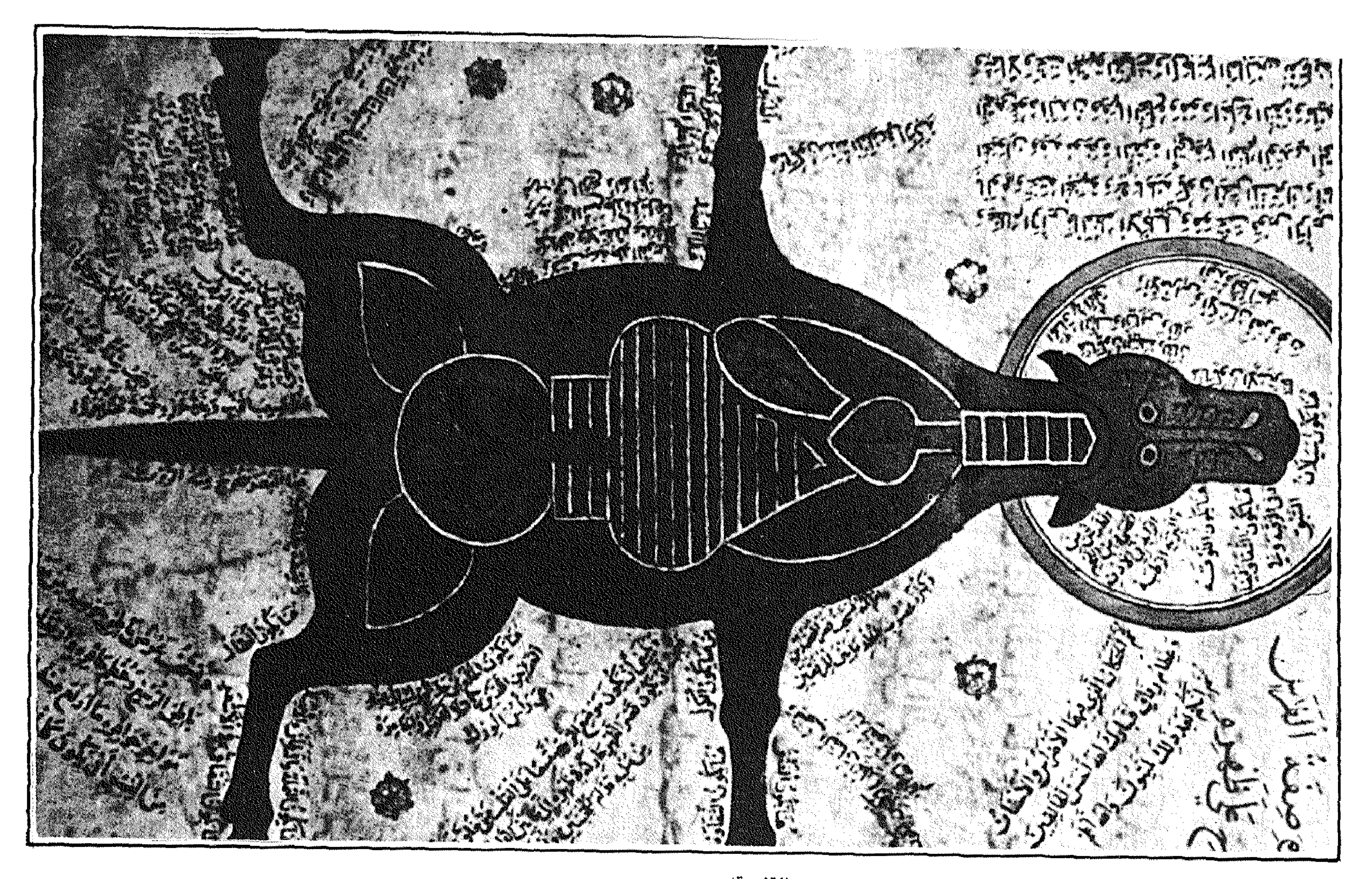
ومنهم من تولى القضاء مثل القاضي الفيلسوف ابن رشد الذي تولى القضاء في اشبيلية وقرطبة، والقاضي ابن المرخم بن سعد الذي أصبح قاضي القضاة ببغداد أيام المقتفي، وافضل‌الدين ابي عبدالله الذي صار قاضي القضاة بمصر(٣٩).

ومن الأمثلة على تقدير الأطباء وإجلالهم، أن الخليفة المعتضد بالله «لما تقلد الخلافة أقطع ثابتاً بن قرة ضياعاً جليلة وكان يجلس بين يديه كثيراً بحضرة الخاص والعام، ويكون بدر الأمير قائماً والوزير، وهو جالس بين يدي الخليفة» ويروى أيضاً «أن ثابتاً كان يمشي مع المعتضد في الفردوس وهو بستان... وكان المعتضد قد اتكأ على يد ثابت وهما يمشيان ثم نتر المعتضد يده من يد ثابت بشدة، ففزع ثابت... وقال له يا أبا الحسن سهوت، ووضعت يدي على يدك واستندت عليها، وليس هكذا يجب أن يكون. فإن العلماء يَعلُون ولا يُعلَوْن»(٤٠).

وجاء في كتاب صبح الأعشى «وكانت أعظم الوظائف الصناعية في الدولة الفاطمية بمصر وظائف الأطباء، فكانت ألقاب أرباب الصناعات الرئيسية، كرئاسة الطب من الدرجة الأولى درجة المجلس أو إمرة المجلس وموضوعها التحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم، ولا يكون إلا واحداً وفي المرتبة الأولى مرتبة المجلس العالي:

وكان من الوظائف الصناعية العظيمة وظيفة الطبيب الخاص، وهو الطبيب الخاص بالخليفة يجلس على باب دار الخلافة كل يوم ويجلس على الدكك التي بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر، دون أربعة أطباء أو ثلاثة فيخرج.. الخدم... فيستدعون منهم من يجدونه للدخول على المرضى بالقصر لجهات الأقارب والخواص... ولكل منهم الجاري والراتب على قدره»(٤١).

ومن الأمثلة التي تبين اعتزاز الأطباء بشخصيتهم وكرامتهم وترفعهم عن الأمراء، ما رواه ابن جلجل في طبقاته عن ابن الجزار



□ أحد أشكال مخطوطة تبحث في الطب البيطري (المتحف العربي، القاهرة).



□ إحدى مجموعات الاعشاب الطبية، تعود للقرن العاشر ميلادي (المتحف العربـي، القاهرة).

القيـرواني (٢٨٥ ــ ٣٧٧هـ) «ولم يـركب إلى احد من رجال افريقية ولا إلى سلطانها، إلا إلى ابــي طالب عم (الخليفة المعز لدين الله)، كان له صديقاً قديماً، وقال «حدثني من اثق به قال كنت عنده غداة في دهليزه وقد غص بالناس، إذ أقبل ابن أخي النعمان القاضي، وكان حدثـاً جليلاً بافريقية فتخلف القاضي إذا منعـه مانـع عن الحكم، فلم يجد في الدهليز موضعاً يجلس فيه، إلا مجلس أبــي جعفر، فخرج أبو جعفر، فقام له ابن أخي القاضي على قدم، فما أقعده ولا أنزله» قال الذي حدثني فكنت عنـده صحوة نهـار، إذ أقبل رسول النعمان القاضي، بكتاب يشكوه فيه على ما تولى من علاج ابنته، ومعه منديل بكسوة وثلاثمائة مثقال، فقرأ الكتـاب وجاوب شاكراً، ولم يقبض المال ولا الكسوة. قال الذي حدثني فقلت له أبا جعفر رزق ساقه الله إليك، ترده؟ قال لي والله لا كان لأحد من دولة معد قبلي نعمة»(٤٢).

أجور الأطباء

تقاضى الأطباء أجوراً عن معالجة المرضى منذ القـديم ففي حضـارة وادي الرافـدين ومصر القديمة كـان الطبيب يستوفي أجـوراً تناسب مكـانته العلميـة والعمليـة، ومكـانـة المـريض الاجتماعية. فعلى سبيل المثال نجد نصوصاً في (شريعة حمورابــي) تحدد أجور الطبيب الجراح حيث كان يتقاضى خمسة عشر شقلاً فضة من المريض من طبقة الأحرار، وعشرة شقلات من الطبقة المتوسطة وشقلين من سيد العبد عند معالجة العبيد.

وكان ابقراط في الحضارة الاغريقية يأخـذ أجوراً عينية من الأغنياء والمرفهين كالأسـاور والحلي الذهبية والفضية، او الهدايا الثمينة في الوقت الذي يقوم بعلاج الفقراء بدون أجر.

وفي الحضـارة العربية الاسلامية كان الأطباء يتقاضون أجوراً عاليـة من الخلفاء والأمـراء والقادة والأغنياء بينما كانوا يعالجون الفقراء بأجور بسيطة أو بالمجان، وكتب التاريخ تروي لنا مبلغ ما وصله بعض الأطباء من حسن ورغد العيش وكمثال لدرجة مباراة الخليفة في اللباس والزي والطيب والفرش والضيافات والتفسح في النفقات. من ذلك:

إن أبا بكر يوحنا بن ماسويـه اكتسب من صنـاعة الطب الف درهم وجمـع جبريـل بن بختيشوع مالاً كثيراً، فقد بلغ إيراده السنوي ملخصـاً عمـا رواه ابن ابـي اصيبـعـة (٤٩٠٠٠٠٠) درهم ومجموع ما حصل عليه خلا خدمته لهارون الرشيد مدة ٢٣ سنة والبرامكة مدة ١٣ سنة (٨٨٧٠٠٠٠٠) درهم(٤٣).

وإن رسوم ابن التلميذ في بغداد سنوياً كانت تزيد على عشرين ألف دينار وبلغت تركة ابن الجزار بعد وفاته أربعة وعشرين الف دينار. وكان الأطباء يتلقون هبات من الخلفاء والأمراء ووجهاء الدولة إضافة لأجورهم المقـررة فمثلاً عندما أراد الطبيب أبو الفرج النصراني تزويج بناته، أكرمه صلاح الدين بثلاثـين ألف درهم لتجهيزهن، ولما بلغ الطبيب ابن مطران تأثر من ذلك، وعندما سمع صلاح الدين بتأثره أمر له هو الآخر بمثل ذلك المبلغ سواء بسواء(٤٤).

وإن ما وصل مهذب الدين بن الدخوار (المتوفي سنة ٦٢٨هـ) من معالجة الملك العادل بالشرق من معالجته من مرض صعب سبعة آلاف دينار مصرية وما وصله من معالجة ابنه الملك الكامل صاحب الديار المصرية كان من الذهب اثني عشر الف دينـار واربع عشـرة بغلة بأطواق ذهب،

والخلع الكثيرة من الثياب الأطلس وغيرها(٤٥).

وإن الشيخ السديد رئيس الأطباء في مصر حصل له في يوم واحد من الخلفاء في بعض معالجاته لأحدهم ثلاثون الف دينار وانه طهر ولدي الحافظ لدين الله حصل له في ذلك الوقت من المال نحو خمسين ألف دينار وأكثر من ذلك، سوى ما كان في المجلس من أواني الذهب والفضة فإنها وهبت جميعها له»(٤٦).

وفي العمل الحر في ممارسة مهنة الطب لم يكن هناك تحديد لأجرة فحص المريض ومعالجته بالمعنى الذي نفهمه اليوم، بل كان الطبيب يتقاضى الأجور حسب حالة المريض المالية كما ذكرنا، ويذكر لنا ابن جلجل عن الطبيب إسحق بن عمران انه لفترة من حياته كان يفحص المرضى بأجر محدد فيقول عنه إنه عندما امر زيادة الله بقطع رزقه أي راتبه «فلما قطع عنه الرزق خرج إلى موضع فسيح من رحاب القيروان، ووضع هناك كرسياً ودواة وقراطيس فكان يكتب الصفات كل يوم بدينار»(٤٧).

وكان أغلب الأطباء العرب والمسلمون ـــ من امثال الرازي وابن سينا وابن الجزار وغيرهم ـــ يقومون بمعالجة الفقراء مجاناً او بأجر يسير في الوقت الذي لا يتساهلون فيه مع المتمكنين والأغنياء، ومن الأمثلة على ذلك ما رواه ابن جلجل عن رجل من أهل خراسان ادعى الفقر فرضي الطبيب ابن وصيف أن يعالجه بأجر قليل، فلما ثبت كذب ادعائه للفقر حيث وقعت يده على عضده فوجد نطاقاً صغيراً فيه دنانير، رفض معالجته(٤٨).

وكان البعض منهم لا يتقاضى اية أجرة من الجميع، من أولئك الذين كانوا يطببون الناس من دون أجرة، أبو بكر بن القاضي أبي الحسن الزهري قاضي اشبيلية، وكمال الدين الحمصي الذي كان يكره التكسب بصناعة التردد إلى البيمارستان الكبير الذي أنشأه الملك العادل نورالدين زنكي ويعالج المرضى فيه احتساباً(٤٩).

ومن الأمثلة التي تشير إلى ترفع الأطباء العرب والمسلمين عن الطمع ما رواه البيهقي عن الحكيم أبي الفتح عبدالرحمن الخازن «وكان نقي الجيب عن الأطماع الخسيسة، بعث السلطان الأعظم سنجر إليه ألف دينار على يد الأمير الامام شافع الطبيب فرده وقال لا أحتاج إليها، وبقي لي عشرة دنانير، ويكفيني كل سنة ثلاثة دنانير وليس معي في تلك الدار الاسنور» «وبعثت إليه زوجة الأمير لامي كافور بك الكبير الف دينار فردها أيضاً»(٥٠).

وكان بعضهم الآخر يستنكف أن يأخذ الأجور بل يقوم بذلك خادمه، من أولئك ابن الجزار القيرواني الذي كان ثرياً موسراً يكتظ المتداوون في محل عيادته، وبعد فحصهم يحيلهم لغلامه رشيق الذي يوزع الأدوية والأشربة ويتقاضى الأجور لأن سيده ينزه من أن يأخذ من أحد ثمناً علماً بأن ذلك كان شأنه مع وجوه الدولة وعامة الناس(٥١).

أما أجور الأطباء في البيمارستانات، فكانت تشبه إلى حد ما طريقة عمل أطباء اليوم حيث خصصوا للأطباء رواتب شهرية تتفاوت حسب شهرة الطبيب وعلمه وكفاءته إضافة لأجور اخرى لقاء قيامه بأعمال إضافية كالتدريس او الترجمة والأمثلة التالية تبين المفهوم العام لمسألة الرواتب في البيمارستانات.

«وكان لبعضهم كجبرائيل الكحال ألف درهم في كل سنة»(٥٢).

«وكان لماسويه جامكية من الفضل في كل شهر ستمائة درهم وعلوف دابته، ثم تزيد إلى ألفي درهم ومعونة في السنة عشرة آلاف درهم وعلوفة ونزل. وممن كان يأخذ رزقين جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع، فكان يأخذ برسم الخاص ثلاثمائة درهم شجاعية وبرسم البيمارستان ثلاثمائة درهم شجاعية سوى الجراية. وكان لعزالدين بن السويدي جامكية في أربع جبهات، في البيمارستان النوري وفي بيمارستان باب البريد في دمشق وللتردد على قلعة دمشق وتدريسه في مدرسة الدخوارية(٥٣).

«وكان من أطباء الأمير سيف الدولة بن حمدان من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين، ومن يأخذ ثلاثة أرزاق لتعاطيه ثلاثة علوم وكان في جملتهم عيسى النفيس الطبيب فكان يأخذ ثلاثة أرزاق رزقاً للنقل من السرياني إلى العربي، ورزقين آخرين بسبب علمين آخرين»(٥٤) «وكان الحكيم موفق الدين عبدالعزيز يأخذ في كل شهر مائة دينار ورواتب أخرى من الملك العادل لقاء

عمله في البيمارستان ومعالجة الملك، ولما توفي عينَ بدلهُ مهذب الدين الدخوار بنفس الرواتب المقررة»(٥٥).

وعن أبيه يقول ابن أبي أصيبعة «فأقام بدمشق وصار يتردد إلى القلعة لخدمة الدور السلطانية لكل من ملك دمشق من أولاد العادل وغيرهم، وكلهم يرون له ويعتمدون عليه في المداواة وله الجامكية والجراية والأنعام الكثيرة ويتردد أيضاً إلى بيمارستان نورالدين الكبير وله الجامكية والجراية»(٥٦).

ويقول أيضاً «مهذب الدين بن الحاجب عندما توجه إلى دمشق أكرمه صلاح الدين والفاضل وجماعة الرؤساء وأجري له ثلاثون ديناراً»(٥٧).

وكمثال لرعاية الدولة للأطباء وصرف ما يشبه الراتب التقاعدي لهم، ما حصل لأبي البيان بن المدور فيما رواه ابن أبي أصيبعة «وعمر الشيخ ابو البيان بن المدور وتعطل في آخر عمره من الكبر والضعف، من كثرة الحركة والتردد إلى الخدمة فأطلق له الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله في كل شهر أربعة وعشرين ديناراً مصرية تصل إليه ويكون ملازماً لبيته ولا يكلف خدمة. وبقي على تلك الحال وجامكيته تصل إليه نحو عشرين سنة»(٥٨).

وقبل أن نختم البحث نقول:

إن الأطباء في كل زمان ومكان كبقية بني البشر، قد يظهر فيهم أحياناً بعض المتطفلين والمشعوذين أو ذوي النفوس المريضة فيسيء هؤلاء للمهنة بسلوكهم الشائن، والحضارة العربية الاسلامية في تاريخها الطويل لم تخل من البعض من غير الملتزمين بآداب مهنة الطب، إلا أن هؤلاء لم ينجوا من تقريع ولوم الملتزمين منهم بتلك الآداب، فكان الرازي مثلاً من أوائل الذين اندفعوا بشدة في احتقار الأطباء الذين يتخذون مهنتهم طريقاً لابتزاز أموال الناس بوسيلة غير شريفة، كما أنه حذر الناس من الدجالين والمشعوذين من الذين يتظاهرون بصنعة الطب بغية اكتساب المال وهم لا يعرفون من الطب شيئاً فيسيؤون إلى المريض إساءة بالغة بدل شفائه.

وانتقد ابن الكتبي (من أطباء بدايات عصر تخلف الحضارة العربية في كتابه ما لا يسع الطبيب جهله، بعض أطباء زمانه الجهلاء الذين دأبهم ارتداء الملابس الفاخرة وملازمة الأمراء والنبلاء وحضور الولائم وهم غافلون عن قوانين الصنعة ويجهلون احكامها ولا يتابعون تطورها بالدرس والملاحظة والالتزام بأعمالهم المهنية حتى أفسدوا شرائعها واستهانوا بقيمها مما حط من كرامة الصناعة وقدرها في عيون الناس.

وكلمة أخيرة لا بد من ذكرها وهي «إن قضية السلوك المهني لا تحل بقسم ولا تستوفى بدراسة مقرر علمي في آداب ممارسة الطب ولا تحكمها قواعد قانونية تقررها نقابة طبية أو دستور وضعي، إن الرعاية بالمريض تحمل التزامات اخلاقية والطبيب في ممارسته اليومية ستواجهه كثير من المواقف تستلزم استفتاء الضمير. وهنا ستتأثر قراراته بمدى التزامه تجاه ربه»(٥٩).

وانطلاقاً من ذلك فإننا نجد وعلى مدى قرون عديدة بأن الأطباء العرب والمسلمين منهم حقاً كان إسلامهم يلزمهم بمنهاج متكامل يربط كل فرد منهم لا بالمجتمع فحسب بل بالله الذي يعبدون علماً بأن التزامهم بهذا المنهج لم يأت قسراً وإنما جاء طواعية واختيار في ظاهرهم وفي باطنهم ومن غير خشية من عقاب المجتمع أو القانون بل رغبة في طاعة خالقهم وطلباً لتوبته الغالية التي جعلوا حياتهم كلها وسيلة لها وطريقاً إليها.

الهوامش

(١) التونجي — عبدالسلام/ المسؤولية المدنية للطبيب ص ٤٠ (دار المعارف — لبنان ١٩٦٧).

(٢) المصدر نفسه نقلاً عن:
Fazembat «Andre»: Resparsibi Lite Legele desmedecirs traitarts these, paris — 1903.

(٣) للمزيد من التفصيل يرجع للمصدر نفسه حيث لخصنا الفقرة التالية عنه بتصرف.

(٤) ابن الاخوة — محمد بن احمد القرشي — معالم القربة في أحكام الحسبة/ تحقيق د. محمد محمود شعبان، صديق احمد عيسى المطيعي ص ٢٥٥ — ٢٥٦.

(٥) الكيلاني — د. نجيب/ (في رحاب الطب النبوي) (بحث قدم للمؤتمر الثالث للسيرة النبوية — الدوحة ١٤٠٠هـ).

(٦) الحسبة — نظام إسلامي شأنه الاشراف على المرافق

العامة وتنظيم عقاب المذنبين. وهي وظيفة دينية شبه قضائية تقوم على فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ابن الاخوة ص ٢٣).
(٧) بسيس ــ محمد طيب/ قواعد وآداب ــ مزاولة مهنة الطب كما وردت في التراث الطبي الاسلامي/ مؤتمر الطب الاسلامي الأول ــ الكويت ١٤٠١ ــ ١٩٨١.
(٨) ابن الاخوة ص ٢٥٦.
(٩) ابن أبـي أصيبعة ــ طبقات الأطباء ج ٣ ص ١٩٨. (إصدار دار الفكر ــ بيروت ١٩٥٦م).
(١٠) الانطاكي ــ داود/ التذكرة في الطب ص ٧.
(١١) ابن ابـي اصيبعة ج ٣ ص ٤١٥.
(١٢) للمزيد من الاطلاع حول ذلك يراجع بحث (نظرة الاسلام للطب) للدكتور إبراهيم الصياد من أبحاث مؤتمر الطب الاسلامي في الكويت ١٤٠١هـ ــ ١٨٩١م.
(١٣) ابن ابـي اصيبعة ج ٣ ص ٢٥٤.
(١٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٣.
(١٥) البغدادي ــ مهذب الدين علي بن هبل/ المختارات في الطب ٣ ــ ٥.
(١٦) ابن أبـي أصيبعة/ ج ٢ ص ٣٥١.
(١٧) علي بن العباس/ كامل الصناعة الطبية ج ٢ ص ٨ ــ ٩.
(١٨) المصدر السابق ص ٣٥١.
(١٩) الرازي ــ ابو بكر محمد بن زكريا/ كتاب المرشد او الفصول ــ تحقيق الدكتور البير زكي اسكندر ص ١٢١.
(٢٠) ابن ابـي اصيبعة ج ٣ ص ٤١٣.
(٢١) الاشبيلي ــ عبدالله بن قاسم الحريري/ نهاية الأفكار ونزهة الأبصار تحقيق الدكتور مصطفى شريف العاني والدكتور حازم البكري ج ١ ص ٤٢ ــ وزارة الثقافة العراقية ١٩٧٩.
(٢٢) البغدادي ــ عبداللطيف/ مقالتان في الحواس/ تحقيق د. بول غليونجي، د. محمد عبدة ص ١٦٩. مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٤.
(٢٣) (بسيس ــ محمد الطيب/ قواعد وآداب مزاولة مهنة الطب كما وردت في التراث الاسلامي ــ مؤتمر الطب الاسلامي الأول ــ الكويت ١٤٠١/١٩٨١.
(٢٤) المفتي ــ د. يونس/ مبادىء الأخلاق الطبية في الاسلام ــ مؤتمر الطب الاسلامي الأول ــ الكويت ١٤٠١/١٩٨١.
(٢٥) علي بن العباس/ كامل الصناعة الطبية ص ٨.
(٢٦) ابن ابـي اصيبعة ج ٢ ص ١٧٠.
(٢٧) ابن جلجل = أبو داود سليمان/ طبقات الحكماء/ تحقيق فؤاد السيد ص ١٥٨، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٥٥.
(٢٨) الانطاكي ــ داود/ التذكرة في الطب ص ٨.
(٢٩) الاشبيلي ــ عبدالله بن قاسم الحريري/ نهاية الافكار ونزهة الأبصار/ تحقيق الدكتور مصطفى شريف العاني والدكتور حازم البكري ص ٤٢ ــ ٤٣. وزارة الثقافة العراقية ١٩٧٩.
(٣٠) ابن ابـي أصيبعة ج ٢ ص ٣٥١.
(٣١) البغدادي ــ عبداللطيف/ مقالتان في الحواس ص ١٧٠.
(٣٢) بسيس محمد الطيب/ قواعد آداب مزاولة مهنة الطب/ مؤتمر الطب الاسلامي الأول ــ الكويت ١٤٠١/١٩٨١.
(٣٣) ابن ابـي أصيبعة ج ٣ ص ٤١٢.
(٣٤) البلدي ــ أحمد بن محمد/ تدبير الحبالى والأطفال والصبيان/ تحقيق الدكتور محمود الحاج قاسم محمد ص ٢٤٨.
(٣٥) الشطي ــ الدكتور أحمد شوكت/ أخلاقيات الطب في التراث الاسلامي وواقعه اليوم/ بحث قدم للمؤتمر السنوي الثاني للجمعية السورية لتاريخ العلوم المنعقد في حلب ــ نيسان ١٩٧٧.
(٣٦) البغدادي ــ مهذب الدين علي بن هبل/ المختارات في الطب ج ١ ص ٥.
(٣٧) ابن أبـي أصيبعة ج ٣ ص ٤٠٢.
(٣٨) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٢٥، ١٤٣.
(٣٩) المصدر نفسه ص ١٢٣، ١٢٠.
(٤٠) ابن أبـي أصيبعة ج ٢ ص ١٩٤.
(٤١) عيسى ــ الدكتور أحمد/ تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص ٢٤، طبع جمعية التمدن الاسلامي ــ دمشق ١٩٢٧.
(٤٢) ابن جلجل ــ أبو داود/ طبقات الأطباء والحكماء ص ٨٩.
(٤٣) ابن أبـي أصيبعة ج ٢ ص ١٢٣.
(٤٤) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٨٨.
(٤٥) المصدر نفسه ص ٣٩٤.
(٤٦) المصدر نفسه ص ١٨١.
(٤٧) ابن جلجل/ طبقات الأطباء والحكماء ص ٨٥.
(٤٨) المصدر نفسه ص ٨١.
(٤٩) ابن أبـي أصيبعة ج ٣ ص ٣٢٩.
(٥٠) البيهقي ــ ظهيرالدين/ تاريخ حكماء الاسلام ص ١٦٢. مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٦.
(٥١) ابن جلجل ص ٨٩.
(٥٢) عيسى ــ د. أحمد/ تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص ٢٩ بالأصل نقلاً عن القفطي ص ١٥٢.
(٥٣) ابن أبـي أصيبعة ج ٢ ص ٢١٦.
(٥٤) ابن القفطي ص ٢٥٠.
(٥٥) ابن ابـي أصيبعة ج ٣ ص ٣٩١.
(٥٦) المصدر نفسه ص ٤٠٦.
(٥٧) المصدر نفسه ص ٢٩٨.
(٥٨) المصدر نفسه ص ١٩١.
(٥٩) بحث نظرة الاسلام للطب/ الدكتور إبراهيم الصياد/ من ابحاث مؤتمر الطب الأول ــ الكويت ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م.

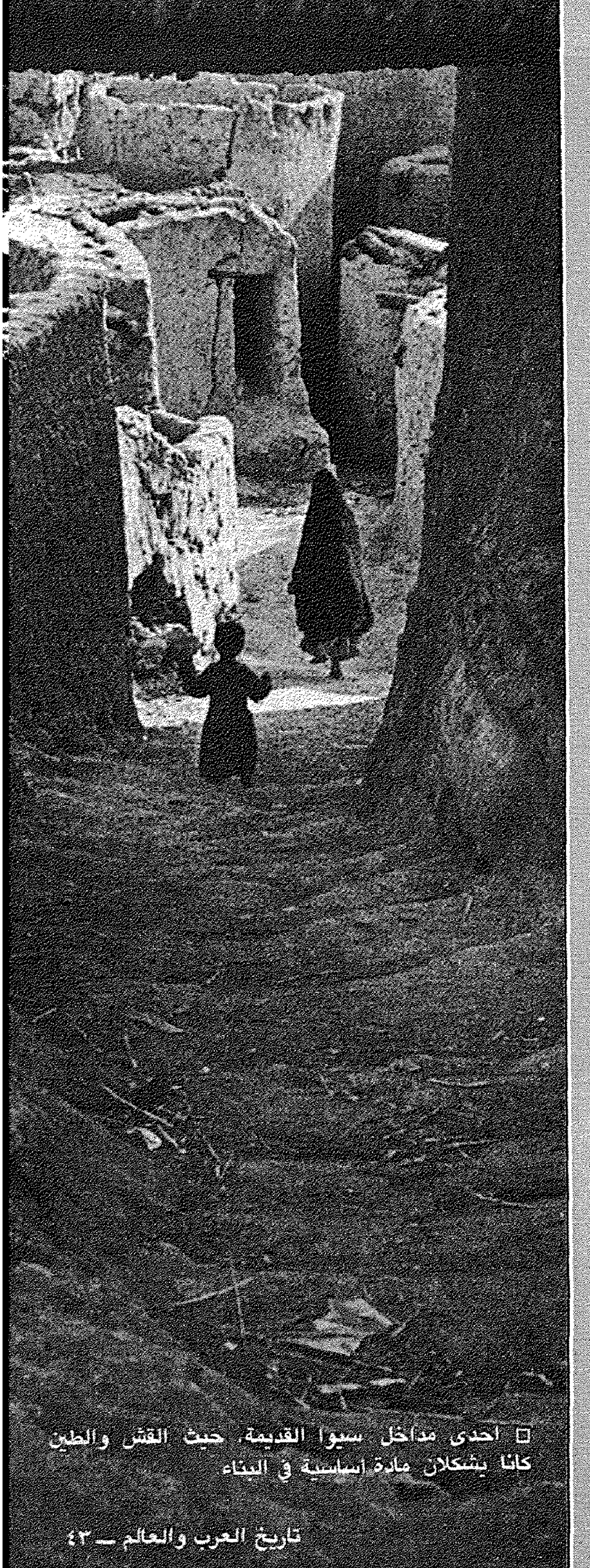
واحة السيوا

مَصيف الملوكِ عَبر السّنين

ترجمَة : مكرم حدّاد



□ بقايا معبد آمون إله الشمس حيث أتى إليه يوماً الكسندر الكبير ليستشير أحد كهانه

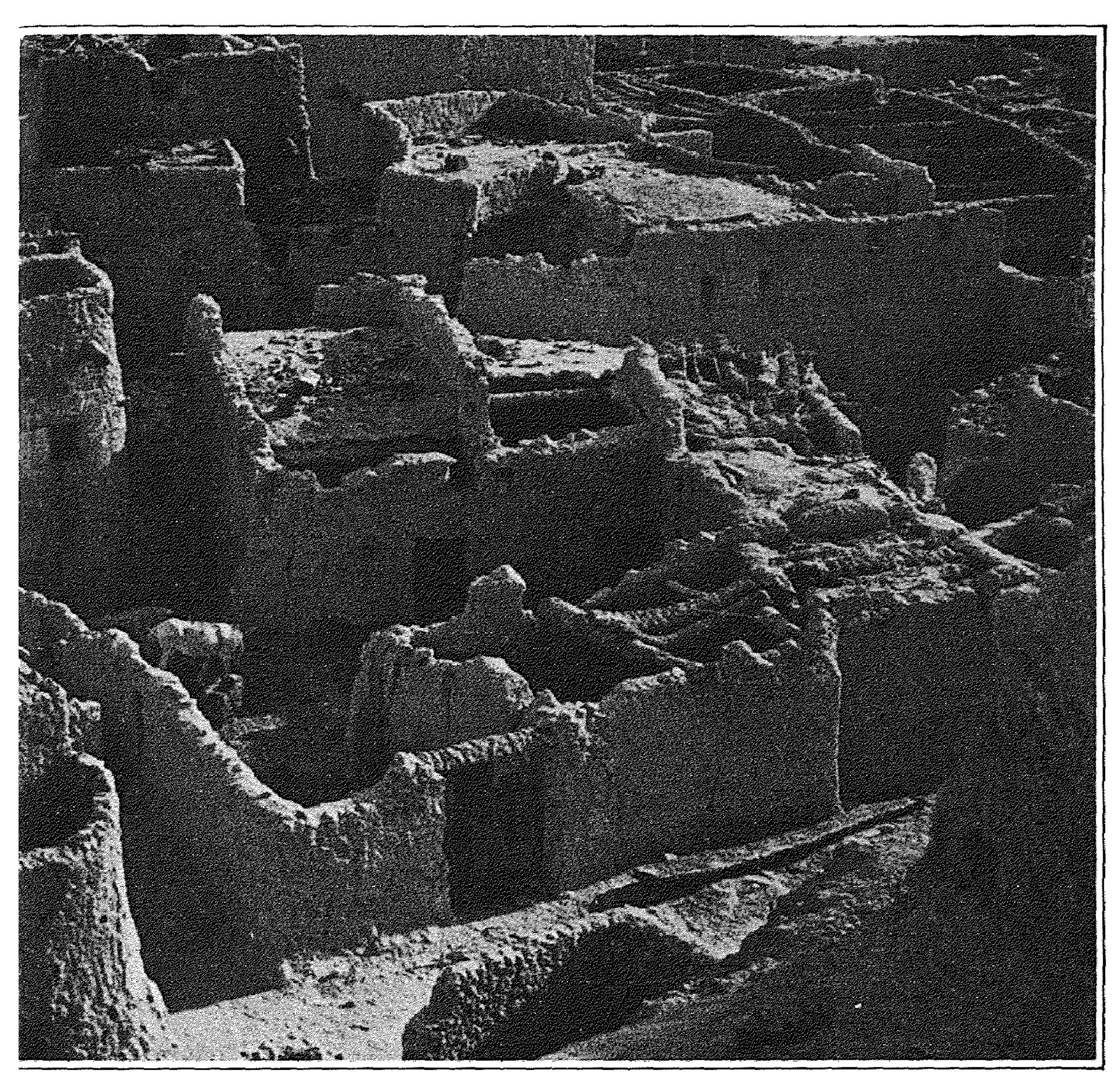


□ احدى مداخل سيوا القديمة، حيث القش والطين كانا يشكلان مادة اساسية في البناء

لأول مرة في ذلك النهار بدأت الطريق بالانحدار شيئاً فشيئاً حتى بدت امام ناظرينا تلك المنازل واشجار النخيل وكأنها سراب تحوّل إلى حقيقة بقدرة قادر. وبالسير على خطى الملوك والفاتحين، وكأن آثار اقدامهم لا زالت هناك، وصلنا إلى واحة السيوا من بين جميع واحات الصحراء الغربية في مصر، تعتبر السيوا الأبعد عن نهر النيل. فهي تقع على الطريق التي كانت تسلكها قديماً القوافل المسافرة ما بين القاهرة ومرزوق في ليبيا حيث تتشعّب الطريق الصحراوية شمالاً نحو طرابلس الغرب وجنوباً نحو بحيرة تشاد وغرباً نحو تمبكتو. ويعود تاريخ هذه الطرق الصحراوية إلى زمن بعيد غير معروف بحيث تبلغ المسافة ما بين بئر مائي وآخر نحو مائتي ميل إن لم يكن اكثر في بعض المناطق. فالرحلات عبرها كانت محكاً لرباطة الجأش وصبر المسافرين وعنادهم. ومن المحتم أن يكون كثيرون من عابري هذه الطرق قد اختفت اخبارهم ولم يُعثر على اثر لهم.

نقطة انطلاقنا الأولى كانت (الجيزة قرب القاهرة. والفريق المغامر تمثل بخمسة علماء جيولوجيين من جامعة عين شمس. من الجيزة شمالاً نحو الاسكندرية ومنها غرباً بمحاذاة شاطىء البحر حتى مرسى مطروح ومن ثم جنوباً نحو منطقة السيوا حيث بدأت الطريق تتسّم بالصعوبة ــ صعوبة الضياع التام. فلولا خطوط الهاتف الممتدة امامنا كأشباح صامتة لكنا اضعنا طريقنا. فالسير مسافة مائتي ميل في القفار الجافة يعتبر حقاً كارثة.

ونعود بالتاريخ إلى منتصف القرن السادس قبل الميلاد حين قام قمبيز ابن سايروس الكبير بحملات عسكرية تستهدف توسيع انتصارات والده. وبمساندة الأسطول الفينيقي تمكّن من السيطرة على مصر، ومن واحة السيوا اخترق الحدود نحو السودان وأثيوبيا. والجدير بالذكر أن معبد إله الشمس آمون ومعبد الكهنة القريب منه موجودان في السيوا. وفيها ايضاً تمّ تكريم الاسكندر المقدوني الكبير على يد كهنة آمون حيث نصّبوه ابناً لاله الشمس في العام ٣٣١ قبل الميلاد. وقد كان في نية الاسكندر أن يصبح فرعون مصر. إلا أن هذا اللقب لا يُمنح إلا لمن

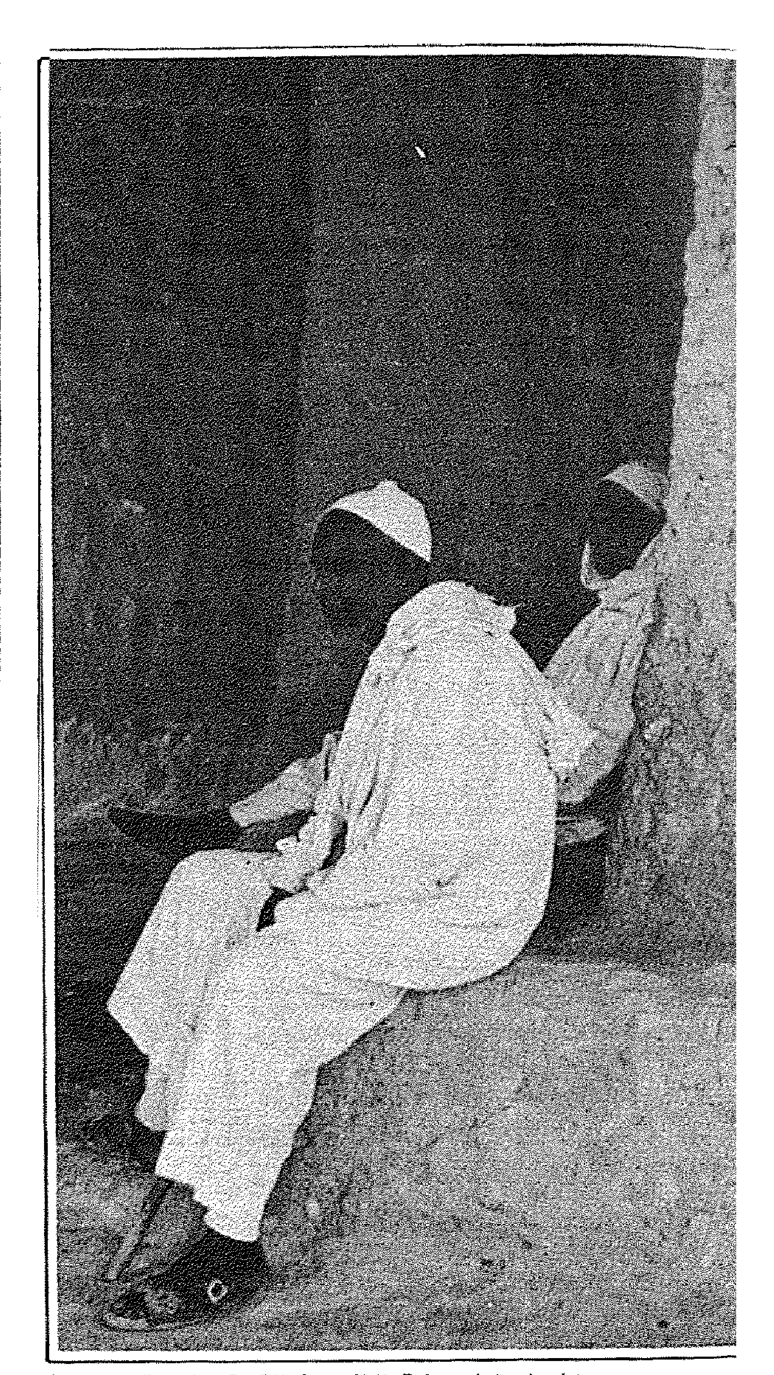


□ منظر لأطلال سيوا القديمة.

اتصّف بصفة الالوهية. وعلى مسافة غير بعيدة من المعبد يرى الناظر بركة ماء متوهجة ويقال إن كليوباترة اعتادت أن تستحم فيها.

وفي القرن الحالي قام الملك فؤاد، ملك مصر، بهذه الرحلة نحو السيوا عبر الطريق الساحلية التي سلكناها نحن، وهي بالمناسبة الطريق ذاتها التي سلكها الاسكندر المقدوني منذ حوالي ثلاثة وعشرين قرناً. وقد حُفِرت عدة آبار ألى الطريق تسهيلاً لزيارة الملك فؤاد: كما أن الملك فاروق قام بهذه الرحلة أيضاً. وتوالت الرحلات من قبل قادة مصر وانتهت أحداها بإنشاء بئر ماءٍ عميق لأهل السيوا وبهدية ثمينة وهي إنشاء خط جوي ما بين مرسى مطروح والسيوا بحيث تقوم طائرة مصرية برحلتين أسبوعيتين. وهذا الجسر الجوي هو الرابط الوحيد المنتظم ما بين السيوا وبقية أصقاع مصر.

مما لا شك فيه أن دوافع استراتيجية حدت بقمبيز للقيام بهذه الرحلة العسكرية كما أن



□ مكان اجتماع عامة الناس في القرية القديمة في سيوا.

حسابات الاسكندر الدينية منها والسياسية دفعته إلى تلك المغامرة. إلا أن هدفنا نحن لم يكن من هذين النوعين. الدافع الحقيقي كان علمياً بحتاً ذلك أن رواد الفضاء على متن أبولو ـــ سيوز قد قاموا بأخذ بعض اللقطات الفوتوغرافية، وذلك بتوجيه شخصي مني، لتلك المنطقة من الصحراء الغربية كجزء من دراسة شاملة لصحارى الشرق الأوسط. وما كان علينا نحن الجيولوجيين إلا أن نقارن ونتثبت من صحة الصُّوَر بمشاهدات حية «على الطبيعة».

قبل قيامنا بهذه الرحلة تزوّدنا بصورتين مأخوذتين من الفضاء، وقد ثَبُتَ لديْنا صحة ما رواه قدماء المستكشفين. ويلاحظ الناظر أول ما يلاحظ قوة اندفاع الرياح التي تؤدي إلى عزل وسلخ حبات الرمل عن الصخور الجرداء مما يحوّل تلك الصخور إلى منحوتات فنية ذات جمال يصعب نقله على يد أي فنان محترف. فالتلال الصخرية تبدو وكأنها تحوّلت إلى أهرام أو أكواز مخروطية الشكل. وقد يتساءل الناظر عما إذا كان قدامى المصريين قد أخذوا عِبَراً من هذه الصخور والتلال قبل أن يبنوا الأهرام.

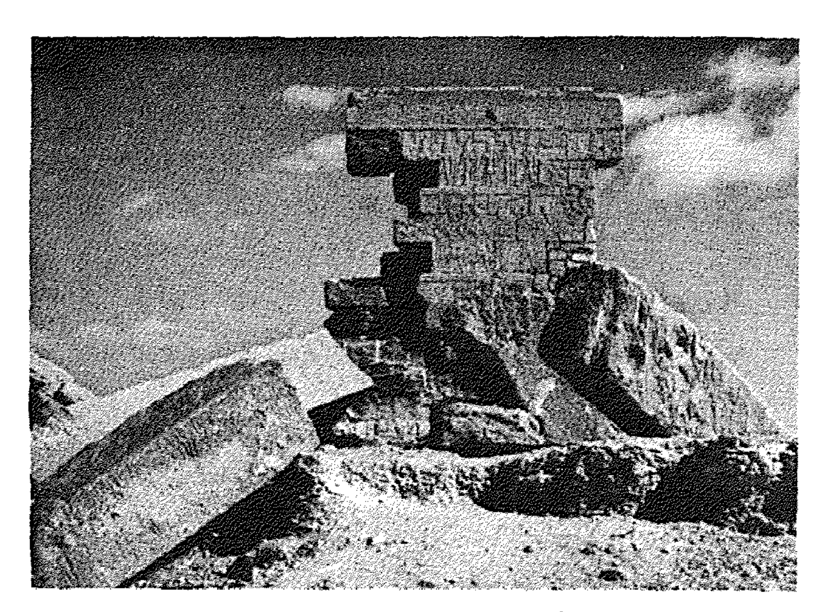
وتجدر الاشارة أيضاً إلى وجود مركز للأرصاد الجوية وقد بُني عام ١٩٤٠ وهو يقوم بجمع المعلومات حول مدى التآكل الصخري الحاصل من جراء شدة الرياح، كذلك يقيس تحرّك الرمال الصحراوية ويتتبع هجرة الكثبان المتنقلة أبداً. ولما كان هذا من ضمن اختصاصنا فقد عرّجنا على المركز ـــ المحطة ووجدنا آلة لقياس درجة التبخّر وآلة لتسجيل أشعة الشمس فإن اختفت الشمس مثلاً وراء الغيوم فإن تلك الآلة تسجّل هذه الظاهرة. وأما آلة قياس منسوب الأمطار فإنها كانت تشير إلى علامة الصفر مما يدل على أن المطر لم يهطل في العام المنصرم.

إن التفسير الممكن لهذا الجفاف هو أنه حديث العهد، ذلك أن مؤشرات عدة تثبت خصوبة الأرض وإن كان ذلك لسبعة آلاف سنة خلت. ودليل بسيط نسوقه هنا هو أن النقوش والرسوم لبعض الحيوانات كالأبقار والأغنام تشير إلى أن الأرض قد نعمت زمناً بعطاء نباتي أخضر: كما أن سكان تلك المنطقة لا بد عرفوا فن الزراعة وتربية المواشي. أما النقوش الأخرى فتُظهر أشكال زرافات مما يعني أن أشجاراً باسقة كانت تنبت هناك أيضاً. ويُقدّر أنه حول العام ٢٠٠٠ قبل الميلاد تبدّل المناخ ليصبح جافاً مما حدا بالسكان إلى النزوح جنوباً بحثاً عن أماكن أكثر خصوبة.

وهناك دليل واضح على هطول المطر في الزمن الغابر. فالقرية القديمة في السيوا مشادة على مرتفع وكأن القصد من ذلك تجنّب الفيضانات والسيول. كما أن قرية أخرى لا تبعد عن الأولى



□ حائط في معبد بآمون، إله الشمس عند المصريين القدماء، لا يزال قائماً، معبد لفرعونة وحفرياته القديمة.



□ **حجر المرمر المصري، حيث وجده المنقبون بالقرب من معبد «أمون».**

أكثر من ستين ميلاً للجهة الشمالية الشرقية مبنية على هضبة عالية مما يعني أنها كانت كالحصن المنيع لتحاشي الدخلاء الغرباء من غير المرغوب فيهم.

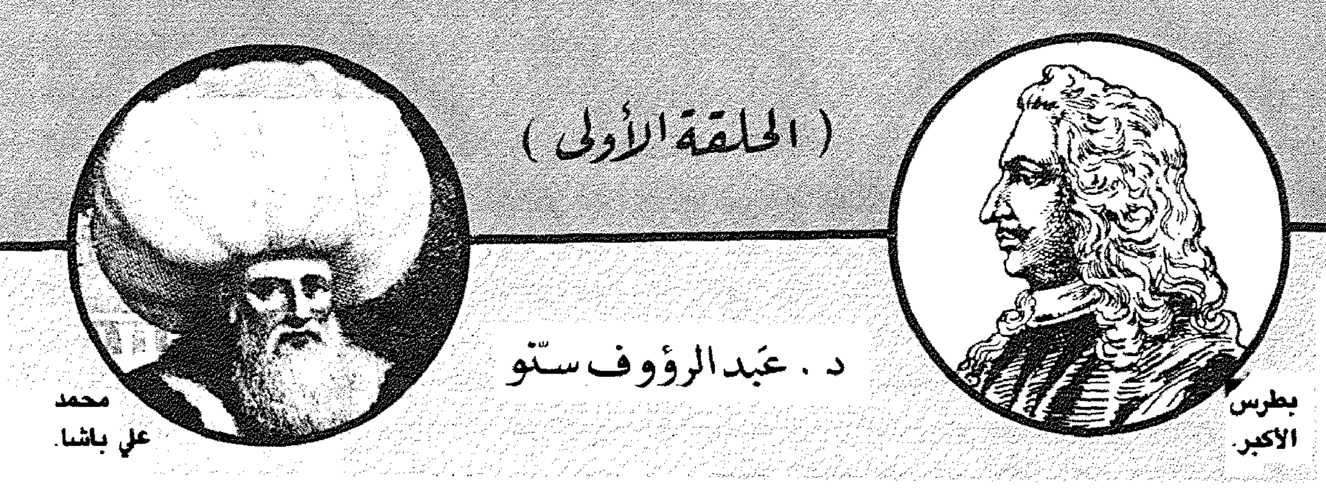
وخلال الاستراحة من العمل التنقيبي عرض علينا عمدة السيوا زيارة معبد آمنون وهو الذي أعطى شهرة للمنطقة رغم صغر حجمها. وقد تبين لنا أن حائطاً واحداً من المعبد لا يزال منتصباً والمنقوشات لا زالت ظاهرة عليه علماً أن الطلاء الذي استُعمل يوماً لتلوين هذه المنقوشات قد تلاشى وبهت بمعظمه. وعلى بعد عشرين ميلاً لجهة الغرب وجدنا صخرة على تلة عالية وقد غطتها كثبان الرمال ولدى تفحصها تبين لنا أنها من حجر الرخام الناصع البياض. من هناك انتقلنا إلى جبل الموتى حيث المدافن القديمة العهد والتي يعود تاريخها إلى العهد الروماني. والطبقة العليا من هذه المدافن تظهر نظرة هندسية في كيفية إنشائها. أما السفلى منها فهي أقل تنظيماً مما يدل على أنها احتوت على عظام أناس أقل شهرة. ومن على جبل الموتى يقف الناظر والدهشة تتملكه. فنظرة إلى الشمال حيث الجبال العالية؛ ونظرة إلى الغرب حيث التلال الهرمية وثالثة إلى الجنوب حيث الحقول الخضراء ورابعة إلى الشرق حيث المدافن التي تفصل الجبل عن بحيرة الزيتون الصامتة.

اما سكان السيوا فمعظمهم من المزارعين. وأهم مزروعاتهم البلح والزيتون بالاضافة إلى البرتقال والعنب والقمح والخضار. إن ما يميزهم العناد والثبات فهم عاشوا في منطقة معزولة منذ آلاف السنين حتى أصبح لهم لهجة خاصة بهم وهي مزيج من اللغتين العربية والبربرية. والسبب في ذلك يعود إلى أن الواحة هي معبر هام لشعوب كثيرة من مصرية قديمة ويونانية وبربرية وقرطاجية وأفريقية وعربية. أما عددهم فهو سبعة آلاف يعيشون تحت امرة تسعة شيوخ أجلاء. أطفالهم في معظمهم يذهبون إلى المدرسة، وما يلفت النظر تمكّن فتاتين من دخول جامعة الاسكندرية؛ وهذا حقاً انجاز ضخم لمن يسكن بعيداً عن كل أجهزة الراديو والتلفزيون والعلم الحديث.

وللدلالة على حسن ضيافتهم وبعد أن علموا بمهمتنا العلمية الكشفية، نظم أهل القرية صفوفهم للقائنا وخاصة بعد أن علموا إنني ساهمت في عملية أبولو الفضائية. اللقاء الأول كان مع تلامذة المدرسة والثاني مع السكان والثالث والأخير مع شيوخ القرية. وأشد ما أثار دهشتي هو قول أحد الشيوخ أنه يرفض تصديق أنباء الرحلات الفضائية ويعتبرها محض اختلاق. وما إن مضى ذلك اليوم ودُعينا في اليوم اللاحق إلى «سيرة شواء» حتى انشرحت لتقدم ذلك الشيخ مني ليقول انه غيّر رأيه وأصبح يصدق قصص اكتشاف القمر. وقد فرحت لهذا الموقف على أمل أن تكون أبحاثنا في واحة السيوا بانسجامها مع الصور المأخوذة من سفينة الفضاء نقطة انطلاق نحو بناء حياة أفضل ومستقبل أحسن لسكان تلك المنطقة. ●

العلاقات الروسية

سياسة الاندفاع نحو المياه الدافئة



(الحلقة الأولى)

د. عبد الرؤوف سنّو

محمد علي باشا.

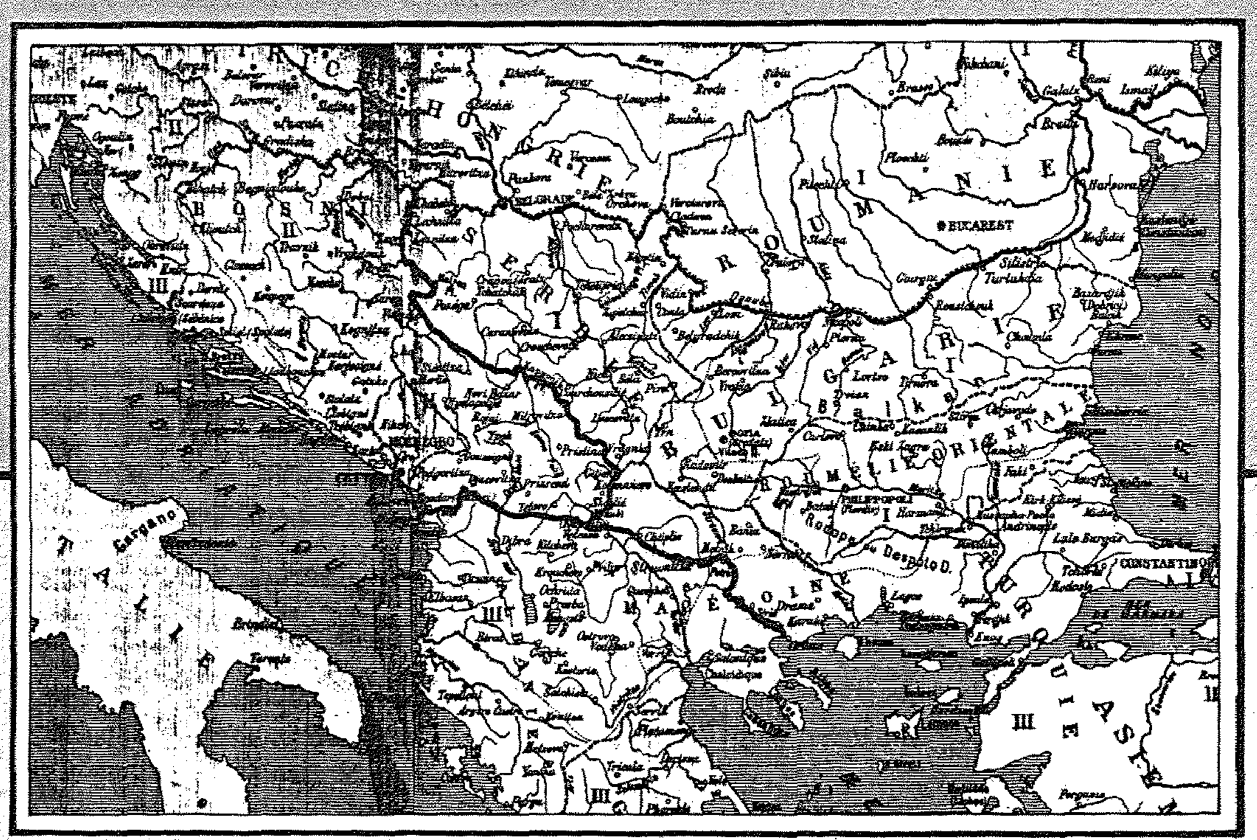
بطرس الأكبر.

منذ سقوط القسطنطينية بأيدي العثمانيين ظلت العوامل الدينية والاقتصادية تدفع روسيا للسيطرة على الممرات العثمانية وبالتالي على العاصمة العثمانية في سبيل تأمين تجارتها وتنفيذ ادعاءاتها في وراثة الامبراطورية البيزنطية. فتارة بالتوسع العسكري وأخرى بأسلوب التفاهم الدولي. أعلنت روسيا مراراً عن سياستها التقسيمية للدولة العثمانية. إلا أن خططها اصطدمت في كل مرة بمصالح دول أوروبية أخرى. فالنمسا كانت تنازعها الزعامة على البلقان، في حين عارضتها بريطانيا وفرنسا القضاء على الدولة العثمانية لأسباب استراتيجية واقتصادية. ونتج عن تضارب مصالح الدول الأوروبية في الامبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر تأزم متواصل في العلاقات الروسية العثمانية. وفي النصف الثاني من ذلك القرن اشتعلت الحرب مرتين بين الدولتين وتعرف الحرب الأولى من التاريخ تبعاً للمكان الذي دارت فيه «حرب القرم» (١٨٥٣ ــ ١٨٥٦) وانتهت بمؤتمر باريس. وتسمى الحرب الثانية بـ «الحرب البلقانية» (١٨٧٧ ــ ١٨٧٨) وانتهت بمؤتمر برلين. وكلا الحربين والمؤتمرين كانا بعيدي الأثر بنتائجهما في التاريخ الأوروبي والعثماني الحديث.

إن غرضنا من هذه الدراسة هو تتبع علاقات الدولتين في أربع حلقات: الأولى تشمل سياسة الاندفاع نحو القسطنطينية حتى معاهدة الممرات ١٨٤١ ــ الحلقة الثانية تلقي الأضواء على دور الدبلوماسية الروسية في مشاريع تقسيم الدولة العثمانية ــ أما الحلقة الثالثة فمخصصة لحرب القرم ومؤتمر باريس. وتنتهي الدراسة بالحلقة الرابعة التي تتعرض للحرب البلقانية ومؤتمر برلين.

□ د. عبد الرؤوف سنو: دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر ــ جامعة برلين الحرة. دبلوم في التعليم العالي والتنمية الدولية ــ جامعة كاسل.

العثمانية (١٦٨٧ - ١٨٧٨)



□ خارطة تبيِّن مناطق نفوذ الدول المتصارعة.

«المسألة الشرقية» في السياسة الروسية

تحتل قضية مصير الدولة العثمانية وممتلكاتها، التي يطلق عليها في التاريخ والأدب السياسي «المسألة الشرقية» مكاناً بارزاً في الدبلوماسية الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وباختصار تشمل المسألة الشرقية جميع المشكلات التي ارتبطت بانهيار الامبراطورية العثمانية داخلياً وثورات الشعوب المحكومة منها وأخيراً المصالح المتشابكة والمتضاربة للدول الأوروبية في الامبراطورية العثمانية وتدخل هذه الدول في عملية الانهيار العثماني(١).

ولكن هناك من المؤرخين من يرى جذور المسألة الشرقية في صراع المسيحية والاسلام وإن سقوط القسطنطينية (١٤٥٣) بيد العثمانيين المسلمين وتوسعهم في أراضي أوروبا المسيحية كانت أبرز محطاتها(٢)، وبلسان زين زين فإن كراهية الأتراك وبغضهم عسكرياً وعرقياً ودينياً كانت دوافع هذه المسألة(٣). وفي رأي أنه يمكن الأخذ بهذه التعريفات خصوصاً فيما يتعلق بالسياسة الروسية تجاه الدولة العثمانية.

فمنذ سقوط القسطنطينية حاضرة الامبراطورية البيزنطية ومعقل المسيحية الشرقية بيد العثمانيين ادعت روسيا الأرثوذكسية أنها وريثة هذه الامبراطورية وأن موسكو أصبحت روما الثالثة(٤).

«فروما الأولى انهارت بسبب هرطقاتها، والثانية سقطت ضحية الأتراك، ولكن روما جديدة وثالثة برزت إلى الوجود في الشمال»(٥).

ومما كان يقوي ادعاءات الروس في وراثة الامبراطورية البيزنطية علاقاتهم مع الامبراطورية وكذلك الأهمية الدينية للقسطنطينية. فمنذ القرن العاشر ميلادي توطدت

العلاقات الروسية البيزنطية عندما تحول الأمراء الروس في كييف إلى المذهب الأرثوذكسي وتبعوا القسطنطينية كنسياً[٦]. وبعد سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين أصبحت كنيسة موسكو، التي ورثت مظاهر الطقوس البيزنطية مستقلة من الناحية العملية، ورسمياً منذ عام ١٥٨٨. وقد أفسح ذلك المجال أمام القياصرة الروس أثناء انتقال حماية المسيحية الأرثوذكسية إليهم[٧]. وأخذوا يحلمون باليوم الذي يدخلون فيه القسطنطينية ويطردون المسلمين منها ويعيدون نصب الصليب مجدداً على آيا صوفيا[٨].

وبغض النظر عن الأهمية الدينية للقسطنطينية فقد كان موقع المدينة الاستراتيجي وإشرافها على الممرات (البوسفور والدردنيل) وكونها تشكل حاجزاً أمام روسيا للوصول إلى البحر المتوسط أو عبر هذا البحر إلى المياه الأوروبية حين يتجمد بحر البلطيق، يفقد روسيا طابعها كدولة أوروبية. ولهذا سعت روسيا باستمرار للاندفاع جنوباً باتجاه البحر الأسود ومنه عبور الممرات إلى المتوسط، أو على الأقل ضمان حرية المرور في الممرات في كل الأوقات لسفنها التجارية والحربية وإغلاق هذه الممرات امام سفن أعدائها[٩].

وبالاضافة إلى ما ذكرناه لعبت العوامل الاقتصادية من جانب روسيا دوراً أساسياً في تحديد سياستها التوسعية على حساب الدولة العثمانية. فضمها للشاطىء الشمالي للبحر الأسود عند نهاية القرن الثامن عشر وازدياد السكان في جنوب روسيا، وكذلك الازدهار التجاري والزراعي الذي عرفته المنطقة، رفع من أهمية الممرات بالنسبة لها[١٠]. فازدياد الانتاج الزراعي من الحبوب وتصديره عبر مرفأ أوديسا الروسي حول الثقل الاقتصادي إلى جنوب البلاد، مما جعل تصدير البضائع إلى البحر المتوسط عبر الممرات أمراً حيوياً لروسيا[١١].

وإذا تركنا مسألة القسطنطينية جانباً وألقينا نظرة على السياسة الروسية في البلقان العثماني لرأينا أن روسيا ظلت منذ القرن الثامن عشر تسعى للقضاء على الممتلكات العثمانية هناك وانتزاع ما يمكن انتزاعه منها، أو تشجيع شعوب الامبراطورية المسيحيين على الثورة مستخدمة في ذلك الروابط العرقية التي تربطها بالسلاف وكونها حامية رعايا السلطان الأرثوذكس[١٢].

وهكذا كانت المسألة الشرقية بالنسبة لروسيا هي الاستيلاء على القسطنطينية وإعادة «تنصيرها» والاستفادة من موقعها الاستراتيجي والقضاء على الامبراطورية العثمانية.

استراتيجية الاندفاع نحو المتوسط

قبيل نهاية القرن السابع عشر حدثت تطورات ذات أبعاد هامة في العلاقات العثمانية الأوروبية. ففي ١٦٨٣ فشل الحصار العثماني الثاني لفيينا وكان ذلك مؤشراً للخلل الذي أخذ يصيب الآلة العسكرية العثمانية، التي كانت حتى ذلك الوقت أقوى قوة ضاربة في الشرق والغرب. وقد شجع ذلك على قيام تحالفات أوروبية (١٦٨٤) انضمت إليها روسيا عام ١٦٨٧[١٣]. وكان الهدف منها طرد الدولة العثمانية من ممتلكاتها في أوروبا. وبينما كانت هذه التحالفات تأخذ مكانها على الأرض اعتلى بطرس الأكبر عرش روسيا، وأخذ يتحين الفرصة المناسبة لتنفيذ سياسة توسعية على حساب الدولة العثمانية.

ومنذ عصر بطرس الأكبر وحتى نهاية القرن الثامن عشر يمكن تقسيم السياسة الروسية تجاه الدولة العثمانية إلى مرحلتين وعهدين: المرحلة الأولى وهي عهد بطرس الأكبر، الذي أوصل حدود روسيا حتى شواطىء البحر الأسود الشمالية. أما المرحلة الثانية، وهي عهد الامبراطورة كاترين الثانية، فكانت أبرز معالمها تحويل البحر الأسود إلى بحيرة روسية وتأمين مرور السفن التجارية الروسية عبر المضائق إلى المتوسط وكذلك حماية رعايا الدولة العثمانية الأرثوذكس.

ونبدأ ببطرس الأكبر فنرى أنه قام بعد اعتلائه العرش عام ١٦٨٢ بإصلاحات داخلية ضرورية للنهوض بالبلاد وتقوية نفوذها الدولي. وكانت أبرز معالم هذه الاصلاحات إنشاء جيش حديث (١٦٩٦). وبعدها التفت بطرس الأكبر إلى جارته الكبرى الدولة العثمانية وجعل التوسع في

منطقة البحر الأسود الشمالية ركناً هاماً في سياسته الخارجية. وبغض النظر عن العوامل الاقليمية والدولية التي جعلت روسيا تنضم إلى التحالف النمساوي ــ البولندي البندقي عام ١٦٨٧ ضد الدولة العثمانية أو تلك التي جعلتها تنخرط بحرب ضد الدولة العثمانية (١٧١١) بسبب تحريض عدوتها السويد للسلطان العثماني عليها. فقد كانت الضرورات الاقتصادية ونمو الانتاج الزراعي يدفع روسيا دفعاً لايجاد منفذ يؤدي إلى مياه البحر الدافئة التي لا تتجمد في فصل الشتاء، في سبيل تصدير بضائعها. وكانت أهمية البحر الأسود كبيرة جداً للتجارة الروسية، وذلك لأن العديد من الأنهار الأوروبية تصب فيه. غير أن البحر الأسود كان بحوزة العثمانيين الذين منعوا السفن الروسية من الملاحة فيه وأغلقوا ممراته إلى المتوسط باحكام أمام السفن التجارية الروسية[١٤].

وكما ذكرنا فقد انضمت روسيا إلى التحالف النمساوي البولندي البندقي عام ١٦٨٧، ولكنها فشلت في الاستيلاء على شبه جزيرة القرم من العثمانيين. ورغم ذلك استغل بطرس الأكبر الحرب النمساوية العثمانية عام ١٦٩٥ وكرر محاولته ضد الدولة العثمانية وتمكن من الاستيلاء على قلعة آزوف (١٦٩٦)، التي كانت حصناً قوياً عند مصب نهر الدون، بالاضافة إلى ثمانين ميلاً من المناطق الداخلية[١٥]. وفي صلح القسطنطينية عام ١٧٠٠ تنازلت الدولة العثمانية عن آزوف، وبذلك فتحت أبواب البحر الأسود أمامها[١٦]. أما الدولة العثمانية فأدركت أن آزوف ليست نهاية الحروب مع روسيا وأن ما سيتبع ذلك هو السيطرة على البحر الأسود وأن بطرس الأكبر يتطلع أيضاً إلى المضائق ومن خلفها البحر المتوسط.

وفي السنوات التالية سار الروس في خطى حثيثة لتطوير المناطق المحيطة بآزوف اقتصادياً وتذكر التقارير أن الحنطة المنتجة من تلك المناطق كانت تأخذ طريقها إلى أسواق الأستانة[١٧]. ومع ذلك فلم ينعم الروس بانتصاراتهم إذ عادوا وخسروا آزوف في حرب عام ١٧١١، ليستعيدوها مرة أخرى بموجب صلح بلغراد عام ١٧٣٩، الذي أنهى الحرب التي اندلعت بين الدولتين بسبب مشكلة تتار شبه جزيرة القرم. وبموجب صلح بلغراد حصلت روسيا على حق شحن بضائعها في البحر الأسود، ولكن على متن السفن العثمانية شريطة عدم بنائها تحصينات في منطقة آزوف[١٨].

وبعد صلح بلغراد عاشت الدولة العثمانية فترة هدوء بسبب انشغال أوروبا بمشاكلها الداخلية[١٩]. ولكن منذ اعتلاء الامبراطورة كاترين الثانية عام ١٧٦٢ عرش البلاد، واصلت روسيا سياستها التوسعية على حساب الدولة العثمانية مستغلة كل حادثة اقليمية أو دولية لتحقيق ذلك. وقد قامت سياسة كاترين الثانية الخارجية على القضاء على استقلال بولندا وإضعاف الدولة العثمانية[٢٠]. وعندما تدخلت الدولة العثمانية ١٧٦٨ بالمسألة البولندية بتحريض من فرنسا بهدف استعادة بودوليا لقاء مساعداتها للثوار البولنديين، استغلت كاترين الثانية المناسبة لتنفيذ مآربها في المشرق، على الرغم من أنها لم تبدأ الحرب ولم تضع أهداف الحرب إلا خلال المعارك. من هذه الأهداف الملاحة في البحر الأسود وتصدير الحبوب من جنوب روسيا. والواقع أن تأخر العثمانيين في إعلان الحرب أفسح المجال أمام روسيا لاستكمال استعداداتها العسكرية[٢١].

وفي الحرب التي استمرت حتى ١٧٧٤ تم تدمير الأسطول العثماني في منطقة جشمه (١٧٧٠) بعد وصول أسطول روسي من بحر ايجة عبر بحر الشمال مستفيداً من الحياد البريطاني، كما أنزلت قواتاً روسية في اليونان وبيروت للتحريض على الثورة. كذلك استولت روسيا على القرم بعدما أحبطت المقاومة العثمانية في البحر الأسود[٢٢].

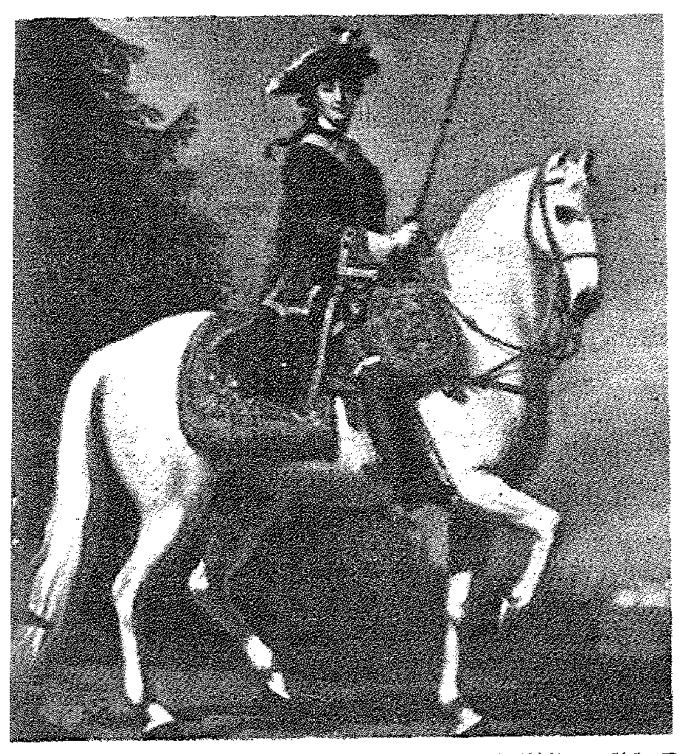
وأدت هزيمة العثمانيين إلى توقيعهم معاهدة كوتشك قينارجة (١٧٧٤) التي تعتبر في التاريخ السياسي نقطة تحول هامة في علاقات الدولتين وفي النفوذ الروسي في الشرق[٢٣]. فبموجب تلك المعاهدة أصبحت روسيا دولة على البحر الأسود وحصل أسطولها التجاري على حرية الملاحة في البحر الأسود وفي نهر الدانوب والمضائق. وقد استخدمت بريطانيا دبلوماسيتها النشطة لمنع السفن الحربية الروسية من عبور المضائق،

لارتباط ذلك باستراتيجيتها المتوسطية. وبالاضافة إلى ذلك أعلن استقلال خانات القرم وثبتت حقوق روسيا في آزوف. كما حصلت روسيا على حق تسمية قناصل لها في الدولة العثمانية. ومقابل ذلك أعادت روسيا بسارابيا، ملدافيا وولاشيا إلى السلطان العثماني شرط أن يؤمن هناك الحرية الدينية والادارة العادلة. كما ألزم الباب العالي بدفع تعويضات حرب قدرها أربعة ملايين ونصف مليون روبل[٢٤].

على أن أهم ما تضمنته المعاهدة كانت البنود، سبعة، ثمانية، وأربعة عشر، والتي تعهد فيها الباب العالي أن يحمي باستمرار الدين المسيحي الأرثوذكسي والكنائس المسيحية ويمنح روسيا ترخيصاً ببناء كنيسة أرثوذكسية عامة في استانبول على رأسها أساقفة روس وتوضع تحت حماية السفير الروسي. كما منح سفراء روسيا لدى الباب العالي رسمياً حق عرض شكاواهم والتدخل لصالح الكنيسة الجديدة وضد أي أمر يسيء إليها. ووافق الباب العالي أن يسمح للرعايا الروس وللعلمان ولرجال الدين بتأدية فريضة الحج بالأراضي المقدسة في شتى أنحاء الأراضي العثمانية[٢٥].

وبسبب عدم وضوح بعض بنود المعاهدة فقد استخدمتها روسيا لخدمة سياستها في حماية رعايا السلطان الأرثوذكس والتدخل في شؤون البلاد الداخلية وفرض حمايتها على السلاف في البلقان[٢٦]. لقد أدى الاختلاف على تفسير هذه المعاهدة إلى أزمات مستمرة بين الدولتين حتى الحرب العالمية الأولى. ومن أبرز محطات هذه الأزمات حرب القرم ١٨٥٣ ــ ١٨٥٦ والحرب البلقانية ١٨٧٧ ــ ١٨٧٨[٢٧].

وبعد فترة وجيزة تبين أن صلح قينارجة لم يكن سوى هدنة للفريقين. فالدولة العثمانية أرادت إعادة حكمها على تتار القرم، وروسيا اعتبرت استقلال خانات القرم ليس سوى مرحلة تسبق إخضاعهم لسيطرتها[٢٨]. فبين أعوام ١٧٧٥ ــ ١٧٧٩ تأزمت العلاقات الروسية العثمانية بسبب القرم، ووقفت الدولتان على حافة الحرب. وبعد وساطة فرنسية بروسية عقد صلح «عينالي كواك» الذي أكد على ما اتفق عليه بشأن تتار القرم في معاهدة قينارجة، وهو



□ كاترين الثانية.

استقلالهم مع احتفاظ السلطان العثماني بحقه كخليفة بأن يختار خان التتار[٢٩].

وفي السنوات التالية واصلت روسيا خططها لطرد العثمانيين من أوروبا. وكان الضعف قد بدأ ينخر كيان الامبراطورية، بحيث وقفت عاجزة عن منع روسيا من ضم القرم عام ١٧٨٣[٣٠]. وعندما حاولت الدولة العثمانية أن تغير هذا الواقع في حرب ١٧٨٧ ــ ١٧٩٢ منيت بهزائم جسيمة، إذ كان عليها أن تحارب النمسا في نفس الوقت. وبموجب صلح ياسي الذي انهى الحرب استطاعت روسيا أن تحسن مركزها وأن تحصل على المنطقة الساحلية لنهري الدنستر وبوج[٣١].

وتحول هذا العداء بعد سنوات قليلة إلى تحالف مؤقت بعدما احتل نابوليون بونابرت مصر. وكانت روسيا على استعداد لدعم الدولة العثمانية ضد فرنسا بعدما استسلمت النمسا لنابوليون. وفي ١٧٩٩ وعلى أثر وساطة بريطانية وقعت كل من روسيا والدولة العثمانية معاهدة الآستانة، سمحت بموجبها الثانية للأولى بإدخال أسطولها إلى المتوسط عبر المضائق. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يعبر فيها الأسطول الحربي الروسي المضائق، ولكن كحليف للدولة العثمانية[٣٢].

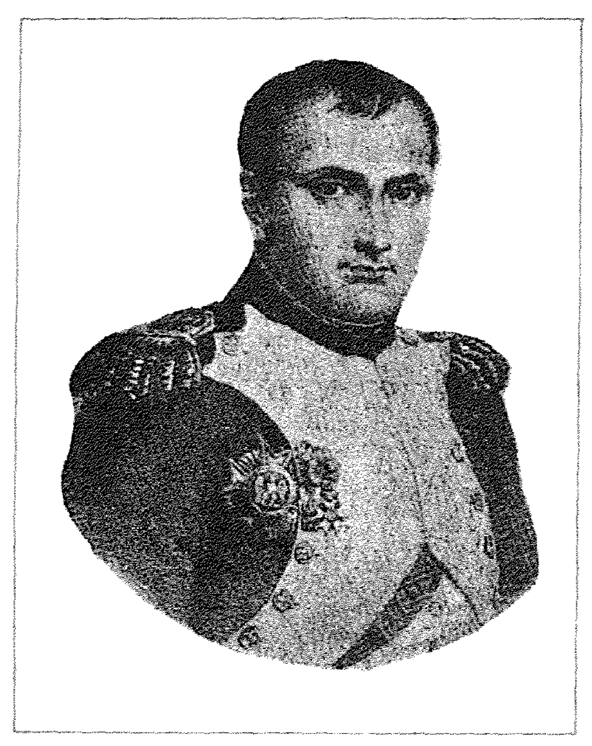
وبانتهاء القرن الثامن عشر كانت روسيا قد اصبحت دولة عظمى بعدما دمرت جيرانها أو أضعفتهم. كما كانت تمتلك مينائين، الأول على بحر الشمال، والآخر على البحر الأسود[٣٣]. كذلك استطاعت أن تحقق تقدماً سريعاً في تحديث الادارة والجيش وتطوير الحياة الاقتصادية إلى حد ما. بالاضافة إلى ذلك أخذت تتبنى أفكاراً تقنية جديدة، مما أعطاها تفوقاً على جيرانها وخصوصاً الدولة العثمانية[٣٤]. ومقابل ذلك عجزت الدولة العثمانية في إحداث إصلاحات جذرية، واقتصرت جهود بعض سلاطينها على إصلاحات سطحية لم تستطع إيقاف تدهورها[٣٥].

العلاقات الروسية العثمانية حتى اتفاقية المرات ١٨٤١

أبرز ما جسدته علاقات الدولتين خلال تلك المرحلة أن الفترة التي امتدت حتى صلح أدرنة (١٨٢٩) تميزت بعلاقات عدائية بين الطرفين نتيجة لاستمرار روسيا في سياستها للقضاء على الدولة العثمانية وظهورها عملياً كحامية للشعوب البلقانية الثائرة على الدولة العثمانية. لكن فترة العشر سنوات المتبقية، أي حتى اتفاقية المرات ١٨٤١، شهدت ارتخاء وهدوء على ساحات القتال وتحول الاندفاع العسكري الروسي إلى دبلوماسية ضاغطة أو «ودودة» في استانبول. والواقع، كما سنرى بعد ذلك، أن هذا التباين لم يكن تناقضاً في السياسة الروسية أو تغييراً في الاستراتيجية الروسية تجاه الدولة العثمانية، بل تكتيكاً حتمته الظروف الاقليمية والدولية في أوروبا والشرق[٣٦].

١ ـ روسيا والدولة العثمانية في الربع الأول من القرن التاسع عشر

ويبدأ القرن التاسع عشر وأوروبا تتخبط بعضها ببعض نتيجة لما أفرزته الحملات الفرنسية من تناقضات في المجتمع الأوروبي وكذلك لما سببته سياسة نابوليون الامبريالية في اختفاء حدود وتلاشي وقيام دول أخرى. وفي خضم الحروب البونابرتية حاولت الدبلوماسية الفرنسية الاستفادة من الدولة العثمانية في الصراع



□ نابليون بونابرت

الأوروبي، وخصوصاً عندما كان الأمر يتعلق بتقارب روسيا إلى فرنسا أو تباعدها عنها. ومن جهة أخرى أيقظت الحروب البونابرتية أملاً لدى الدولة العثمانية بإمكانية استعادتها لمركزها في ولايتي الدانوب والقرم فيما لو انهزمت روسيا أمام فرنسا في التحالف الدولي الثالث، الذي بدأ عام ١٨٠٥. ففي عام ١٨٠٦ عندما كانت فرنسا في حرب ضد روسيا حرضت الأولى الدولة العثمانية على استئناف العلاقات العدائية ضد روسيا وفي نفس الوقت كانت الثورة مشتعلة في صربيا وتتلقى إمدادات روسية. وعلى أثر مذبحة للعثمانيين في بلغراد وبعد عزل الدولة العثمانية أمراء ملدافيا وولاشيا الموالين لروسيا اندلعت عام ١٨٠٦ الحرب العثمانية الروسية[٣٧]. وفي العام التالي وجدت الدولة العثمانية نفسها تخوض الحرب منفردة بعدما تخلت عنها «حليفتها» فرنسا وعقدت مع روسيا صلح تلست (١٨٠٧). وفي هذه الحرب التي استمرت حتى ١٨١٢ احتلت روسيا ملدافيا ومعظم ولاشيا، كما سقطت قلعة روتشك على الدانوب. ولكن روسيا سارعت بعقد السلام مع الدولة العثمانية بعدما أدركت أن علاقاتها السيئة مع نابوليون ستقودها إلى الحرب مع فرنسا،

وخشيت بذلك أن تحارب على جبهتين. وبموجب صلح بوخارست (١٨١٢) بين روسيا والدولة العثمانية عين نهر بروث وفرع الدانوب الشمالي حدوداً بين الدولتين. كما حصلت روسيا على بسارابيا مقابل إعادة الولايتين الدانوبيتين إلى الادارة العثمانية. وأخيراً حصلت بعض أجزاء صربيا الثائرة على الاستقلال الذاتي[٣٨]. وعندما اشتعلت الحرب الفرنسية الروسية في العام التالي بعد صلح بوخارست قامت الدولة العثمانية وضربت الصرب واستعادة بلغراد مجدداً.

ولكن السلام لم يستمر طويلاً بين روسيا والدولة العثمانية. فبعد انتهاء الحروب الأوروبية والقضاء على امبريالية نابوليون ووضع صيغة «الوفاق الأوروبي» الجديد (مؤتمر فيينا ١٨١٥) أو تحالف الدول الأوروبية وخاصة العروش الرجعية (الحلف المقدس)، وجدت روسيا نفسها اكثر حرية في مواصلة سياستها تجاه الدولة العثمانية. وكانت ثورات الشعوب المسيحية في الدولة العثمانية توفر الأرض الخصبة للنزاعات بين الدولتين. فعندما بدأت الثورة اليونانية في بداية العشرينات من القرن الماضي كانت العلاقات الروسية العثمانية سيئة بسبب الاختلاف على تفسير نصوص معاهدة بوخارست وبسبب رفض روسيا إخلاء القوقاز الذي احتلته خلال الحرب الأخيرة. هذا بالاضافة إلى الاختلافات على قضايا تجارية[٣٩].

٣ ـ روسيا والثورة اليونانية

ولم تكن الثورة اليونانية لتسبب النزاعات بين روسيا والدولة العثمانية فحسب، بل كانت مسألة تدخل في صميم التوازن الأوروبي ومبدأ «التجانس الأوروبي»، خصوصاً عندما وجه القيصر الكسندر الأول في ٢٢ حزيران ١٨٢١ مذكرة إلى الدول الأوروبية يتساءل عن موقف الدول الأوروبية من الأزمة اليونانية إذا ما تورطت روسيا في حرب مع الدولة العثمانية[٤٠]. والواقع أن الدول الأوروبية وخاصة النمسا وبريطانيا كانتا تدركان موقف الكسندر الأول المتحفظ تجاه الثورات وتأييده المشروط للثورة اليونانية[٤١]. ولكن النمسا المؤيدة للسلطان في المسألة اليونانية كانت تخشى أن تستغل روسيا الأزمة اليونانية وادعاءها حماية الأرثوذكس لتنفيذ سياستها التوسعية في الدولة العثمانية مما يؤثر على مصالحها في البلقان[٤٢]. أما بريطانيا فكانت تريد المحافظة على الوضع القائم كي لا تستفيد روسيا من أية منازعات أو اضطرابات في تحقيق سياستها في الممرات. وجاء تدخل القوات المصرية في الأزمة ليزيد قناعات بريطانيا بضرورة التحرك سريعاً وعرض المسألة اليونانية على طاولة المفاوضات الأوروبية[٤٣].

وقبيل وفاة القيصر الكسندر الأول واعتلاء نيقولا عرش روسيا في أواخر عام ١٨٢٥ كانت بريطانيا تجري مفاوضات مع روسيا بشأن المسألة اليونانية. ونجحت بإقناع روسيا بفصل نزاعاتها مع الدولة العثمانية عن المسألة اليونانية. وتكللت هذه المفاوضات بتوقيع «بروتوكول بطرسبرغ» في ٤ نيسان ١٨٢٦ الذي انضمت إليه فرنسا بعد فترة قصيرة[٤٤]. وقد قررت الدول الثلاث الموقعة على البروتوكول التدخل بالمسألة اليونانية «من أجل وضع حد» للحوادث «التي تثير الاضطرابات في منطقة الليفانت»[٤٥].

وخلال المفاوضات البريطانية الروسية بعث القيصر نيقولا في ١٧ آذار ١٨٢٦ إنذارين إلى الحكومة العثمانية، يتعلق الأول بالمسألة اليونانية ويطالب فيه بإعطاء اليونان الحكم الذاتي لقاء دفع الجزية. أما الانذار الثاني فكان تهديداً للدولة العثمانية بوجوب تنفيذ مقررات معاهدة بوخارست خلال ستة أسابيع، وهي إعادة الحقوق الروسية في الولايتين الدانوبيتين واستقلال الصرب[٤٦]. وبعد أيام على الانذار صرح المبعوث الروسي في الآستانة بأن بلاده تحتفظ بحقها فيما يتعلق بالمسائل العالقة بينها وبين الدولة العثمانية وأنها لديها القدرة على حلها دون أي تدخل خارجي[٤٧]. وبعبارة أخرى أراد السفير الروسي إفهام الدول الأوروبية بأن دولته قد سلمت بأن المسألة اليونانية قضية دولية لا تحل إلا عن طريق التفاهم الدولي، ولكن النزاع مع الدولة العثمانية هو على عكس ذلك مسألة تتعلق بروسيا وحدها وليست من شؤون المجموعة الأوروبية.

والواقع أنه لم يكن أمـام السلطان محمود الثاني سوى الرضوخ للانذار الروسي فيما يتعلق بقضية النزاع حول تفسير معاهدة بوخارست.

ففي آذار ١٨٢٦ كان يستعد لتوجيه ضربته القاضية إلى جيش الانكشارية الذي طال فساده، بحيث لم يكن بمقـدرتـه منـاهضـة عـدوتـه روسيا[٤٨]. وبالاضافة إلى ذلك رأت الحكومة العثمانية أن القبول بالمطالب الروسية سوف يفقد روسيا حججها في محاربتها، وبالتالي يكسبها تأييداً بريطانياً وفرنسياً وكذلك تعاطف الرأي العـام الأوروبـي معها. في معـاهدة اكـرمـان (٧ تشرين أول ١٨٢٦) وافقت الدولة العثمانية عـلى المطالب الروسيـة فيما يتعلق بـالولايتين الدانوبيتين وبلاد الصرب[٤٩].

وفي تطور دراماتيكي للأزمة اليونانية رفضت الدولة العثمانية مقررات لندن (٦ تموز ١٨٢٧) الداعية لاستقلال اليونان ممـا دفع أسـاطيل الدول الأوروبية المحتشدة قرب نافارين إلى تدمير الأسطولين المصري والعثماني دون سابق إنذار مما أعطى الأسطول الروسي تفوقاً على الأسطول العثماني في البحر الأسود[٥٠]. وبعد قليل أخذت العلاقات الروسية العثمانية تسوء بسبب تلكؤ الحكومة العثمانية بالجلاء عن ملدافيا وولاشيا طبقاً لاتفاقية اكرمان. ثم ما لبثت روسيـا أن أعلنت الحرب على الدولة العثمـانية (نيسـان ١٨٢٨)، وتقدمت جيوشها في القوقاز واحتلت اردهان وبايزيد وأرضروم. كما عبر جيش روسي آخر البلقان واحتل أدرنة، القريبة من العاصمة العثمانية، مما سبب قلقاً دولياً حول مصير الدولة العثمـانية[٥١]. وبعـد وساطة بـروسية، وتبني الحكومة الروسية لسياسة جديدة تجاه الدولة العثمانية تقضي بضرورة عدم القضاء عليها في تلك المـرحلة[٥٢]، تـوصـلت روسيـا، والدولة العثمانية إلى «صلح أدرنة» (١٤ أيلول ١٨٢٩).

وبمـوجب هذا الصلح حلت جميـع القضـايـا الحدودية بين الدولتين، فتخلت الدولة العثمانية عن مقاطعاتها في القوقاز وعن جزر الدانوب. كما وافق السلطان العثمـاني عـلى وضــع ولايتي الدانوب تحت الحماية الروسية[٥٣].

٣ ــ روسيا والأزمة المصرية

وما أن انتهت الدولة العثمانية من الأزمة اليونانية حتى بدأت تواجه خطراً داخلياً جديداً مصدره مصر التي خرجت عن طاعتها وتريـد ابتلاع ممتلكاتها، والقضاء على سيادتها. ففي أواخر تشرين الثاني عام ١٨٣١ بدأت جيوش محمد علي، والي مصر، تغزو سوريا. وفي العامين التاليين حقق ابراهيم باشا انتصارات حاسمة على جيوش السلطان مما أحدث قلقاً لدى الدوائر البريطانية والروسية والنمسـاوية. أمـا روسيا فخشيت أن يطاح بسيادة السلطان وأن تقوم حكومة جديدة قوية (مصر) على البوسفور وأن تلعب فرنسا التي كانت قد عايشت قبل قليـل (١٨٣٠) ثورة شعبية دوراً في السياسة الخارجية لدولة مصر الفتيـة[٥٤]. وقـد عبـر نسـلرود (Nesselrode)، المستشار الروسي، بأن رؤيـة محمد علي يتوسع عـلى حساب الامبـراطورية العثمانية يهدد مصالح روسيا التي سترى «جاراً قـوياً ومنتصـراً يـأخـذ مكـان جـار ضعيف مهزوم»[٥٥]. وكان القيصر نيقولا يرى أن وصول القوات المصرية إلى منطقة الممرات يهدد أمن روسيا التي عليها أن تحافظ على بوابات منزلها «كي لا تقع بيد محمد علي»[٥٦]، ولا بيد أية قوة أخرى[٥٧]. ولهذا قررت روسيا أن تستغل الموقف الدولي من الأزمة المصرية وتقوم بتحرك دبلوماسي منفرد لدى الباب العالي يخدم سياستها التي كانت قد قررتها عام ١٨٢٩ بعدم تقسيم الدولة العثمانية. فبـريطانيـا كانت مشغـولة بالثـورة البلجيكية والاصلاحـات الداخلية ولم تعـط في البداية الأزمة المصرية الأهمية المفروضة. أما النمسا فكانت لا تزال مترددة في مـوقفها من محمد علي وتعتقد أنه لا يشكل خطراً على سيادة السلطان العثماني، في حين كانت فرنسا تشجع محمـد علي في سيـاسته التـوسعية في مصر وسوريا[٥٨].

وفي ٢١ كانون الأول ١٨٣٢ عرض بوتنييف (Boutenieff) ممثـل روسيا عـلى الحكـومـة العثمانية استعـداد حكومته لتقديم دعم عسكري ضد محمد علي. وفي الشهر التالي وصل الجنرال مورافييف (Mouraview) إلى العاصمة العثمانية

بمهمة خاصة، في اللحظة التي كان فيها الجيش العثماني ينهزم عند قونية. وعرض على السلطان إرسال أسطول روسي إلى المياه العثمانية للدفاع عن القسطنطينية. ولكن محمود الثاني تردد في قبول العرض الروسي(٥٩).

وعندما يئس الباب العالي في الحصول على دعم من بريطانيا والنمسا وفرنسا بعث في ٣ شباط ١٨٣٣ بمذكرة إلى القائم بالأعمال الروسي، بوتنييف، لا يطلب فيها إرسال أسطول روسي إلى منطقة الممرات فحسب، بل إرسال قوات برية من ملدافيا عبر الأستانة إلى آسيا الصغرى. وبناء على ذلك نزل في ٢٠ شباط أربعة عشر ألف جندي روسي في منطقة البوسفور وعسكروا هناك. وقد سبب ذلك صدمة وقلقاً لكل من بريطانيا والنمسا وأيضاً لفرنسا. فقد خشيت هذه الدول من أن تستغل روسيا انهيار الحكومة العثمانية لتقوي مركزها في الممرات. ورأت أن خير ما تقوم به هو التوسط لعقد سلام بين محمد علي والسلطان وأن ذلك يفقد روسيا مبرر وجود قواتها في الممرات. وفي ١٨ نيسان ١٨٣٣ عقد صلح كوتاهية بين مصر والدولة العثمانية، اعترف بموجبه محمود الثاني بمحمد علي حاكماً على سوريا(٦٠).

٤ ـ معاهدة خنكار اسكلسي ونتائجها

ورغم صلح كوتاهية تابعت روسيا دبلوماسيتها الضاغطة على الدولة العثمانية للحصول على مزيد من المكاسب منها. ففي ٥ أيار وصل الكونت أورلوف إلى الأستانة في محاولة لاقناع السلطان بضرورة «تمتين» العلاقات الروسية العثمانية. واستطاع أورلوف أن يقنع محمود الثاني بأن روسيا هي الصديق الوحيد للامبراطورية من بين كل الدول الأوروبية، وأنها الوحيدة التي قدمت له العون العسكري. وكانت ثمرة هذه الجهود عقد تحالف دفاعي مشترك لمدة ثماني سنوات (معاهدة خنكار اسكلسي، ٨ تموز ١٨٣٣). وتضمنت المعاهدة بنداً سرياً سرعان ما أصبح معروفاً لدى الدوائر البريطانية، ونص على تبادل المساعدة في حالة الاعتداء على إحداهما، وبإعفاء الحكومة العثمانية من هذا الالتزام مقابل إغلاقها للممرات «عند



□ ابراهيم باشا.

الحاجة» بوجه السفن الحربية للدول المعادية لروسيا. ولم يكن واضحاً عما إذا كان معنى هذا السماح للسفن الروسية باستخدام الممرات. ولكن بريطانيا وفرنسا راودتهما الشكوك بأن السفن الحربية الروسية كانت مستثناة من هذا المنع(٦١).

وتكمن أهمية معاهدة خنكار اسكلسي أيضاً في الوعود المتبادلة بين القيصر والسلطان بالتفاهم الصريح حول كل مسألة تتعلق باستقرار بلديهما. (المادة ١). وباختصار حصلت روسيا على حق أن يكون لها كلمة مسموعة لدى الباب العالي(٦٢). وقد علق المستشار الروسي نسلرود على المعاهدة بقوله «حصل تدخلنا المسلح في شؤون تركيا على أساس قانوني»(٦٣). أما وزير التربية الفرنسي غيز فكتب فيما بعد بأن روسيا حولت بموجب المعاهدة الدولة العثمانية إلى دولة تابعة لها، كما حولت البحر الأسود إلى بحيرة روسية(٦٤).

واتبعت روسيا هذه المعاهدة بمعاهدة أخرى مع الدولة العثمانية (١٧ ك٢ ١٨٣٤) كانت أهم بنودها ما يتعلق بتعديل الحدود بين الدولتين في آسيا الصغرى. وقد جاءت تلك المعاهدة لمصلحة



□ خارطة تبيِّن مناطق نفوذ الدول المتصارعة.

روسيا بعدما تخلت الحكومة العثمانية عن المناطق لها. كما اعترف الباب العالي بالاجراءات الدستورية التي كانت روسيا قد قامت بها خلال احتلالها لولايتي الدانوب. وأخيرا حددت تعويضات الحرب التي كان على الحكومة العثمانية أن تدفعها لروسيا(٦٥).

وكانت النمسا وبريطانيا وفرنسا أكثر الدول تضرراً من اتفاقية خنكار اسكلسي. ولذا سارعت كل واحدة لاتخاذ إجراءات تجعل المعاهدة عديمة المفعول من الناحية العملية. فعقدت النمسا مع روسيا اتفاقية ميونيخ غراتز (١٨ أيلول ١٨٣٣)، التي ألزمت روسيا بالاتفاق التام معها في كل ما يتعلق بمصير الدولة العثمانية(٦٦). أما بريطانيا، التي شكلت المعاهدة نقطة تحول في سياستها المشرقية(٦٧)، فقررت أخذ زمام المبادرة في الأزمة المصرية والوقوف إلى جانب الباب العالي. فتقدمت بعروض لدعم السلطان وهي تعتقد أن مقدار تقربها إلى الدولة العثمانية والوقوف إلى جانبها سوف يبعد الحكومة العثمانية عن روسيا. أي بعبارة أخرى، سوف يجعل معاهدة خنكار اسكلسي عديمة الجدوى. وبين عامي ١٨٣٣ ـــ ١٨٤١ زادت بريطانيا من علاقاتها التجارية مع الدولة العثمانية (معاهدة بلطا ليمان ١٦ آب ١٨٣٨)، ومن تعاونها العسكري معها (إعادة بناء البحرية العثمانية) وكثفت من دراسة مشاريع المواصلات البرية مع الهند باستخدام السويس والفرات، وضمت عدن (١٨٣٨). وأخيراً عقدت مباحثات مع الباب العالي بشأن قيام تحالف بينهما ضد محمد علي (نيسان ١٨٣٩)(٦٨). وفي نفس الوقت (١٨٣٨) عقدت بريطانيا معاهدة مع النمسا لضمان الملاحة الحرة في نهر الدانوب وتأمين تجارتهما في البحر الأسود(٦٩). أما فرنسا فسارت سياستها في تلك المرحلة في اتجاهين: التمسك بسياسة الحفاظ على الدولة العثمانية ورفض كل ما يقلق السلطان العثماني على البوسفور، أي الوجود الروسي وآثار معاهدة خنكار اسكلسي. أما الاتجاه الثاني، فهو أنها لا تريد أن تحرم محمد علي من انتصاراته في أن يضم مصر وسوريا(٧٠).

٥ ـــ معاهدة الممرات (١٨٤١)

وبينما كان موعد انتهاء معاهدة خنكار اسكلسي يقترب (١٨٤١) كانت روسيا تدرك أكثر فأكثر أن المعاهدة لا يمكن أن تنفذ عملياً وبالتالي

لا يمكن تجديدها. فقد عارضتها دول أوروبا الكبرى وفي مقدمتها بريطانيا. كما كان التعاون البريطاني العثماني يشير في نفس الوقت إلى تحرر الباب العالي من الوصاية الروسية. ورغم أن روسيا حاولت من خلال اتفاقية تخفيض تعويضات الحرب التي تدفعها لها الحكومة العثمانية إلى النصف (٢٧ آذار ١٨٣٦) أن تستميل الباب العالي[٧١]، إلا أن الأخير سار باتجاه «الحل البريطاني» للأزمة المصرية. وكانت روسيا في الواقع بوضع اقتصادي سيء وتدرك انها لن تستطيع أن تستخدم القوة ضد الباب العالي لفرض سياستها عليه وبالتالي للمخاطرة بمجابهة مع بريطانيا. ولهذا رأى نيقولا أنه من الأفضل له أن يساير السياسة البريطانية لأن هذا قد يبعد بريطانيا عن فرنسا. وقد أتاح تعاون بريطانيا وروسيا مع غيرهما من الدول الأوروبية في حل المسألة المصرية إلى توقيع الدول الخمس العظمى لمعاهدة الممرات (١٣ تموز ١٨٤١)، التي نصت على إقفال الممرات أمام السفن الحربية الأجنبية ما دام الباب العالي في حالة سلم[٧٢]. ولكن السلطان لم يقيد نفسه بمبدأ الاغلاق إذا ما وجد نفسه مشتركاً في حرب، وأصبح من حقه في مثل هذه الحالة استدعاء اسطول «دولة صديقة». والواقع كانت معاهدة الممرات انتكاساً للسيادة العثمانية في ممارسة حقوقها المشروعة على أراضيها ومرافقها. فقد أصبح الباب العالي في وقت السلم حارساً للممرات تحت إمرة أوروبا. ولكن المعاهدة كانت في مضمونها موجهة ضد روسيا، إذ أنها ألغت الامتيازات التي حصلت عليها روسيا نتيجة معاهدة خنكار اسكلسي وحرمتها من مزاولة دور دولة متوسطية. ومع ذلك فقد أسعدت المعاهدة روسيا في أنها منعت أيضاً بريطانيا من استخدام الممرات في حالة السلم لأغراض عسكرية. وباختصار فإن معاهدة الممرات التي ظلت سارية المفعول حتى الحرب العالمية الأولى كانت ضماناً أخذته كل من روسيا وبريطانيا الواحدة ضد الأخرى وبرهاناً على الوفاق الذي جمعهما عام ١٨٣٩ ــ ١٨٤٠ في المحافظة على الامبراطورية العثمانية[٧٣].

وبعد انتهاء الأزمة المصرية نعمت الدولة العثمانية بفترة هدوء من جانب روسيا استمرت حتى ١٨٥٣، أي حتى اندلاع حرب القرم. ولكن هدوء جبهات القتال الروسية العثمانية لم يكن يعني تخلي روسيا عن خططها لتقسيم الدولة العثمانية والاستحواذ على الممرات. فالفترة الممتدة من انتهاء الأزمة المصرية حتى اشتعال حرب القرم شهدت نشاطاً روسياً دولياً لتقسيم الدولة العثمانية، ولكن بالتفاهم مع الدول الأوروبية. وهذا ما سنبحثه في الحلقة التالية. ●

الهوامش

(١) انظر:

— Winfried Baumgart: Vom Europaeischen Konzert zum Voelkerbund, Friedenschluesse und Friedenssicherung von Wien bis Versailles, Darmstadt 1974, p.23; Weltgeschiehte in Zehnbaenden.

(موسوعة «تاريخ العالم» الروسية المترجمة إلى الألمانية)

Redaktion: J.J. Sutis, Vol. V, Berlin 1966, p.220.

(٢) يعرف أدوار دريو المسألة الشرقية بأنها:

«Le problème de la ruine de la puissance politique de L'Islam» Édouard Driault: La question d'Orient depuis ses origines jusqu' a la pais sèvres (1920), Paris 1921, p.X, 1.

— ويرى سورل ويشاركه مورلي بالرأي، بأن المسألة الشرقية نشأت منذ أن ظهر العثمانيون في أوروبا وسيطروا على القسطنطينية وحكموا شعوباً مسيحية.

— Albert Sorel: La question d'Orient au XVIII siecle, le partage de la Pologne et le traité de Kainardji, Paris 1889, p 1.

— John Morely: The life of William Ewart Gladstone, Vol.I (1809 — 1859), London 1903, p.476.

— نقلاً عن زين نورالدين زين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، بيروت ١٩٧١ ص ٢٢.

(٣) زين، المرجع السابق، ص ٢٣.

(٤) Karl Marx: The Eastern Question. A Reprint Letters Written 1853 — 1856 dealing with the Events of Crimean War, London 1969, p.81.

(٥) وردت هذه العبارة في رسالة بعث بها أحد الرهبان الروس إلى الدوق باسيل الثالث، انظر:

— Derek Hopwood: The Russian presence in Syria and palestine 1843 — 1914, Church and politics in the Near East, Oxford 1969, p.2.

(٦) حسن علي: العثمانيون والروس، دمشق ١٩٨٢، ص ١١ ـ ١٢، ٤٠ ـ ٤٣.

— Fischer Weltgeschichte, Vol. XXXI, Russland, Frankfurt a.M. 1976, p.42 — 44.

(٧) راجع خيرية قاسمية: **روسية القيصرية والمشرق العربي**، في «دراسات تاريخية»، عدد ٩ و ١٠، جامعة دمشق، تشرين الأول ١٩٨٢، ص ٤٣.

— Hopwood, op.cit. p.2.

(٨) Carl Ritter von Sax: Geschichte des Machtverfalls der Tuerkei bis Ende des 19. Jahrhunderts und die phasen der «orientalischen Frage» bis auf die Gegenwart, Wien 1908, p.114.

(٩) J.A.R. Marriott: The Eastern Question. A Historical Study in the European Diplomacy, Oxford 1917, p.17.

(١٠) E.P. Mosely: Russian Diplomacy and the Opening of the Eastern Question in 1838 — 1839, London 1934, p 4.; M. Anderson: The Eastern Question, 1774 — 1923, London 1966, p.39.

(١١) Baumgart, op.cit., p.32.

(١٢) المرجع السابق، ص ٣٢.

(١٣) Ernst Werner und Walter Markov: Geschichte der Tuerkei von den Anfaengen bis zur Gegenwart, 2. ed., Berlin 1979, p.155;

ـ وقارن أيضاً، موسوعة تاريخ العلم الروسية، ج ٥ ص ٢١٤.

(١٤) لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، موسكو بت، ص ٣٢ ـ ٣٣.

—The Cambridge Modern History, the Growth of Nationalities, Vol. XI, Cambridge 1909, p 272; Baumgart, op.cit., p.32.

(١٥) Sydney Nettleton Fisher: The Middle East, A History. 2. ed. London 1971, p. 247.

(١٦) موسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٥ ص ٢١٥.

(١٧) Iwan Kirchner: Der Nahe Osten. Der Kampf um Vorderasien und Aegypten vom Mittelalter bis zur Gegenwart, Bruenn / Muenchen / Wien 1943, pp. 137 — 139.

(١٨) J.C. Hurewitz: The Middle East and North Africa in World politics A Documentary Record. Vol. I, European Expansion, 1535 — 1914, 2. ed., London 1975, p. 71; Werner und Markov, op.cit. p. 168.

(١٩) شهدت أوروبا في تلك الفترة حربين كبيرين وهما: حرب وراثة عرش النمسا واستمرت من ١٧٤٠ ـ ١٧٤٨ وحرب السبع سنوات التي استمرت من ١٧٥٦ ـ ١٧٦٣.

(٢٠) Handbuch der Europaeischen Geschichte, Edited by Theodor Schieder, Vol. 4, Europa im zeitalter des Absolutismus und der Aufklaerung, Stuttgart 1968, p. 502.

ـ (سيختصر هذا الكتاب فيما بعد بـ HB).

(٢١) Sorel, op.cit. pp. 17 — 28.

(٢٢) انظر:

— Norman E. Saul: Russian and the Meditterranean 1797 — 1807 Chicago / London 1970, pp. 6 — 8; op.cit. Vol. 4, pp. 503 — 505; Driault, op.cit., pp. 50 — 54.

ـ ولوتسكي، ص ٣٩.

(٢٣) انظر:

— Hurewitz, op.cit., p. 94F.

(٢٤) راجع:

— Hurewitz, op.cit., pp. 92 —101; Sax 107, Sorel 260f.

(٢٥) Hurewitz, p. 95, 96; Edmond Rabbat: La question d'Orient sous l'Empire Ottomane 1789 — 1919, 1. ed., Beyrouth, p. 20.

(٢٦) F. Eichmann: Die Reformen des Osmanischen Reiches mit besonderer Berueksichtigung des Verhaeltnisses der Christen des Orients zur Tuerkischen Herrschaft, Berlin 1858, p. 55, 61; Werner / Markov, p. 180.

(٢٧) انظر:

— Barbara Jelavich: petersburg and Moscow. Tsarist and Soviet Foreign policy 1814 — 1974, Bloomington / London 1974, p. 21.

— ولمزيد من المعلومات عن تينك الحربين راجع المقالتين الثالثة، والرابعة من هذه الدراسة.

(٢٨) Sax, op. cit., 108.

(٢٩) المرجع السابق، ص ١١٣.

(٣٠) Mariott, op.cit., p. 140.

(٣١) Fischer Weltgeshcihte, op.cit., Vol. XXXI, p. 195.

(٣٢) Saul, op.cit., pp. 61 — 77.

(٣٣) Barbara Jelavich: The Ottoman Empire, the Great powers, and the Straits Question 1870 — 1887, Bloomington / London 1973, p. 27.

(٣٤) HB, op.cit., Vol. IV, pp. 486 — 492.

(٣٥) انظر، عبدالرؤوف سنو: أثر الغرب الأوروبي في حركة الاصلاحات في الدولة العثمانية ١٧٨٩ ــ ١٨٣٩، أطروحة دبلوم، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٥.

(٣٦) راجع الحلقة الثانية من هذه الدراسة.

(٣٧) انظر، محمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، القاهرة، ص ١٠٤ وما بعد.

— Anderson, op.cit., pp. 48 — 49.

(٣٨) L.S. Stavrianos: The Balkan since 1453, N.Y. / London 1958, pp. 202 — 211; HB, op.cit., Vol. V, p. 997; Anderson, op.cit., pp. 49 — 50.

(٣٩) Anderson, op.cit., p. 59 — 60.

(٤٠) Sax, op.cit., p. 196.

(٤١) J. Hajjar: L'Europe et les destinées du proche — Orient (1815 — 1848) Tournai, 1970, p. 82; Stavrianos, op.cit., p. 287.

(٤٢) G. Rosen: Geschichte der Tuerkei von dem Siege der im Jahre 1826 bis zum pariser Tractat vom Jahre 1856, Vol. I, Von der Vertilgung der Janitscharen bis zum Tode Mahmuds II., Leipzig 1866, p. 25; G.D. Clayton: Britain and the Eastern Question: Missolonghi to Gallipoli, London 1971, 45.

(٤٣) Clayton, p. 42f., 45 — 47.

(٤٤) Stavrianos, p. 288; Sax, p. 207; HB, Vol. 5, p. 999.

(٤٥) نقلاً عن حجار:

— Hajjar, op.cit., p. 79.

(٤٦) Sax, p. 207f.

(٤٧) Rosen, op.cit., Vol. I, p. 30f.

(٤٨) Howard Reed: *«The Destruction of the Janissaries in 1826»*. A Microfilm of ph.D. Dissertation, princeton 1951, deposited by the AUB.

(٤٩) انظر:

— Driault, p. 121; Stavrianos, p. 288f.; HB, V, p. 999.

— والدسوقي، ص ١٤٧.

(٥٠) Stavrianos, p. 289; Vernon John puryear: France and the Levant. From the Bourbon Restoration to the peace of Kutiah, California, pp. 49 — 51.

— وموسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٦ ص ٢٩٦.

(٥١) كانت النمسا هي الدولة الأوروبية الوحيدة التي قدمت للدولة العثمانية مساعدات مادية في حربها ضد روسيا، في حين وقفت بريطانيا وفرنسا على الحياد. انظر موسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٦ ص ٢٩٦.

(٥٢) انظر الحلقة الثانية من هذه الدراسة.

(٥٣) Edward S. Creasy: History of the ottoman Turks: From the Beginning of their Empire to the present Time, London 1878, reprint Beirut 1961, p. 519f.

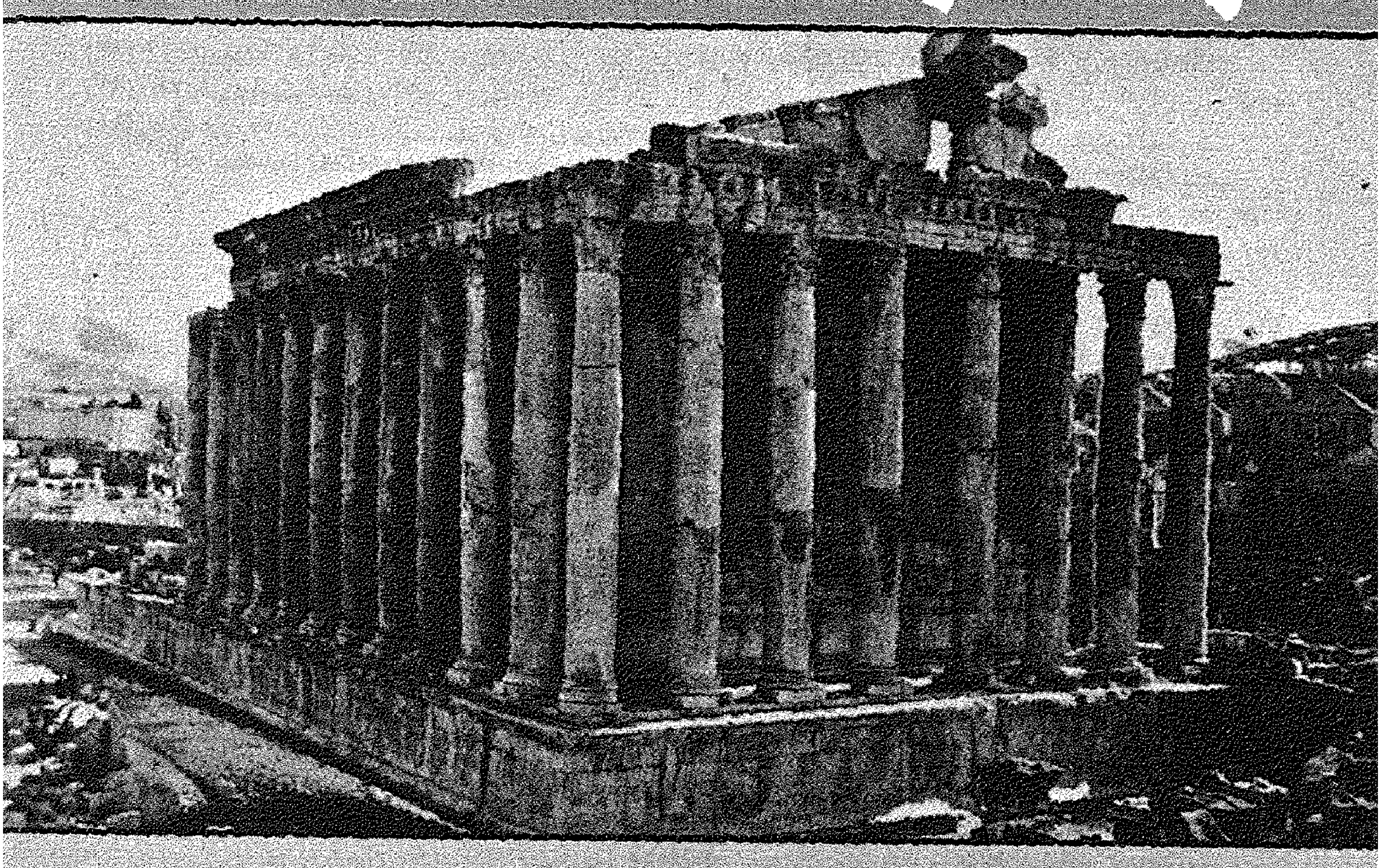
(٥٤) موسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٦ ص ٣٠٢.

(٥٥) راجع بيير نوفان: تاريخ العلاقات الدولية (القرن التاسع عشر ١٨١٥ ــ ١٩١٤)، تعريب جلال يحيى، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٣٢.

(٥٦) Mosely, op.cit., p. 7.
(٥٧) Hajjar, op.cit., p. 73.
(٥٨) Clayton, op.cit., 65; Hajjar, pp. 111 — 119; Henry Dodwell: The Founder of Modern Egypt. Study of Muhammad Ali, Cambridge 1931, reprinted 1967, p. 112; puryear, France, op.cit., p. 154.
(٥٩) Anderson, op.cit., pp. 81ff; Dodwell, 115ff., Driault 141f., Hajjar, 118.
(٦٠) موسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٦ ص ٣٠٢.
— Anderson, pp. 81 — 83; Driault 143; Hajjar 119f.
(٦١) Hurewitz, op.cit., 252f.;
— طبقاً لموسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٦ ص ٣٠٢، فإن الممرات كانت ستكون مفتوحة أمام السفن الحربية الروسية في كل الأوقات.
(٦٢) Anderson, p. 90; Hurewitz p. 252; Driault p. 143.
(٦٣) نقلاً عن لوتسكي، ص ١٣٠.
(٦٤) نقلاً عن:
— Phillipson & Buxton: The Question of the Bosphorus and the Dardanelles, London 1917, pp. 66 — 67.
(٦٥) Rosen, op.cit., Vol. I, pp. 207 — 209.
(٦٦) Hurewitz, op.cit., pp. 254 — 255.
(٦٧) Clayton, p. 68f.
(٦٨) Hurewitz, pp. 265 — 266; Hajjar 142ff., 154ff; Driault 144; Clayton, 78; Rabbat, op.cit., pp. 71 — 72.
(٦٩) Driault, p. 144.
(٧٠) Puryear, France, op.cit., p. 154, 183, 196f.; Hajjar 180f.
(٧١) Rosen, op.cit., Vol. I, p. 239, 243 — 252.
(٧٢) انظر نص المعاهدة لدى:
— Hurewitz, p. 279.
— وقارن عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج ١، القاهرة ١٩٨٠، ص ٢٢٢ — ٢٢٤.
(٧٣) انظر بيير نوفان، ص ١٤٠ — ١٤١.
— Aderson, pp. 106 — 107.
— موسوعة تاريخ العالم الروسية، ج ٦ ص ٣٠٤.



بعلبك في العهد الأيوبي

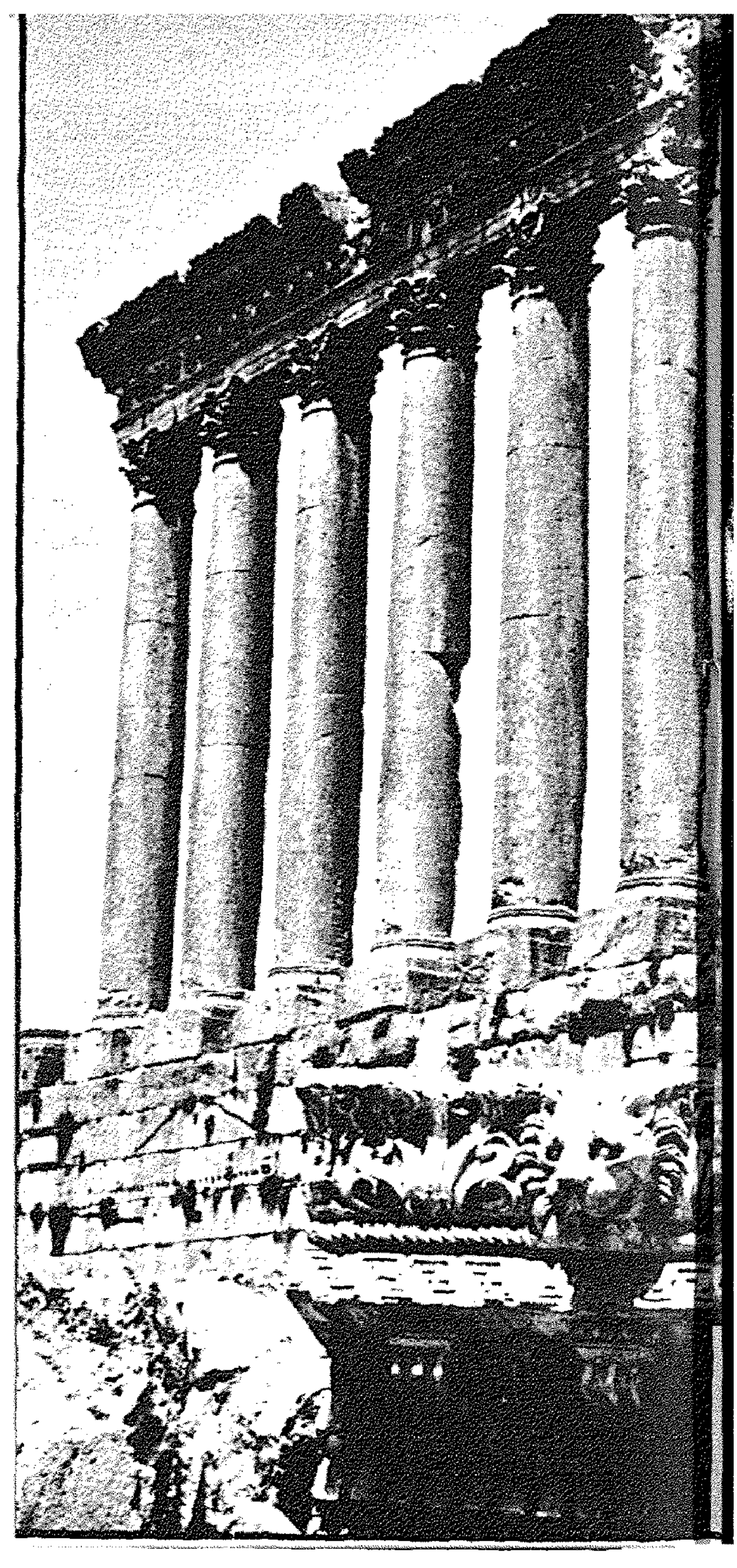


الحياة السياسية والثقافية

د. حسن نصرالله

حكاية الايوبيين مع بعلبك بدأت في غُرّة محرم سنة ٥٣٤هـ/ ١١٤٠ عندما فتحها الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آقاسنقر، واقطع ثلثها لنجم الدين ايوب[١]، وولاه دزداراً عليها[٢]. وتذكر المصادر أن بعض ابناء ايوب واحفاده ولدوا في بعلبك، ونشأوا في ربوعها، واحبوا سكناها، منهم شاهنشاه بن أيوب الذي ولد سنة ٥٣٤هـ/ ١١٤٠م[٣] وبعده شقيقه العادل سيف الدين ابو بكر بن أيوب الذي ولد في بعلبك سنة ٥٤٢هـ/١١٤٨م[٤]. اما صلاح الدين فقد تربُّى فيها، وكان له من العمر سنتان عندما تسلمها والده[٥]، وأقام في بعلبك نحواً من اثنتي عشر سنة (٥٣٤ ــ ٥٤٦هـ)[٦].

دخل نجم الدين أيوب بن شادي بعلبك مع جيش الأتابك زنكي وكان دخوله مقدم خير لأنه أنقذ من القتل والصلب جملة من أمراء المدينة، غدر بهم زنكي، وشفع لهم أيوب، الذي أقام في بعلبك



يحفظها من غارات الصليبيين، ويردع أطماع البوريين الطامحين إلى استعادتها. ففي سنة ٥٣٧هـ/١١٤٣م قصدت فرقة من الفرنج ناحية بعلبك للعبث والتخريب والسلب، فتصدّى نجم الدين للمهاجمين، وقتل أكثرهم، وشرّدهم وعاد إلى بعلبك منتصراً. وظلّ نجم الدين يترأس مسؤولية المدينة بما فيها متسلمية القلعة حتى مقتل عماد الدين زنكي، يوم انتهز الفرصة صاحب دمشق، مجير الدين أرتق بن محمد بن بوري وحاصر بعلبك سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م[٧]. فدافع عنها نجم الدين أيوب، وطال الحصار، وطلب النجدة من أولاد زنكي. ولما تباطأ هؤلاء في رفده بالعسكر، وصدف أن غار الماء في بئر القلعة، طلب نجم الدين الأمان والصلح، وسلّم بعلبك إلى مجير الدين، فاستخلفه هذا على المدينة وأقرَّ له الثلث الذي وهبه إياه زنكي من قبل. لكن صاحب دمشق عزل نجم الدين عن متسلميّة القلعة وولى عليها الحاجب شجاع الدولة. ومما يؤكد بقاء نجم الدين في بعلبك أيام البوريين، وما ظل يتمتع به من قوة ونفوذ، ما رواه أبو شامة في حوادث سنة ٥٤٦هـ/١١٥٢م إذ شنّ الفرنج غارة على البقاع فغنموا أموالاً كثيرة، وأخذوا بعض الأسرى. وصدف وجود فرقة من عسكر دمشق في بعلبك عند نجم الدين أيوب، فضمَّ إليهم جماعة من أصحابه، وأمَّر عليهم ولده شمس الدين، فخرجوا يطاردون الغزاة، واتفق أن سقط ثلج كثيف، فتورط فيه الفرنج، وأدركهم شمس الدولة بجنوده فقتل معظمهم، وخلّص الأسرى[٨].

وفي عام ٥٤٩هـ/١١٥٥م قضى نورالدين محمود بن زنكي على سلطة البوريين في دمشق ثم توجه إلى بعلبك وكان على قلعتها الأمير ضحاك بن خليل رئيس وادي التيم، وعلى المدينة نجم الدين أيوب. وصل إلى بعلبك ولم يجرؤ على محاصرتها خوفاً من حركة التفاف صليبية حوله، وللمقاومة العنيدة التي أبداها ضحاك البقاعي. سعى نورالدين سلمياً إلى دخول بعلبك فاتصل بنجم الدين ووعده باقطاعات في دمشق. فسهل تسليم بعلبك وتم ذلك عام ٥٥٢هـ/١١٥٨م[٩]. وتضطرب الروايات في مصير نجم الدين بين بقائه في بعلبك أو تسلمه نظر دمشق بوساطة أخيه أسد الدين شيركوه. لكن الواضح من الأخبار أن نجم الدين تردّد بين بعلبك ودمشق وظل كذلك حتى سنة ٥٦٥هـ/١١٧١م، عندما تمكن ولده صلاح الدين يوسف بن أيوب من فتح مصر. فأرسل إلى نورالدين محمود يستأذنه في ضمّ والده إليه فحقق طلبه في مطلع سنة ٥٦٥هـ[١٠].

هذه الحقبة التي تخطّت الثلاثين سنة (٥٣٤ ــ ٥٦٥هـ) تسلّم فيها نجم الدين بعلبك لصالح الزنكيين والبوريين. وكانت مقدّمة لعهد أيوبي، أولاه عناية حسنة، ومنحها مركزاً مرموقاً،

فارتفعت إلى رتبة مملكة، إذ استبدلت حكم الولاة العاديين بحكم الأمراء والملوك من الأسرة المتسلطنة. وبذلك حققت استقلالية عن دمشق في الأمور الادارية والمالية، وغدا ملكها حليفاً لأشقائه أو أعمامه في دمشق. وقد يتدخّل في شؤونهم فيساعد أحدهم ضدَّ الآخر، وقد يقود جيش بعلبك ليدخل دمشق ويجلس على كرسي الملك فيها.

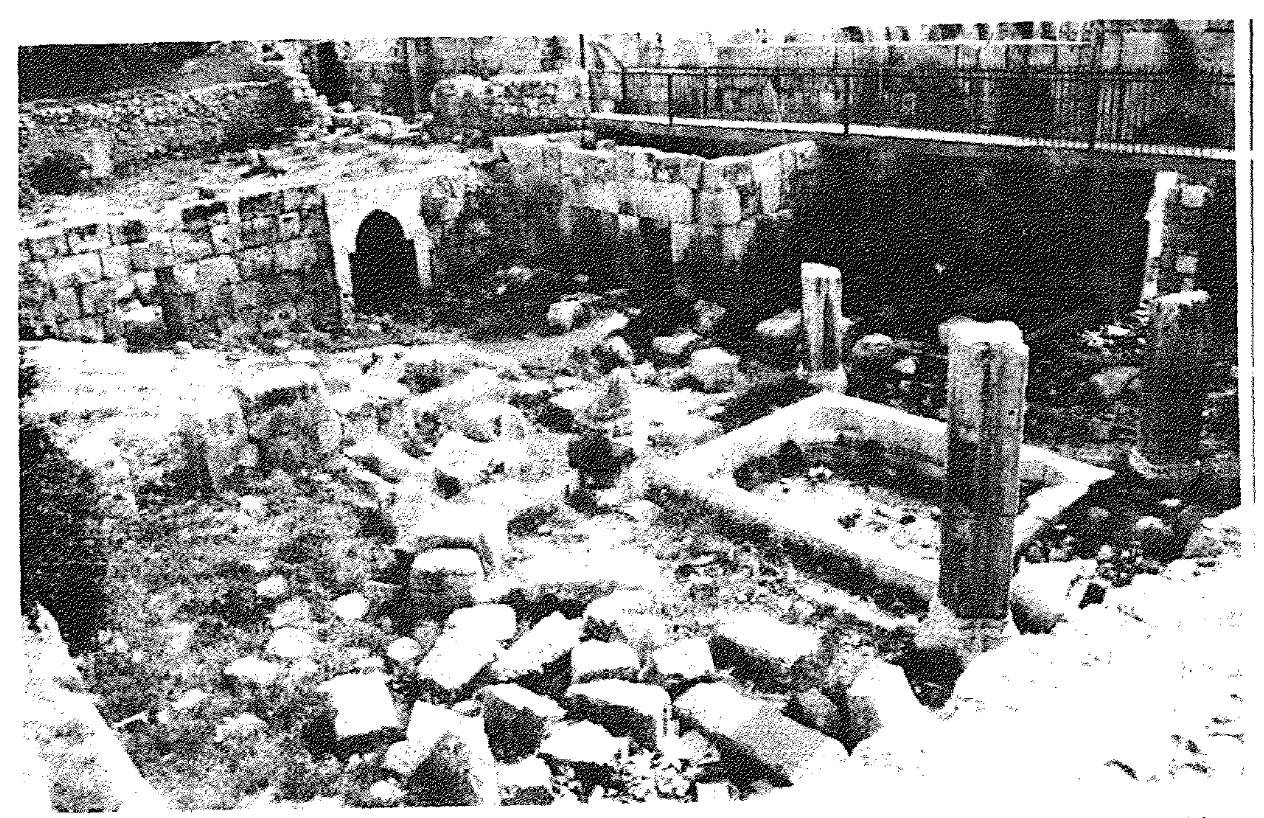
بدأت مرحلة الحكم الأيوبي المباشر مع صلاح الدين، الذي غزا بلاد الشام بعد وفاة نورالدين محمود بن زنكي واحتل دمشق وحماه وحمص، وقصد بعلبك موطن صباه فبلغها في شعبان سنة ٥٧٠هـ[١١]، ولكنها أقفلت أبوابها في وجهه فحاصرها وعليها يُمن الريحاني (الخادم) الذي تولّاها منذ أيام نورالدين. تحصّن (يُمن) في قلعتها وراسل عامل حلب الأتابكي بواسطة الحمام الزاجل طالباً النجدة فلم يرجع منه خبر، وصبر على الحصار بلا جدوى. مسلّم يمن الريحاني بعلبك بالأمان في الرابع من شهر رمضان سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م[١٢]. دخلها صلاح الدين وسط مظاهر الأبهة، فهنأه الشعراء ومنهم العماد الكاتب الذي قال:

بفتوح عصرِكَ يَفْخَرُ الاسلامُ
وبنورِ نَصْرِكَ تُشْرِقُ الأيامُ
وبفتحِ قلعةِ بعلبك تهذَّبَتْ
هذي الممالكُ واستقام الشامُ
وبكى الحسودُ دماً وثغرُ الثغر من
فرح بنصرك للهدى بسّامُ
فتحٌ تسنّى في الصيام كأنّنا
شكراً لما منحَ الالهُ صيامُ
مَنْ ذا رأى في الصوم عيد سعادةٍ
حلّت لنا، والفطرُ فيه حرام
أسدى صلاحُ الدين والدنيا يداً
بنوالها سوق الرجاءِ تقامُ
فثمل فتحك، واقصد الفتح الذي
بحصوله لفتوحك الاتمام
دُمْ للعلى حتى يدوم نظامها
واسلمْ يُعَزُّ بنصرك الاسلامُ

اقام صلاح الدين اياماً في بعلبك، يدبّر شؤونها، ويتجوّل بين معالمها وكان قد غادرها سنة ٥٤٦هـ عندما فارق والده إلى خدمة عمه أسد الدين شيركوه في حلب في هذه الأثناء وردته أخبار تقدم الصليبيين إلى حمص. فخلّف بعلبك بعد أن ولى عليها الأمير شمس الدين محمد بن عبدالملك المقدّم، جزاء له على تسليمه دمشق[١٣]. جهد ابن المقدم في حماية المدينة، ففي سنة ٥٧٢هـ/١١٧٧م اغار ريموند دي أمير طرابلس على بعلبك فعاث فسادا في بقاعها، فخرج إليه ابن المقدم وفرق جيشه وقتل عدداً وأسر اكثر من مايتي جندي، أرسلهم إلى صلاح الدين وهو على حصار مصياف في بلاد الاسماعيلية[١٤].

وبعد عام انقضَّ بغدوين الرابع ملك القدس على بعلبك فتصدى له ابن المقدم ولم يمكنه من دخول المدينة. وظل ابن المقدم والياً لبعلبك حتى عام ٥٧٤هـ/١١٧٩م، عندما طلبها شمس الدولة توران شاه (ملك الشرق) بن أيوب الذي نشأ في بعلبك يوم ولاية والده عليها — وأحبها كثيراً. لكن ابن المقدم تمنع ورفض طلبه فاستدعاه صلاح الدين إلى دمشق فاعتذر خوفاً من سعاية توران شاه فخرج صلاح الدين بجيشه من دمشق وحاصر بعلبك وطال الحصار تسعة أشهر، ولم يتمكن من دخولها. فجنح إلى المفاوضات، وتم الاتفاق مع ابن المقدم على تسليم بعلبك مقابل: تازين وكفرطاب[١٥].

وكان توران شاه مستهتراً سيء السيرة لذلك أعلن سكان المدينة العصيان بوجهه ورفضوا التعامل معه لسوء تصرفاته ومظالمه وتجاوزاته، وابتزازه أموال الرعية. وأمام هذا التمرد تنازل توران شاه عن بعلبك في شهر ذي القعدة سنة ٥٧٥هـ[١٦] وعوضه عنها شقيقه صلاح الدين بالاسكندرية وسلم بعلبك لابن أخيه فرّخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب. فسار إليها ورتب أمورها وجمع رجالها وأغاربهم على بلاد الفرنج فبلغ صفد وقتل وأسر وسبى وعاد إلى بعلبك بغنائمه[١٧]. بلاط فرخ شاه: أحدث فرخ شاه نهضة عمرانية وأدبية في بعلبك، لأنه قدمها مع كوكبة شعراء وعلماء وكان حصيف الرأي، شاعراً فاستنابه صلاح الدين على دمشق لما قصد القاهرة سنة ٥٧٧هـ[١٨]. ومن شعره ما انشده بحضرة السلطان ورواه العماد الكاتب:



□ أطلال المدرسة النورية في بعلبك شيدت حوالي ٥٥٢هـ.

إذا شئت أن تعطي الأمور حقوقها
وتوقع حكم العدل أحسن موقعه
فلا تضع المعروف مع غير أهله
فظلمك وضعُ الشيء في غير موضعه(١٩)

ومن الشعراء الذين اختصوا به العماد الكاتب صاحب الخريدة الذي مدحه بقوله:

قد قلت للحادي وقد ناديته
في مهمة أقصر، وصلت مه مه
حتام جذبك للزمام فأرخه
فلقد أنخت إلى ذرى فرخشه
متكرم بالطبع لا متكره
شتان بين تكرم وتكره(٢٠)

وعارض أبو اليمن الكندي الذي لازم فرخ شاه هذه القصيدة بمنظومة بلغت تسعة وأربعين بيتاً منها:

انا عبد من شهد الزمان بعجزه
عن أن يجيء له بند شبه
عبد لعزالدين للشرف الذي
ذُل الملوك لعز عبد فرخشه

حقاً غص فناؤه بالشعراء والكتاب والأطباء ومنهم الطبيب السامري مهذب الدين يوسف بن أبي سعيد المتوفى سنة ٦٢٤هـ، طبيب فرخ شاه الخاص ثم خدم ابنه الأمجد ووزرله(٢١).

ظل فرخ شاه يملك بعلبك وينوب في دمشق حتى وفاته في جمادى الأولى سنة ٥٧٨هـ ــ ١١٨٢م ولما بلغ السلطان خبره، وهو ببلاد الجزرية، فأبقى بعلبك على ولده الأمجد بهرام شاه، وأرسل ابن المقدم إلى نيابة دمشق(٢٢). الأمجد بهرام شاه ملك بعلبك (٥٧٨هـ ــ ٦٢٧) (١١٨٢ ــ ١٢٣١). عزز الأمجد بعلبك فضم إليها البقاعين الشمالي والجنوبي(٢٣) وتلقب بالملك، واتخذ الوزراء والحجاب. واحتفظ بالمدينة عندما قسمت أملاك صلاح الدين بعد وفاته سنة ٥٨٩هـ ــ ١١٩٣م. وامتد حكمه تسعة وأربعين عاماً، شهدت بعلبك خلالها حركة عمرانية وأدبية وعلمية كادت تكون أفضل حقبها الاسلامية. منذ أن تسلم بعلبك بادر يعد جيشاً ويدربه تحسباً لشدائد الدهر جمع فيه الأتراك (والأكاديش) فاشتهر أمره، وانتقل من دور الدفاع إلى تحركات الهجوم. لقد كبح جماح غارات الصليبيين ولاحقهم إلى معاقلهم. وكثرت

تحركاته، ففي سنة ٥٨٦هـ قاد جيشه المؤلف من الترك والأكاديش لمناصرة عمه صلاح الدين في الدفاع عن برج (الذبان) وتم لهما النصر في الخامس عشر من شهر رمضان سنة ٥٨٦هـ ـ ١١٩٠م عندما حطم المسلمون الأبراج الحربية التي صنعها الصليبيون لمداهمة الحصن[٢٤]. وفي عام ٥٨٧هـ ـ ١١٩١م توجه بهرام شاه بعسكره لمساندة عمه صلاح الدين في الدفاع عن عكا التي حاصرها الفرنج سبعة أشهر وظل يجاهد إلى جانب أمراء البلاد الاسلامية حتى طردوا الأعداء إلى عسقلان[٢٥]. وبعد وفاة صلاح الدين ٥٨٩هـ انتهز الفرصة عزالدين اتابك مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل، وأخوه عمادالدين بن مودود صاحب نصيبين وخرجا يطلبان حلب وحماه. فأسرع بهرام شاه وضم جيشه إلى جيش عمه الملك العادل سيف الدين وهزما ولدي زنكي[٢٦]. وفي العام نفسه اتفق الأمجد مع عمه الملك العادل وناصرا الملك الأفضل علي صاحب دمشق، واكبر أولاد صلاح الدين، ضد أخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر فانتصروا عليه وأعادوه إلى مصر وكان طامعاً ببلاد الشام[٢٧]. وظل الأمجد وفياً لعمه الأفضل في حين مال عمه العادل أبو بكر إلى العزيز عثمان وتآمرا على الأفضل علي وانتزعا منه دمشق سنة ٥٩٢هـ.

والخليفة يومئذ ببغداد الناصر لدين الله، وكان يميل إلى التشيع، فكتب إليه الأفضل علي يتجيشه على أخيه العزيز عثمان وعمه العادل أبي بكر، من شعره:

مـولاي! إن أبـا بـكـر وصـاحـبـه
عثمان قد غصبا بالسيف حق علي
فـانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي
مـن الأواخـر مـا لاقـى مـن الأول!

فكتب إليه الناصر لدين الله في جوابه:

وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً
بـالود يـخـبـر أن أصلك طاهر
غصبوا علياً حقه إذ لم يكن له
بعد النبي بيثرب ناصر
فـاصبر فـإن غداً عليه حسابهم
وابشر فناصرك الامام الناصر[٢٨]

وفي عام ٥٩٤هـ ـ ١١٩٨م شارك بهرام شاه في صد غارة الفرنج على حصن تبنين[٢٩] وفي العام نفسه نهض الأمجد يرافق الملك العادل، وشيركوه صاحب حمص، وعزالدين بن المقدم إلى (هوس) لمنازلة الفرنج. قال ابن الجوزي: ولو تأخروا يوماً لأخذ حصن (بسن)[٣٠] ووقف الأمجد نفسه للدفاع عن أرض المسلمين فحارب الافرنج في حصن الأكراد وطرابلس بالاشتراك مع الملك المنصور سنة ٥٩٨هـ ـ ١٢٠١م. وفي العام التالي تقدم الملك المنصور صاحب حماه بعساكره إلى بصرين فنزل قلعتها مرابطاً لفرنج الساحل وطلب النجدة من الملك العادل صاحب دمشق، فتقدم الملك العادل إلى الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك وإلى المجاهد صاحب حمص بنجدته، ففعلا وخاضوا جميعاً معركة انتصروا فيها وأسروا عدداً من الفرنج[٣١] وفي سنة ٦٠٣هـ وصلت الأراجيف بأن الفرنج من طرابلس وحصن الأكراد جهزوا لغزو حمص فكتب الملك العادل إلى أهل بيته ومنهم الأمجد صاحب بعلبك للتعاون، فلحقوا به ونزلوا على بحيرة قدس (حمص) ثم هاجموا طرابلس وضيقوا عليها واحتلوا القليعات[٣٢] وخربوها وطاحونة أغناز[٣٣] مما حمل صاحب طرابلس على طلب الصلح ودفع الغرامة فآبوا إلى ديارهم منصورين.

وفي رواية ابن نظيف الحموي: إن الأمجد لم يدخل الساحل مع الملك العادل لأن أهل بعلبك وثبوا على نائب الأمجد ـ الذي خلفه على المدينة ـ وقتلوه فأسرع الأمجد بتدبير من العادل[٣٤] ودخل المدينة وقضى على دابر الفتنة. وفي سنة ٦٠٥هـ عزم الملك العادل على جمع الجيوش الموالية لمهاجمة بلاد الكرج فاحتشد الملوك إليه: وصله الملك المنصور صاحب حماه والمجاهد صاحب حمص والأمجد صاحب بعلبك والصالح صاحب آمد... فنزلوا على حرزم من ماردين[٣٥]. ثم قصدوا سنجار وحاصروها وقطعوا أشجارها واحتلوا الخابور، ووزع العادل الغنائم ومنها أرض الخابور على الملوك فنال الأمجد نصيبه[٣٦]. وفي العام التالي شارك الأمجد في الاستيلاء على سنجار[٣٧]. ومن

تحركاته مسيره سنة ٦١٨هـ لمساعدة الكامل يعضده بقية الأيوبيين لدرء خطر الفرنجة عن دمياط وكان الكامل لضعفه عرض للفرنج تسليم القدس وعسقلان وطبريا واللاذقية وجبلة، ولما تم النصر للمسلمين نقضوا صلح الكامل[٣٨]، فسوَّد النصارى في بعلبك وجوه الصور في كنيستهم حزناً على ما حل بالصليبيين. ولما آب الأمجد إلى بعلبك وعلم بتعاطفهم مع الفرنج أمر اليهود بصفعهم[٣٩]. وكان الأمجد لا يتوانى عن واجبات القرابة وصلة الرحم والزيارات الدبلوماسية، من أجل ذلك قصد دمشق سنة ٦٢٣هـ وهنأ الملك المعظم بالشفاء من مرضه. وكتب مهر ابنته على الملك[٤٠] المغيث بن العادل بحضور قضاة الممالك[٤١]. وفي هذه السنة على الأرجح تمَّت نكبة السَّمرة في بعلبك، لأنهم استبدوا بشؤون المدينة حتى ضجَّ الناس من استئثارهم بمصالحها وتقديم الأمجد لهم ولكن نكبتهم لم تسكت الناقمين. ومما أطمع الملوك الأيوبيين بالأمجد وفاةُ صاحب دمشق الملك المعظم عيسى بن العادل سنة ٦٢٤هـ[٤٢]، لأن المعظَّم ـ بشهادة سبط ابن الجوزي العينية ـ كان يحب الأمجد ويحترمه ويقبِّل يده[٤٣]. وبتنا نسمع لأول مرَّة شعارات عنيفة ضد الأمجد، هذا ما أكده ابن نظيف إذ قال: «في سنة ٦٢٥هـ هاجم الملك العزيز بن العادل بعلبك طامعاً بمخامرة من أهلها لكراهيتهم في الملك الأمجد صاحبهم، لظلمه، وعسفه لهم وفسقه وجوره، فلما علم بهم قتل من بلده جماعة بسبب ذلك»[٤٤] وهذه المخامرة ضد الأمجد شارك فيها ابنه الذي كتب إلى العزيز يقول: «قد نشرت باب السرّ، فسِرْ إلينا وقت السحر» وكان العزيز بالصبيبة[٤٥]، فساق منها أول الليل، والمسافة بعيدة فأدرك بعلبك والشمس قد أشرقت، ففات الفرض، وعسكر مقابل المدينة. فبعث الأمجد إلى الناصر داود صاحب دمشق يلتمس منه ترحيل العزيز. فأرسل جيشاً نفَّره عن حصون بعلبك قسراً. وتوجه العزيز إلى بانياس ومنها إلى القدس لملاقاة أخيه السلطان الكامل. ولما علم الأمجد بما فعل ولده ووقف على نشر الباب، قتله وقيل خنقه، وقيل بني عليه بنياناً، وانتقم من بعض سكان المدينة الذين شاركوا في المؤامرة[٤٦]. وكان صاحب حمص ساند العزيز ضد الأمجد، فحدثت نفرة بين الرجلين. فأرسل صاحب دمشق أحد أمرائه ابن قاسم الدين وأصلح بين الأمجد وشيركوه صاحب حمص[٤٧]. وكان العزيز قد حسَّن لأخيه الكامل فتح دمشق وعرض مساعدته: فأجازه الكامل بعطايا جزيلة، وكتب له خطاً ببعلبك لابنه، وزيادة له (خبرا). عندها غضب الأمجد بهرام شاه وجهز جيشه، وقصد (هونين) بلد العزيز ونهبها. فلما بلغ الكامل ذلك أمر بنهب (دمشق) بلد الناصر[٤٨]. وفي العام التالي تقدَّم الأشرف موسى وحاصر دمشق، فخضع الناصر لشروط المحاصرين فتنازل عن دمشق، وتخلى عن مساعدة الأمجد صاحب بعلبك ورضي بتقريرهما على الأشرف موسى، وبتسليم الجزيرة للملك الكامل، وانتقل الملك الناصر صاحب دمشق وحليف بهرام الشاه إلى الكرك[٤٩]. ولما خلا الجو لأعداء الأمجد أعدوا جيشاً لمداهمة بعلبك فوصلها العزيز عثمان بمن معه من العساكر التي كانت تحاصر حماه[٥٠] فصدَّهم الأمجد. وتراجع العزيز أمام أسوار المدينة لكن النجدات توالت فقدم أخوه الصالح اسماعيل، ثم شيركوه صاحب حمص. وانقضت سنة ٦٢٦هـ والجيوش أمام أسوار بعلبك تضربها بالمجانيق التي ترمي عشوائياً فأصابت بيت الماء الذي للأشرف قريباً من الشيخ عبدالله اليونيني، فغضب الأشرف، وضرب الفراشين، وطردهم. وضرب خيمته ناحيته[٥١]، وظل الحصار حتى العشر الأخير من ربيع الثاني سنة ٦٢٧هـ. وعندما بدأت المفاوضات قادها من جانب الأمجد ابنه صفي الدين مرزوق، وتمت في خيمة الأشرف موسى على رابية الشيخ عبدالله[٥٢] وانتهت بتسلّم الأشرف موسى بعلبك وعوض الأمجد بالزبداني وقصير دمشق[٥٣].

وفاته

ظل الأمجد يمتلك بعلبك تسعة وأربعين سنة تلفُّه طمأنينة ويسعفه إقبال سعد، حتى خشي ملوك الأيوبيين طموحاته وتطلعاته إلى حكم دمشق والتسلطن وهو الذي تدخل أكثر من مرَّة في شؤون السلطنة، ناصر الأفضل علي سلطان

دمشق ضد أخيه العزيز عثمان سلطان مصر. وسار بركاب الملك العادل والد الأشرف موسى لقهر الملك العزيز وردّه إلى مصر. وظاهر صاحب دمشق على صاحب حمص شيركوه... أعمال طموحة أثارت مخاوف أبناء عمومته وأحقادهم، فحاصروه تسعة أشهر وأخرجوه من بعلبك سنة ٦٢٧هـ. فرحل إلى دمشق وأقام بداره المعروفة «بدار السعادة». وكأن نهاية حكمه في بعلبك كتبت نهاية حياته. إذ اغتاله أحد مماليكه في دمشق سنة ٦٢٨هـ. وروى سبط ابن الجوزي قصّة مصرعه قال: «سرقت له حياصة ودواة تساوي مايتي دينار، سرقها أحد مماليكه، وأخفاها عند بعض المماليك. فحبسه في خزانة في دار فرخشاه، وهدد المملوك بقطع اليد والصّلب، فلما كانت ليلة الأربعاء ثاني عشر شوال جلس على عادته أمام باب الخزانة، وعنده عباس ابن أخي الشريف إلبها الكاتب، وابن فهيد اليهودي، وبيده الاسطرلاب ليأخذ له طالع الوقت. وكان يلعب مع العباس (بالنرد). فقال له ابن فهيد يا مولانا انظر إليَّ فهذه ساعة سعيدة لو أردت أخذ دمشق أخذتها. فقال له لا تكلمني فقد تعيَّن لي الغلب. وعالج المملوك رزّة الباب بسكين كانت معه، وقلع الرزّة وخرج. وأخذ سيف الأمجد وضربه، فقطع يده، ثم طعنه في خاصرته، ثم انهزم فصعد السطح ورمى بنفسه فمات، وقطعه الغلمان»(٥٤) ودفن في تربة أبيه على الشرف الشمالي وقيل رآه في المنام بعض أصحابه بعيد وفاته بقليل فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال:

كنت من ذنبي على وجل
زال عني ذلك الوجَلُ
أمنت نفسي بوائقها
عشتُ لما متُ يا رجلُ(٥٥)

أعماله العمرانية

كان الأمجد محباً للعمران مولعاً بالتحصينات العسكرية. لقد بنى قصراً فخماً اتخذه مقراً لمملكته، واتسع لزواره ومدّاحيه، وذكره الشعراء في قصائدهم الأمجديّة. واندثرت آثاره مع الزمن، ولم نتمكن من تحديد موضعه. وفي سنة ٦٠٠هـ ضربت هزة بعلبك وصدّعت منازلها وهدمت قسماً من سورها، فشمَّر الأمجد لتعمير ما تهدم من تحصيناتها. ومن آثاره الباقية إلى يومنا المسجد الذي بناه على تلة الشيخ عبدالله سنة ٥٩٦هـ. شاده زاوية للشيخ عبدالله اليونيني المتوفى سنة ٦١٧هـ. وما زالت قبته تعرف إلى الآن «بقبّة الأمجد». وعليها كتابة هي: «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر. أمر بعمارة هذا المسجد المبارك الأمير الكبير صارم الدين أبو سعيد خطلخ بن عبدالله المعري الملكي الأمجدي. ضاعف الله له الثواب وغفر له يوم الحساب في سنة ست وتسعين وخمسماية».

وشيد بهرام شاه برجين في قلعة بعلبك، وزوّدهما بمرامي السهام. أولهما في الركن الجنوبي الغربي للقلعة بناه سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م وعليه كتابة عربية قائمة حتى عصرنا وهي «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر بعمله مولانا السلطان الملك الأمجد العالم العادل مجد الدنيا والدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب. عضد أمير المؤمنين أعز الله سلطانه وشدّ بالنصر شأنه سنة احدى عشرة وستماية بولاية الأمير تقي الدين بن عبدالله الملكي الأمجدي».

والبرج الثاني بناه في الركن الشمالي الغربي من القلعة سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٤م — برج باب الهواء حالياً — وعليه كتابة أيضا تشبه الكتابه السابقة لكن لا ذكر فيها للأمير الوالي(٥٦). وبشكل عام قوّى بهرام شاه جبهة البرج الغربي ليرد عن المدينة غارات الصليبيين وأطماع الطامعين.

بلاط الأمجد

ثلاث وخمسون سنة قضاها الأمجد في بعلبك(٥٧). حقبة أمكنته من خدمة الأدب والعلم. ولما كان الأمجد شاعراً فقد حوَّل قصره في المدينة إلى بلاط يرتاده الشعراء والفقهاء والكتّاب والأطبّاء. بدأت حياته الشعرية أيام والده الذي وفّر للأمجد المربين والأساتذة الكبار. من أساتذته العالم والفقيه واللغوي والشاعر تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي(٥٨). كان أبو اليمن من خواص فرخشاه رافقه في رحلاته إلى مصر والشام، وانقطع إليه في بعلبك ومدحه. وتخرَّج عليه الأمجد في اللغة والشعر والحديث، وعنه أخذ بعض الفقهاء البعلبكيين(٥٩). وتردد الأمجد على زاوية الشيخ عبدالله اليونيني

المتوفى سنة ٦١٧هـ. وكان فقيهاً متصوفاً، يرشد الأمجد ويعظه، ويغلظ له القول إن ظلم أو حاد عن الحق. ولم يؤثر عن الأمجد أنه لبس منه الخرقة تبركاً، مثلما فعل بعض الملوك الأيوبيين. ثم تخرج الأمجد في الشعر على والده لأن فرخشاه كان شاعراً رقيق المعاني[٦٠].

وكان مهذب الدين أبو الحسن علي ابن النقاش الحلبي أول من اتصل بالأمجد ومدحه[٦١]، لأن ابن النقاش توفي سنة ٥٧٤هـ[٦٢] أي قبل أن يتولى الأمجد ملك بعلبك. وهذا يؤكد احتفاء الأمجد بالشعر والشعراء منذ سن مبكرة.

أما الذين عاشوا في بلاط الأمجد فأشهرهم أستاذه تاج الدين أبو اليمن الذي كان يتنقل بين بعلبك ودمشق. وكان يقضي الشتاء في سفح قاسيون يدرّس ويتزهد. ومن هناك كان يشتاق إلى جلسات الأدب، وحلقات الشعر والسمر في بلاط الأمجد حتى تمنّى أبو اليمن لو هادنه الدهر، وقضى أيامه في كنف ملك كثرت عطاياه وقضى نحبه في أفناء قصر غلب عليه عبق الشعر. لنقرأ هذه المقطوعة وقد أرسلها تاج الدين أبو اليمن من دمشق إلى الأمجد ونشتم منها علاقة حميمة بين الأستاذ وتلميذه:

لا تضجرنكم كتبي إذا كثرت ... فإن شوقي أضعافُ الذي فيها[٦٣]
والله لو ملكت كفي مهادنةً ... من الليالي التي حظي يحاكيها
لما تصرّم في غير داركم ... عمر ولا مت إلاّ في نواحيها
عدوا احتمالكم لي حين أضجركم ... من الصلات التي منكم أرجيها

فأجابه الأمجد:

إنا لتتحفنا بالشوق كُتبكُم ... وإن بعدتم فإن الشوق يدنيها
فكيف نضجر منها وهي مذهبةٌ ... من وحشة الشوق لوعاتُ نعانيها
وإن ذكرتم لنا فيها اشتياقكم ... فعندنا منكم أضعاف ما فيها
سلوا نسيمَ الصَّبا يهدي تحيتنا ... إليكم فهو يدري كيف يهديها

ومن الشعراء الذين مدحوا الأمجد الهمام العبيدي الشاعر البغدادي أبو الحسن علي بن



□ التحصينات العربية ومسجد ابراهيم في قلعة بعلبك.

نصر بن عقيل من ربيعة، أمّ بلاطه في بعلبك ومدحه ونال عطاياه[٦٤]. ومنهم شاعر بعلبك عزالدين أحمد بن علي بن مُعقل الأزدي البعلبكي (٥٦٧ ــ ٦٤٤هـ). كان شاعراً مقتدراً على النظم، عالماً بفنون الأدب والأصول والفقه على رأي الامامية غالياً في التشيُّع. قال عنه اليونيني: كان ابن مُعقل من شعراء الأمجد[٦٥] مدحه بالكرم والشجاعة وحصافة الرأي، وحسن التدبير، والشاعرية... وطلباً لجوائز الأمجد قصده ابن عنين[٦٦] وامتدحه، ونستشف من كلامه أن الأمجد تخيّره راوية لأشعاره، في مجالس الأدب التي يشهدها في عواصم العالم الاسلامي، فنفّذ مهمّته وعاد يطلب أجرين: الأول على أداء الأمانة، والثاني جائزة قصيدة هي من غرر ابن عنين، تلك الرائية التي خصّ بها الأمجد، وأفرغ فيها شاعريته، فمنحها الزخم والقوّة، والصور الجيّدة، مما يعيد إلى أذهاننا جزالة المتنبي. وحق لابن عنين أن يتهيّب موقفه، وأن ينقّح شعره ما دام يهديه إلى ملك «هو اشعر بني أيوب». وهذه أبيات من رائية ابن عنين في الأمجد:

عجبت للطّيف يا لمياءُ حين سرى
نحوي، وما جال في عينيٍ لذيذ كرى
وليلةٍ مثلُ موج البحر بت بها
أكابدُ المزعجين الخوفَ والخطرا
حتى وردتُ بآمالي إلى ملكٍ
لو رام ردّاً لماضي أمْسهِ قدرا
فأصبح الدهرُ مما كان أسلفه
إليَّ، في سالفِ الأيّام، معتذرا
مَلْكٌ أرانا عليّاً في شجاعته
وعلمه: وأرانا عدلُه عُمرا
اغرُّ ما نزعت عنه تمائمة
حتى تردّى رداء المُلْكِ واتّزرا[٦٧]
من آل أيوب أغنتنا عوارفُه
في كالح الجدب أن نستنزل المطرا
ومقدِّمُ الخيل في لبّاتها قِصَدٌ
وعاقرُ البُدْنِ في يومَيْ وغىً وقرى
وخائض الهول، والأبطالُ محجمةٌ
لا تستطيع به، ورداً ولا صَدَرا
تُمضي المنايا بما شاءت أسنّتُه
إذا القنا بين فرسان الوغى اشتجرا
تكادُ تخفي النجومُ الزهرُ أنفسها
خوفاً ويشرقُ بهرامُ إذا ذُكرا

ابن عنين راوية الأمجد

لمَّا تخيّرني أروي قصائدَه
مضيتُ قُدْماً، وخلّفتُ الرواة ورا
فاعجبْ لبحرٍ غدا في رأس شاهقةٍ
من العواصم طام يقذفُ الدُّررا
لو قام بعضُ رواةِ الشعر ينشدُهُ
يوماً بأرض أزالَ أخجلَ الحِبرا
كم قُمتُ في مجلس السادات أنشدُه
فلم يكن لحسودٍ في عُلاهُ مِرا
عجبتُ من معشر كيف ادّعوا سفها

□ الصفحة الأولى من ديوان الملك الأمجد بهرام شاه.

من بعد ما سمعوه أنهم شَعَرا
لولا التُّقى قلتُ لا شيء يُعادِلُه
أستغفر الله إلّا «النملَ والشعرا»
أنا الذي سار في الدُّنيا له مثلٌ:
«أهديتُ من سَفَهٍ تمراً إلى هجرا»[٦٩]

ومن المؤرخين الذين ترددوا إلى بلاط الأمجد سبط ابن الجوزي، صاحب مرآة الزمان الذي أقرّ بذلك قائلاً: «كان الأمجد جواداً ممدَّحاً وقد مدحه خلقٌ كثير وجزاهم الجوائز السنيّة... وكان صديقي. وكنت إذا صعدت جبل لبنان للزيارة أجتازُ ببعلبك يجلس إليَّ»[٧٠] أما الأطباء الذين عرفهم بلاط الأمجد فأشهرهم، مهذّب الدين السامري، طبيب الأمجد الخاص من سنة

يذود عنها العدى يقظان ما اكتحلت ... عيناه عما يراعيه بتهجاع
بكل أسمر دامي الحد لهذمه ... وكل أبيض ماضي الغرب قطاع
من حوله غلمة يحمون جارهم ... يوم الصريخ اذا ما ثوب الداعي
يمشون والموت قد أبدى نواجذه ... اليه ما بين سباق وسراع
لا يعرفون برودا غير ما لبسوا ... من الشجاعة أو من زغف أدراع
في الحرب والسلم من كر ومن كرم ... لم يبرحوا بين ضرار ونفاع
يا صاحبي أعيدا ذكر كاظمة ... على فؤاد الى الأحباب نزاع
واستنشقا نفحة البان ان نسمت ... بنافح من عبير العقد ضواع
فثم موضع أطرابي وما ألفها ... بل ثم شهوة أبصاري وأسماعي
فلا عدا أرضها تسكاب دمعي ان ... ضن السحاب بتهطال وتهماع
دمع اذا أقلع الغيث الملث همى ... على المنازل لم يؤذن بإقلاع
أرض سأعدو بها ما نقضت ... عما عهد صباباتي وأطماعي
ما هبت الريح الا هجت من طرب ... اليك يا ظبية الوعساء والقاع
بيني وبينك بيد لا يقربها ... الا عزيمة إمضائي وإزماعي
فما الأناة ونجني في معاطفها ... سيمن غطلة أقتاد وأنساع
شد الرحال عليها فهي كالفلة ... بالوخد تغري ما أعيي على الساعي
عيس اذا غمر الآل ظعن بها ... حسبتها منه في لجي دفاع

٥٧٨هـ إلى ٦٢٣هـ. وابن شقيقه أمين الدولة أبو الحسن ابن غزال السامري طبيب الأمجد ووزيره[٧١]. ومنهم الطبيب والشاعر رشيد الدين علي بن خليفة الخزرجي، الذي ألّف للأمجد كتابين هما: الموجز المفيد في علم الحساب، أربع مقالات، وضعه سنة ٦٠٨هـ ومقالة في السبب الذي له خلقت الجبال[٧٢].

شاعريته

الأمجد أشعر بني أيوب[٧٣] له ديوان مخطوط. عثرت على نسخة منه في دار الكتب الظاهرية رقمها (٧١٧٥) بخط جميل متقن. وهناك نسخ لم أطلع عليها موجودة في باريس (٣١٤٢)؛ ومانشستر (٤٥٦)؛ نور عثمانية (٤٥٦)؛ مكتبة الأوقاف بغداد (٤٩٨)؛ والمكتبة الخالدية بالقدس...

وتضم نسخة الظاهرية أربعاً وأربعين قصيدة، وخمس مقطوعات أطولها قصيدة ميميّة بلغت سبعين بيتاً ومطلعها:

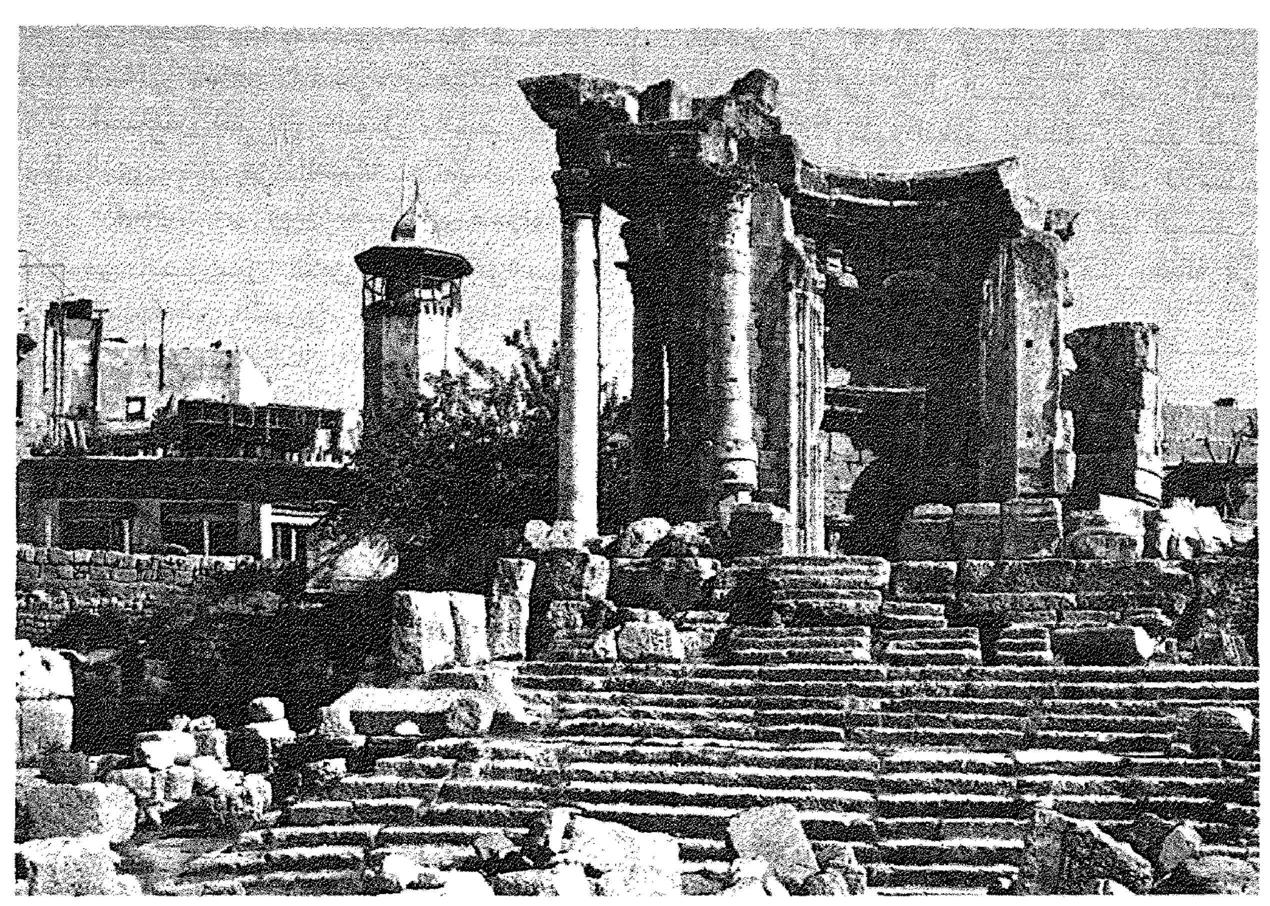
هو الدّمع أضحى بالغرام يترجمُ
وقد كان فيك الظنُّ قبلُ يرجِّمُ[٧٤]

جاء في مقدّمة ديوانه «بسم الله الرحمن الرحيم. بك أعتصم ممَّا يُصِمُ أو يصم يا الله. مما وجد ونسب للسلطان الملك الأمجد مجد الدنيا والدين، صاحب بعلبك — أبي المظفّر بهرام شاه، ابن الملك المنصور فرخشاه... مما نظمه في النسيب والتغزل والحماسة في مدة أوّلها شهر رمضان، المعظم قدره، أحد شهور سنة أربع وستماية». نظرة متعمقة في الديوان تكشف عن اتجاهين لوَّنا قصائده: الصحراء والغزل.

لقد شَفه الوجد فعانى وبكى وتألم وشكا العذال وأزعجه الفراق ولم يختر بعلبك مسرحاً لغزله بل انطلق إلى الصحراء حيث الدموع والاطلال والريح، والغزلان والناقة والظليم... فمواطن محبوبته تقمّصت مواطن محبوبات الشعراء؛ يغذ السير إلى برقة ثهمد[٧٥]:

دع العيس ترفل في الفدفد
عجالا إلى برقة ثهمد

وتجوّل بين الحجاز ونجد وتهامة، وذكر أماكن كثيرة مثل سلع والمأزمين ورامة ولعلع



□ مئذنة بناها الصالح اسماعيل الأيوبي

والجناب...[٧٦]. هذه الأماكن ما زارها الشاعر لكنه عرفها في مخزون ثقافته. ويبدو أثر الثقافة واضحاً في مطالع قصائده لأنه وقف على الاطلال ووصف النؤي والأوتاد والأثافي ولاحق عمل الرياح والأمطار في محو معالمها، ولست أدري لماذا شغلته البروق والرعود والغمام، وكأنها أصابيغ لا بد منها في تلوين كل قصيدة، والنماذج متوافرة:

ماذا تسائل من نؤي وأوتاد
ومن رسوم محاها الرائح الغاد
معاهد درستها كل غادية
وكل أوطف داني المزن مرعاد[٧٧]

الغـزل

القصائد تترجم حباً دفيناً في قلب الشاعر (لعله واقع لكن الأخبار سكتت عنه). ومع كثرة أسماء المحبوبات: ليلى، زينب، سعدى، سعاد، رباب. فصفاتهن متشابهة: الشعر ليل، والقوام قنا والثغر برق، والخدُّ ورد... وكلهن واحدة في التصرف تعد وتخلف الوعد، تهجر وتصد، الحاظهنّ تسدد إلى قلب الشاعر سهاماً قاتلة. هذه التحديات أوجدت دوراً للعذال حتى فلسف اللوم ومدّ يده إلى بيت أبي نواس:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء
وداوني بالتي كانت هي الداء[٧٨]

أخذ المعنى وردده في جملة قصائد قال[٧٩]:

أخالوا سماع العذل ينقص لوعتي؟
وما اللوم في الأهواء إلّا يزيدها

واتخذ حديث العذال مطلعاً لبعض قصائده فكانت مطالع عذبة تشكو وتعتب وتستنجد بالأخلّاء[٨٠]:

يميناً لقد بالغتَ يا خلُّ في العذل
وما هكذا فعلُ الأخلّاء بالخلِّ
إذا أنت لم تُسعِد خليلك في الهوى
فذره لقد أمسى عن العذل في شغل
فلا تحسبن العذلَ يذهبُ وجده
فلومك بالمحبوب يُغري ولا يُسلي

إن معظم قصائده الغزلية بليلة بندى الدموع المسفوحة على فراق حبيب ظالم ما تعلّم إلا الصدود. شكاه الشاعر إلى أصدقائه فتخلى عنه

الأصدقاء فاعتصم بالشكاية إلى الظالم نفسه بلا جدوى فلاذ بالدموع يذرفها لتغسل كآبة غلّفت قلبه[٨١].

الفخر والحماسة

عرف ديوان الأمجد الفخر لكنه لم يفخر بحسبه بل بالشجاعة والشاعرية:

١ ـ البطولات والشجاعة: قلّد عمر بن أبي ربيعة في تحدياته لأقارب محبوبته. زارها ودونها أبطال يثيرون النقع وينسجون الغبار عرينا يحتمون فيه. أبطال أحرار. تصدّى لهم الأمجد دامي الظفر يحمي الذمار يصون الأعراض، ومجرّباً في الحروب. هذه كل المعاني البطولية التي ذكرها في شعره. لقد ربطها بالغزل، وهدف منها إلى إظهار براعته ورجولته أمام المحبوب فقط. وهذا يثير تساؤلات: ترى لماذا لم يصف المعارك التي خاضها فعلياً ضد الفرنج؟ فهو لم يذكرها إطلاقاً في ديوانه، ولم يتحدث عن مهاجمة الحصون، ونسي منازلة الأعداء، وأغفل فتح الثغور. وفخر بشعره ولم يفخر بسيفه.

٢ ـ الفخر بشاعريته: أحسّ الأمجد بموهبته الشعرية، فاتخذها مجالاً لفخره. وكان اعتداده باختراع المعاني، وسطوة الكلمة، وتفرد القصائد. ادعى أنه سبق إلى اختراع بعض المعاني واكتشاف الصور حتى حسده أنداده من الشعراء[٨٢]:

ولكن حُسِدْتُ على قوافٍ
سبقْتُ بها، وقد جدَّ الرِّهانُ

ولشعره سطوة تجذب العشّاق وتسحرهم، وتهز الحساد، وتثمل الركبان، والأمجد نفسه أنس إلى شعره في وحشته وتسلى عن أحزانه[٨٣]:

فليس لي مؤنِسٌ إن شفّني وَلَهٌ
إلاّ ترنّم أغزالي وأشعاري
إذا تناشدها الركبان أثملهم
لفظٌ لأبرع نظّام ونثّار
فمن يساجلني فيها وأين له
منها عذوبة إيرادي وإصداري

ومثلما أخذ أحمد شوقي معنى المتنبي:

وما الدهر إلاّ من رواة قصائدي
إذا قلتُ شعراً أصبح الدهر منشدا

فقال شوقي:

رواة قصائدي فاعجب لشعر
يرويه بكل محلّة خلقُ

أخذ بهرام شاه معنى المتنبي وقال:

قصائد ما فاه الرواة بشبهها
قديماً ولم يفتح بمثل لها فمُ

قصّر عن شمولية المتنبي وإبداعه لكنه فاق احمد شوقي الذي خصّ الرواية بفئة، وتصنّع في الدعوة إلى التعجب. أما بيت بهرام شاه فحقق شمولية ومغالاة مقبولتين لأن الرواة يختارون عيون الشعر للانشاد، وفي الشطرة الثانية اعتمد الفعل المضارع ليغطي حكمة المستقبل. لكن أداة الجزم (لم) خفّفت من الغلو وحسرت من الامتداد.

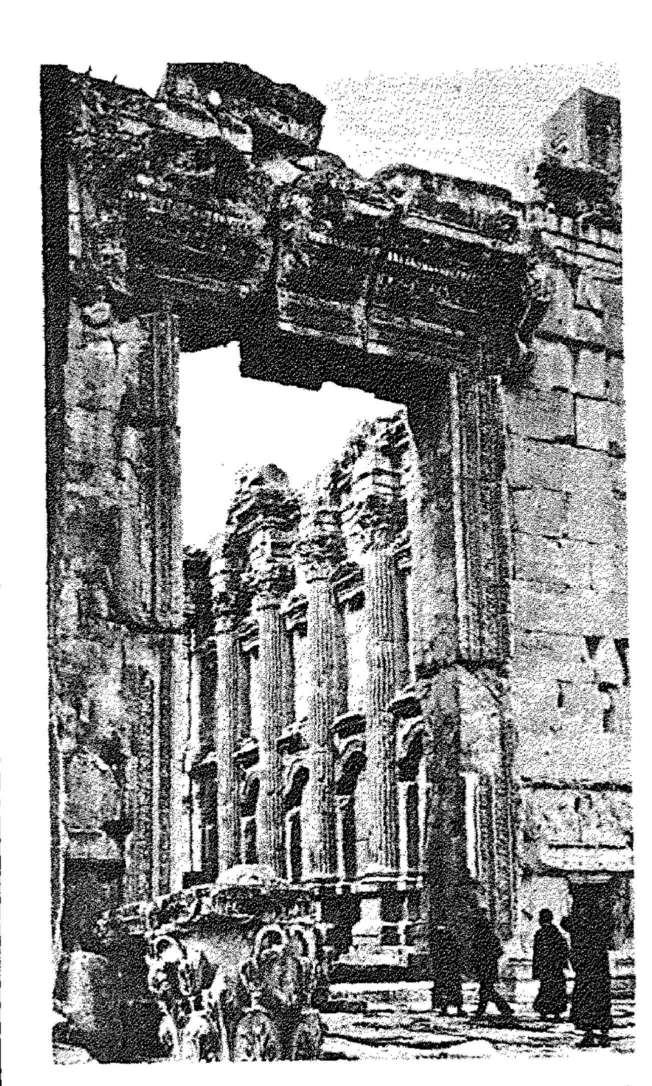
الأمجد بين التقليد والابداع

إن ثقافة الأمجد وتطلعات عصره إلى أمجاد الماضي واعتماده دواوين السلف أمور فرضت عليه منهجاً ضيّقاً. وقف على الاطلال، وبكى، ووصف الناقة والصحراء. واتكأ في صوره ومعانيه على الشعراء السابقين. قلّد ذا الرمة في وصف الناقة، وذكر الحبيبة والبكاء. وتطلع إلى عمر بن أبي ربيعة، وجميل بثينة وكثير عزّة في غزله. وأخذ من المتنبي اعتداده بشعره. وكانت لديه القدرة على أخذ الصورة والابتعاد بها عن الأصل[٨٤]. ولا نعدم في ديوان الأمجد بعض الصور الموحية التي حققت جدّة وطرافة له في كتم الحب:

إلى حيٍّ كتمتُ هواي فيه
إذا الأهواء دنّسها العلانُ[٨٥]

وله صور في تعريف الوجد وتفضيل أسبابه[٨٦] والصراع مع جيش الحب[٨٧]. ومن طرائفه قوله في أحد مماليكه وقد أقبل من جهة المغرب راكباً فرساً أشهبَ[٨٨]:

اقبل من أعشقه راكباً
من جانب الغرب على أشهبِ
فقلتُ سبحانك يا ذا العُلا
أشرقتِ الشمس من المغربِ



خلاصة

اتسم شعره بحسن السبك. لكن معانيه أتت تقليديّة. لم تكن موهبته الشاعرية مجدّدة مع أنه كان ملكاً غنياً تخلص من تكلف المديح فهو يعطي ولا يأخذ. وهب مداحيه أموالاً طائلة. بيد أنه عاش ثقافته المخزونة، وظل يدور في فلك السلف. سأل الأطلال، وبللها بدموعه، وشفّه وجد الدِّمن. لقد تطلّعت في الديوان ملياً فلاحت لي مآخذ على شعره: إذ لا نقع في ديوانه على قصيدة في أطلال بعلبك. ولم تهزه روعة البناء ودقة النقش فنياً... هزّته حربياً فحصّنها أمّا شعرياً فنأت عن مخيلته وأفلتت من أفكاره. ومرة ثانية يظهر فراغ في ديوانه. كنت أحسبني أعثر على وصف الرياض والحدائق والمياه التي تصل بها حصاها، والثمار الضاحكة على أغصانها وخصوصاً المشمش الذي أكثر من وصفه شعراء دمشق في عصر الأمجد[٨٩]. لم أجد صورة واضحة لهذه المشاهد واستعاض عنها بذكر الصحراء والدمن. مع أن أصل موطنه ــ في جبال الأكراد ــ لا يمت بصلة إلى الحجاز.

وهناك خلل ثالث في ديوانه هو فقدان اللون الملحمي وذكر المعارك الحربية التي خاض بعضها بشجاعة ضد الصليبيين. لكنه وثب عنها إلى فخر مصطنع في مهاجمة أقرباء حبيبته كلما زارها.

وأجزم مرة ثانية بأن الثقافة التي تلقاها سيَّرته نحو التقليد وما استطاع أن يتخلص من سطوة هذه الثقافة.

الهوامش

(١) في روايات اقطعه نصفها (ابو شامة: الروضتين: ١/٤٨؛ الكامل: ١١/٦٩).
(٢) الكامل: ١١/٦٩؛ شفاء القلوب: ٢٣؛ البداية والنهاية: ١٢/٢١٦؛ أبو الفداء: المختصر: ٣/١٧.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية: ١٢/٢١٧.
(٤) الذهبي: العبر في خبر من غبر: ٥/٥٨.
(٥) ولد صلاح الدين سنة ٥٢٢هـ. وفي العسجد المسبوك للأشرف الغساني ولد سنة ٥٣٤ وقيل ٥٣٨.
(٦) الروضتين: ١/٨٤.
(٧) كرد علي: خطط الشام: ٢/١٣.
(٨) ابو شامة: ١/٨٤؛ المختصر في اخبار البشر: ٣/١٩؛ تتمة المختصر لابن الوردي: ٢/٧٣.
(٩) الكامل ١١/١٧٩.
(١٠) ابو شامة ١/١٨٤.
(١١) الروضتين: ١/٢٤٧.
(١٢) شفاء القلوب: ٨٧؛ الكامل: ١١/٤٢٠؛ النجوم الزاهرة: ٦/٣٢.
(١٣) مرآة الزمان: ٨/٢٢٣.
(١٤) أبو شامة: ١/٢٦١.
(١٥) مرآة الزمان: ٨/٢٢٣؛ شفاء القلوب: ٥٤.
(١٦) ذكر سبط بن الجوزي أن فرخ شاه تسلم بعلبك في سنة ٥٧٤هـ. (مرآة الزمان: ٨/٢٣٥).
(١٧) الغساني: العسجد المسبوك: ١٧٦؛ شفاء القلوب: ٥٤.
(١٨) مرآة الزمان: ٨/٢٢٣؛ وفي شفاء القلوب استنابه ٥٧٦هـ (شفاء القلوب: ٢٢٣).
(١٩) شفاء القلوب: ٢٢٣.
(٢٠) ابو شامة: ٢/٣٤.
(٢١) طبقات الأطباء: ٧٢١.
(٢٢) مرآة الزمان: ٨/٣٧٢؛ الروضتين: ٢/٣٣؛ السلوك: ١/٧٩؛ البداية والنهاية: ١٢/٢١١،

العبر: ٤/٢٣٣؛ الدارس: ١/٥٦١؛ النجوم الزاهرة: ٦/٩٦؛ شذرات الذهب: ٤/٢٥٩.
(٢٣) النجوم الزاهرة: ٦/٨٧.
(٢٤) العماد الكاتب الأصفهاني: الفتح القدسي: ٤٣٤.
(٢٥) الفتح القدسي: ٦٣٣.
(٢٦) مفرج الكروب: ٣/١٨؛ الفتح القدسي: ٦٣٨؛ شفاء القلوب: ٣٠٦.
(٢٧) النجوم الزاهرة: ٦/١٢٢.
(٢٨) شفاء القلوب: ٢٥٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى: ٤/١٦٦.
(٢٩) ابو شامة: ٢/٢٣٣.
(٣٠) مرآة الزمان: ٨/٢٩٠.
(٣١) مفرج الكروب: ٣/١٤٣.
(٣٢) القليعات: موضع قرب طرابلس، ابن الاثير: ٩/٢٩٧.
(٣٣) أغناز: بلد بين الساحل وحمص، ياقوت: ١/٣١٦.
(٣٤) ابن نظيف: التاريخ المنصوري: ٥٣.
(٣٥) جرزم: جبل بديار بني سعد. ياقوت: ٢/٢٥٧.
(٣٦) تاريخ المنصوري: ٥٧.
(٣٧) مفرج الكروب: ٣/١٩٠، المقريزي: السلوك: ج ١ ق ١: ٢٠٤.
(٣٨) شفاء القلوب: ٣٠٦.
(٣٩) خطط الشام: ٢/٨٣.
(٤٠) توفيت ابنة الملك الأمجد زوج الملك المغيث سنة ٦٣٠هـ: (المنصوري: ٢٥٥).
(٤١) التاريخ المنصوري: ١٢٢.
(٤٢) شفاء القلوب: ٢٨٥.
(٤٣) مرآة الزمان: ٨/٤٤١.
(٤٤) التاريخ المنصوري: ١٥٨.
(٤٥) العزيز عثمان بن أبي بكر بن أيوب، صاحب بانياس وهونين والصبيبة. توفي سنة ٦٣٠هـ. (مرآة الزمان: ٨/٤٤٩، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/١٣٧؛ النجوم الزاهرة: ٦/٢٨١.
(٤٦) مرآة الزمان: ٨/٤٤٩.
(٤٧) التاريخ المنصوري: ١٦٠.
(٤٨) التاريخ المنصوري: ١٦٣.
(٤٩) نفسه: ١٧٧.
(٥٠) نفسه: ١٨٧.
(٥١) مرآة الزمان: ٨/٤٣٦.
(٥٢) نفسه: ٨/٤٣٦.
(٥٣) التاريخ المنصوري: ١٩٧.
(٥٤) مرآة الزمان: ٨/٤٤١؛ شفاء القلوب: ٣٣٦.
(٥٥) مفرج الكروب: ٤/٢٨٤؛ تاريخ أبي الفداء: ٣/١٤٦؛ البداية والنهاية: ١٣/١٣١؛ السلوك: ج ١ ق ١/٢٧٩؛ العسجد المسبوك: ٤٤٢ و ٥٤١؛ فوات الوفيات: ١/٢٢٦؛ الدارس: ١/١٧١؛ مرآة الجنان: ٤/٩٥؛ النجوم الزاهرة: ٦/٢٧٥؛ شذرات الذهب: ٥/٢٦.
(٥٦) تقرير بوخشتين عن حفائره في بعلبك: ٤١.
(٥٧) اقام الأمجد في بعلبك ثلاث وخمسون سنة، اربع منها في ظل والده، وتملك بعلبك تسعاً واربعين سنة.
(٥٨) هو أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد بن سعيد بن عصمه بن حمير بن الحرث بن ذي رعين البغدادي (٥٢٠ ـــ ٦١٣هـ). انتهت إليه القراءات والروايات، وعلم النحو واللغة (مرآة الزمان: ٨/٣٧٧).
(٥٩) مشيخة محيي الدين اليونيني: مخطوط: ورقة: ١٤.
(٦٠) الروضتين: ٢/٢٤.
(٦١) مرآة الزمان: ٨/٤٤١.
(٦٢) طبقات الأطباء: ٦٢٥.
(٦٣) مرآة الزمان: ٨/٤٤٢؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات: ١/٢٢٧.
(٦٤) توفي العبيدي سنة ٥٩٦هـ. (أبو شامة: ٢/٢٤١: النجوم الزاهرة: ٦/١٥٨).
(٦٥) ذيل مرآة الزمان: ٣/١.
(٦٦) ابن عنين هو محمد بن نصر الله بن عنين، توفي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م.
(٦٧) يكشف هذا البيت قضيّة غامضة في حياة الأمجد، وهي تاريخ ولادته وقد أغفله المؤرخون. ويشير إلى ان الأمجد لمّا تملّك بعلبك سنة ٥٧٨هـ كان يافعاً صبياً لم تنزع عنه التعاويذ. وبذلك تكون ولادته قريباً في سنة ٥٦٠هـ.
(٦٨) النمل والشعرا: سورتان من سور القرآن الكريم.
(٦٩) ديوان ابن عنين: ٥٥ ـــ ٥٨.
(٧٠) مرآة الزمان: ٨/٤٤١.
(٧١) طبقات الأطباء: ٧٢٢ و ٧٢٣.
(٧٢) طبقات الأطباء: ٧٥٠.
(٧٣) شفاء القلوب: ١٤؛ تاريخ أبي الفداء: ٣/١٤٦.
(٧٤) ديوان الأمجد ورقة: ١٠.
(٧٥) ديوان الأمجد مخطوط ورقة: ٧.
(٧٦) المرجع نفسه: ورقة ٣٥.
(٧٧) المرجع نفسه: ورقة ٢٨.
(٧٨) ديوان أبي نواس: ١٢١.
(٧٩) ديوان الأمجد ورقة ٩.
(٨٠) نفسه: ورقة ١٤.
(٨١) نفسه: ٢٣، ١١، ١٣.
(٨٢) ديوانه: ورقة ١٨.
(٨٣) ورقة ٢٢.
(٨٤) ورقة ١٥ مقارنة مع الأخطل.
(٨٥) ديوانه: ورقة ١٧.
(٨٦) نفسه: ٣١.
(٨٧) نفسه: ٢٧.
(٨٨) نفسه: ٤٨.
(٨٩) أبو شامة: الروضتين: ٢/٢١٠.

التاريخ مسرح كبير

مسرحية جورج بشنر

موت دانتون

«نحن نقف دائماً على خشبة المسرح، حتى حين نطعن في مقتل» (دانتون)

هذه المقالة مأخوذة عن مجلة «فكر وفن» عدد ٣٨، ١٩٨٣.



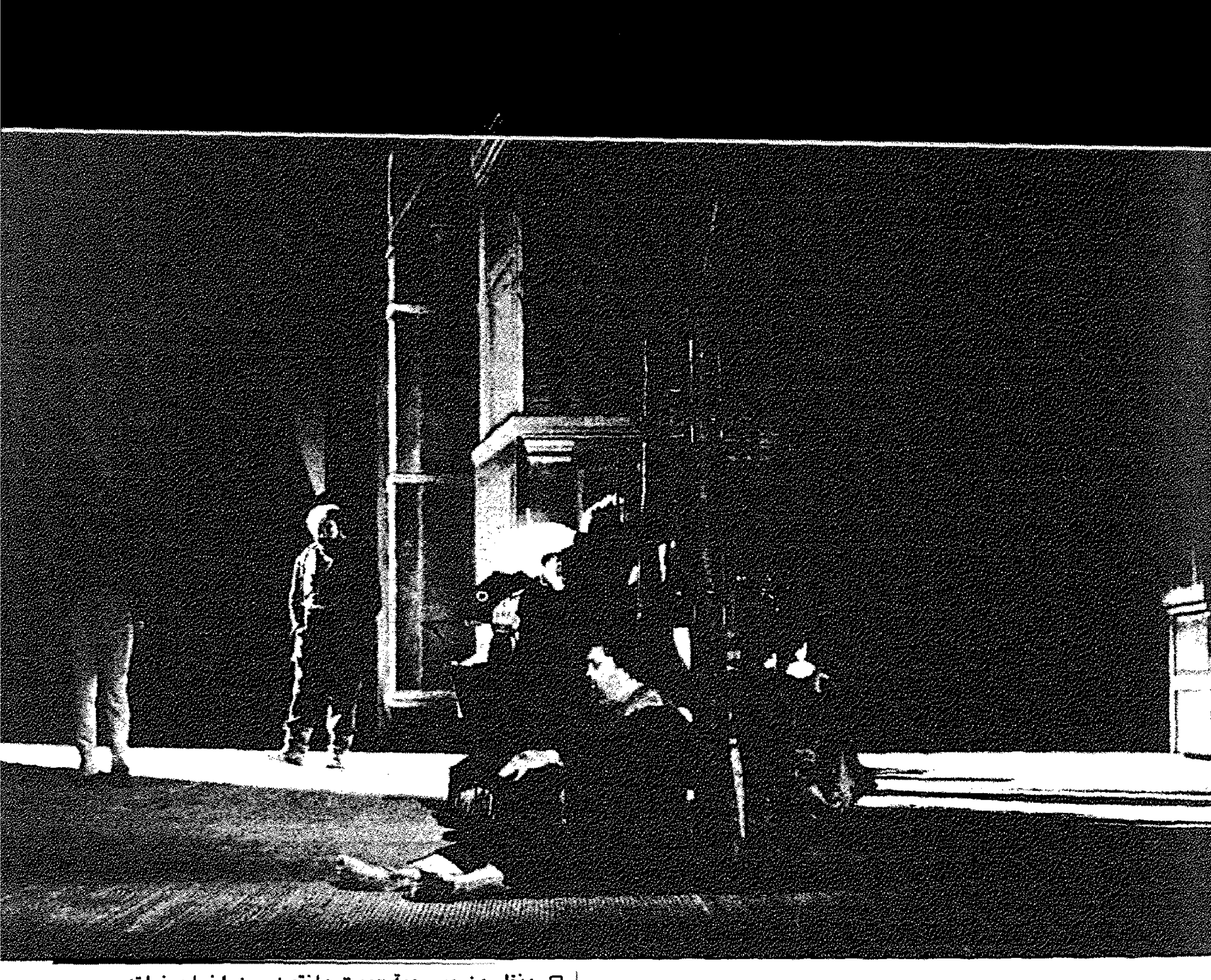
□ الممثل الكسندر مويسي في دور دانتون (عام ١٩١٧).

موضوع جورج بشنر (Büchner) في دراما «موت دانتون» Dantons Tod هو الثورة الفرنسية في تعقداتها وتطوراتها الدموية. وقد استعان بشنر بالعديد من المصادر الأخبارية (كالخطب والمذكرات والرسائل..) سواء نقلاً عن الغير أو مباشرة عن الأصول الفرنسية، وأخذ عن هذه المصادر مقاطع وفقرات وأوردها على لسان الشخوص دون تغيير ما. ومع ذلك، فإن بشنر لم يكتب مسرحية واقعية كما يبدو على السطح، وكما قد توحي عبارته المعروفة: إن المؤلف المسرحي ليس إلا مؤرخاً، وواجبه الأسمى أن يقترب قدر طاقته من التاريخ كما جرت وقائعه. فمسرحية بشنر تغاير التاريخ في الكثير: في رسم الشخصيات ودوافعها وأسباب فشلها أو نجاحها المرحلي...

لا يقدم بشنر فاصلاً تاريخياً في صورة درامية، وإنما يعرض علينا التاريخ كمسرحية أو يعرض علينا عالم الثورة الفرنسية ووقائعها كمسرحية، بمعنى العالم كمسرح كبير. ومن البداية إلى النهاية تتخلل تعبيرات «المسرح» ومصطلحاته فقرات الحوار.

الخلفية التاريخية

يلخص «كارل جوتسكو» (K. Gutzkow) الخلفية التاريخية لمسرحية بشنر «موت دانتون»



□ منظر من مسرحية «موت دانتون» من إخراج نولته خلال عرض المسرحية بمدينة سالزوبورج بالنمسا ونرى في الصورة «مواطن» و «ملقن» و «شحاذ».

والتصور الذي يكتب منه المؤلف على النحو التالي:

الثورة تلتهم أبناءها على مراحل: كانت المرحلة الأولى هي سقوط «الجيرونديين»، أما المرحلة الثانية فهي سقوط المعتدلين «أتباع دانتون». كان «الجيروندیون» رجالاً شاركوا في الثورة من خلال الحماس والتعاطف دون أهداف واضحة ودون أيديولوجية. كانت لهم بعض المبادىء، ولكن الحماس هو الذي جرفهم إلى أحضان الثورة، مات الجيرونديون بخطبهم الحافلة المنمقة وفكرهم المتعالي، ماتوا لأنهم أرادوا الثورة دون الجماهير.

أما المعتدلون أنصار دانتون، فقد لوثوا أيديهم أولاً «بدماء سبتمبر» (حوادث القتل في سبتمبر عام ١٧٩٤). كان هدفهم هو الردع من خصوم الثورة، ولذا أنشأوا محكمة الثورة بهدف منع تلك الجرائم التي ارتكبت في حوادث سبتمبر. ولكن هذه المحكمة بإجراءاتها الشكلية تحولت إلى ساحة للارهاب والقتل. ضحى «الدانتونيون» بمشاعرهم وبمبادئهم، وفعلوا الكثير من أجل الثورة، ولم يتصوروا أن الثورة قد تضحي بهم، ولكن نجم روبسبير الصاعد كان لهم بالمرصاد، وكانت التهمة التي وجهها إليهم روبسبير هي.. المبالغة في الاعتدال والشغف بمتع

الحياة والبعد عن «الفضيلة». وهكذا بدأت المرحلة الثالثة من مراحل الثورة، مرحلة اليعاقبة المتعصبين. تحولت الثورة من خلال اليعاقبة إلى أعراف طقسية وإلى عقيدة ديماجوجية. ويمكن تعريف «الثورة» خلال مراحلها الثلاث على النحو التالي: الثورة عند «الجيروندين»، عبء وشيء يمكن استبداله بشيء آخر. وعند «الدانتونيين» عقبة وشيء يجب أن يأتي إلى نهاية. أما روبسبير فقد اعتبر الثورة وحياً منزلاً يفوق حدود الارادة الانسانية، اعتبرها فكرة وبشرى، وهو المجسم لهذه الفكرة، وهكذا استعبدت «الفكرة» أصحابها وحولتهم إلى أدوات لهذه الفكرة، وبطبيعة الحال فقد تحدث الجميع باسم الثورة كقيمة عليا أو كشيء ميتافيزيقي، مع أن مصير الثورة كان في أيديهم. أما بؤس الناس وحاجاتهم فقد تحولت في أفواههم إلى فلسفات وخطب وأحاديث طنانة. هذه هي الخلفية التاريخية لمسرحية بشنر. وعنوان المسرحية (موت دانتون) يشير إلى المنظور الذي ينظر به المؤلف إلى أحداث الثورة.

التاريخ كمسرحية سيئة

كثوري قد مات دانتون قبل أن يرفع الستار عن الفصل الأول منها. من البداية نراه وقد انفصم عن الدور الذي أداه في مسرحية الثورة. قد أصابه السأم، وها هو الآن ينظر إلى نفسه من بعيد وكأنه قد عاش على خشبة مسرح كبير تحركه قوى خفية:

«ما نحن إلا دمى، تشد خيوطها قوى مجهولة. عدم نحن. ما نحن إلا عدم، سيوف تتصارع بها الأشباح. غير أن الانسان لا يرى الأيدي التي تحركها، كما يحدث في الخرافات تماماً».

لم يعد دانتون متوحداً مع نفسه. محور تأملاته هو تلك الحياة المؤجلة التي يعيش فيها الانسان مغترباً عن نفسه، لا يستطيع أن يعيش بأحاسيسه ومشاعره ولا يستطيع أن يكف عن تأمل ذاته.

لم يعد في استطاعة دانتون أن يمضي في أداء دوره السابق «لقد احسست الملل من أن أتمشى دائماً في نفس الثوب وأضع على وجهي نفس التجاعيد! هذا شيء يثير الشفقة. أن تكون آلة بائسة، يرد المشدود فوقها نفس النغمة!

إنه شيء لا يحتمل. أردت أن أيسر الأمر على نفسي. وقد وصلت إلى هذا، إن الثورة تحيلني على المعاش، ولكن على غير ما كنت أتصور».

وهو ينظر إلى رجال الثورة كممثلين. والواقع أن خصومه يتصرفون كممثلين يؤدون أدواراً: يحسبون لكل موقف حسابه يركبون الكلام وفقاً للصدى الذي يهدفون إليه في خطبهم، بل إن إيماءاتهم وإشاراتهم محسوبة، وهم في نفس الوقت يراقبون أنفسهم على الدوام. هناك على الدوام فاصل بين حقيقتهم الباطنة وبين هذه الأدوار. قد أصبحوا شخوصاً صناعية، أرديتها وكلماتها مستعارة، أو كما يقول دانتون: «إنني افضل أن تقطع راسي على أن أتسبب في قطع الرؤوس. لقد سئمت. ما الذي يدعونا نحن البشر إلى أن نتصارع؟ خير لنا أن نجلس بجانب بعضنا البعض وننعم بالهدوء. إن هناك غلطة ارتكبت عندما خلقنا».

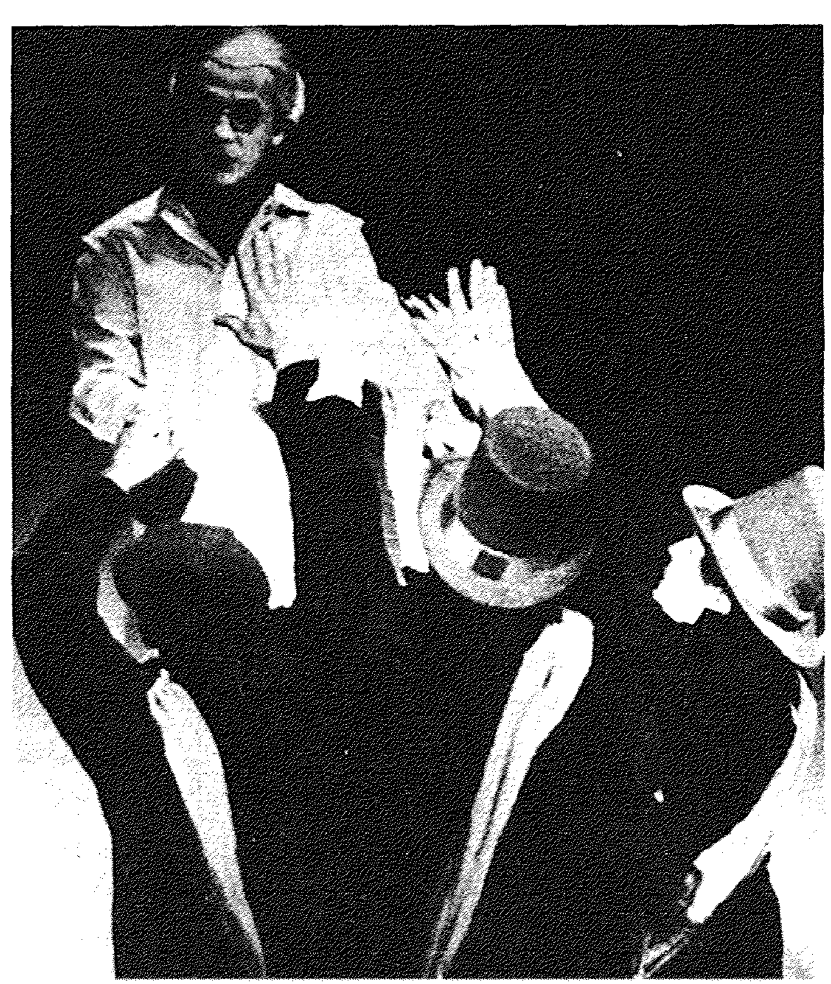
«نحن نقف دائماً على خشبة المسرح، حتى حين نُطعن في النهاية في مقتل».

«من الخير أن يختصر العمر قليلاً، لقد كان الثوب طويلاً جداً، وعجزت أعضاؤنا عن ملئه... وأخيراً — ليتني أستطيع أن أصرخ. هذا شيء لا يستحق كل هذا العناء. والحيا لا تستحق الجهد الذي يبذله الانسان في سبيل المحافظة عليها..».

خبرة دانتون — ومن خلال دانتون يتحدث جورج بشنر — تدفعه إلى النظر إلى التاريخ كمسرحية سيئة. وتتخلل تعبيرات «المسرح» ومصطلحاته كما أشرنا فقرات الحوار، إن زعماء الثورة — كما يرى الآن — عاجزون عن التأثير على مجرى التاريخ، وإن توهموا أنهم يملكون مقوده. قد أصبحوا سجناء مسرحية الثورة. كل يؤدي دوره وفقاً لقواعد المسرحية، ويخضع لقوانين المسرح. يقول دانتون:

«إننا لم نصنع الثورة، وإنما الثورة هي التي صنعتنا...» ولا يتحدث دانتون هنا عن نفسه فحسب، وإنما أيضاً عن خصمه روبسبير. إنه يعلم أن المقصلة تتربص به، وأنه سيغادر المسرح نهائياً عما قريب، ولكنه يعلم أيضاً أن خصمه روبسبير سيلاقي نفس المصير:

□ الممثل جراس هوف في دور روبسبير.



«إني أعطيه مهلة تقل عن ستة شهور. سأصحبه معي (إلى الموت)».

إن مقتل الثورة هي تلك العبارات الطنانة الجوفاء، وتلك الثرثرة الذكية، وذلك الادعاء باسم الشعب. وليس دانتون براء من ذلك:

دانتون: أعرف أن الثورة مثل ساتورن، فهي تفترس أبناءها (بعد تفكير) ولكنهم لن يجرأوا.

لاكروا: دانتون. أنت قديس ميت ولكن الثورة لا تعترف بالعظام الباقية. لقد ألقيت بعظام الملوك جميعاً إلى الشارع وقذفت بكل التماثيل من الكنائس. أتظن أنهم سيتركونك كتمثال أثري؟

دانتون: اسمي! الشعب!

لاكروا: اسمك! إنك معتدل، وكذلك أنا، وكاميل، وفيليبو، وهيرو. والشعب يعتبر الاعتدال والضعف شيئاً واحداً. ولذلك يقتل كل من يتباطأ ويتأخر.

دانتون: هذا حقي. أضف إليه أن الشعب كالطفل الذي يصر على أن يكسر كل شيء ليرى ما بداخله.

لاكروا: أضف إلى هذا أيضاً يا دانتون أننا كما يقول روبسبير نرتكب الرذائل، فنحن نستمتع، في حين أن الشعب فاضل، أي لا يستمتع، لأن العمل أصاب حواسه بالصدأ، ولا يسكر لأنه لا يملك المال، ولا يتردد على المواخير لأن رائحة الجبن والرنجة تصعد من رقبته...

يضع بشنر في مسرحيته دانتون وروبسبير موضع النقد على حد سواء. فإذا كان دانتون هو «قديس ميت»، فإن روبسبير «مسيح ملطخ بالدماء». من خلال هذين الخصمين يصور بشنر وقائع الثورة المختلفة التي انتهت إلى إفراغها من محتواها الشامل الأصلي. ويستعين على ذلك بتكنيك الأضداد الذي طوره الشاعر الألماني شيللر في مسرحياته. والمقصود هو الترابط والتفاوت بين الوجود الذاتي وبين الدور السياسي، بين الكيان الحقيقي وبين الظاهر.

فدانتون الابيقوري الذي يميل إلى متع الحياة يفضح روبسبير الذي يجسم فكرة الفضيلة

الخالصة لعجزه عن المتعة. وإذا كان دانتون يمثل العبقرية. فروبسيير يمثل العقيدة الديماجوجية. وإذا كان مرض دانتون هو الغربة وفقدان الحقيقة، فإن مرض روبسيير هو الوهم العصابي بأنه يمثل الحقيقية، وإذا كان «التأمل» يصيب دانتون بالاحباط والشلل، فالجنوح إلى «الفعل وإحداث الأثر» هما وسيلة روبسيير لكبت مخاوفه. فكلاهما يعاني من الاغتراب ومن الانفصام. وكلاهما يتحرك على أرض التاريخ بلا إرادة واضحة، فهما من صنع الثورة والتاريخ وإن تخيلا أنهما يصنعان الثورة.

روبسيير: قلت لك إن من يمسك بذراعي عندما أجرد سيفي فهو عدوي لا أهمية بعد هذا لقصده ونيته، ومن يحل بيني وبين الدفاع عن نفسي يقتلني تماماً كما لو كان يهاجمني.

دانتون: حيث يتوقف الدفاع عن النفس، تبدأ جرائم القتل. لست أرى سبباً يحملنا على الاستمرار في القتل.

روبسيير: إن الثورة الاجتماعية لم تنته بعد، من يكتف من الثورة بنصفها يحفر لنفسه قبراً. إن المجتمع المرفه لم يمت بعد، والقوة الشعبية السليمة يجب أن تحل محل هذه الطبقة المتفشية في كل اتجاه. يجب أن تلقى الرذيلة العقاب الرادع. وأن تحكم الفضيلة عن طريق الرعب.

دانتون: أنا لا أفهم معنى لكلمة العقاب. أنت وفضيلتك يا روبسيير! إنك لم تسرق، ولم تستدن ولم تزن. روبسيير! إنك مستقيم إلى حد مزعج. لو أنني عشت ثلاثين عاماً بأكملها أدور بين السماء والأرض بنفس السحنة الخلقية لمجرد الاحساس بهذه اللذة البائسة التي تجعلني أجد غيري أسوأ مني، لو فعلت هذا لخجلت من نفسي. أليس في داخلك إذن شيء يهمس لك في الخفاء قائلاً: أنت تكذب، تكذب؟

روبسيير: إن ضميري نقي.

دانتون:... هل من حقك أن تجعل من المقصلة حوض غسيل للملابس المتسخة لغيرك من الناس... هل أنت شرطي السماء؟...

روبسيير: هل تنكر الفضيلة؟

دانتون: والرذيلة أيضاً...

وعندما يخلو روبسيير بعد هذا الحوار إلى نفسه نسمعه يحدث نفسه.

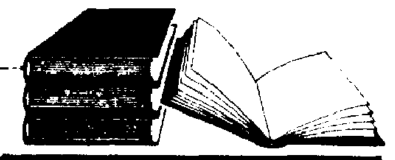
روبسيير: (وحده) اذهب! يريد أن يوقف خيول الثورة أمام الماخور... لا بد أن يذهب. من المضحك أن تراقب أفكاري بعضها بعضاً...

أليست يقظتنا حلماً ناصعاً؟ ألسنا نسير نياماً؟ أليست أفعالنا هي نفس الأفعال التي نقوم بها في الحلم، ولكن بصورة أوضح وأدق؟... إن الخطيئة كامنة في الفكرة.

فروبسيير يمثل أيضاً دوراً كاذباً في هذه المسرحية الشاملة، وإن حاول أن يوهم نفسه بأنه هو «حقيقة الثورة» وأنه يعاني «عذاب الجلاد» من أجل «خلاص» الثورة، كما يقول. فما الذي رمى إليه بشنر بمسرحيته؟

لايعتقد بشنر أن التاريخ يسير نحو هدف معلوم. ولا يرى ــ كما رأى الكلاسيكيون من قبل ــ أن تاريخ البشرية يتطور تطوراً عضوياً مستمراً نحو آفاق حضارية أرقى وأوسع، فهو يرى الوقائع وحدها، ويرى أن الوقائع تقول عكس ما تقول به نظريات الكلاسيكيين. وقد تعبر مسرحيته «موت دانتون» عن اليأس من الثورة وعن فقدان الايمان في مغزى التاريخ. فمسرحيته لا تسير إلى هدف أو خاتمة، سواء كانت هذه الخاتمة نهاية سعيدة متخيلة أو كارثة شاملة تحرر النفس وتطهرها. فنحن نعرف ــ أيضاً من خلال المسرحية ــ أن موت دانتون لن يحسم شيئاً ولن ينقذ الثورة ولا الفضيلة، وأن روبسيير لن يلبث بدوره أن يلقي نفس المصير، فيسقط رأسه في دورة هذه الأرجوحة. ومع ذلك تبقى قضية الشعب الذي يتحدث باسمه أبطال الثورة معلقة أو مؤجلة، تبقى هي الحقيقة التي تطل علينا من خلال «التاريخ كمسرح كبير».

إن لعنة الثورة هي الألفاظ والخطب والثرثرة والادعاء، ومن خلال ذلك تبدو دراما «موت دانتون» كلون من المحاكاة التهكمية الساخرة لمسرحية الثورة. وتعبر عن موقف نقدي عام من مأساة الثورة الفرنسية. وهي مسرحية مفتوحة تقبل العديد من التفسيرات. ومن الخطأ أن نثبتها عند تفسير بعينه دون غيره من التفسيرات، ولكن من الواضح أيضاً أن الثورة كما تعرضها المسرحية قد استنفذت طاقتها التحررية الشاملة وأنها تدور في فلك الصراعات والتطلعات البرجوازية وتقف عند حدودها.





النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي (*)

د. خالد زيادة


أول ما يتوجب لفت الانتباه إليه في دراسة «النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي خلال القرن السادس الهجري»، إن صاحبها أحمد موسى قد استحصل على منحة من الجامعة السودانية لتحضير أطروحته في الجامعة الأميركية في بيروت، أما موضوع الأطروحة فيتناول المغرب العربي أو الاسلامي. وهذا يدل، بشكل من الأشكال، على أن العمل الجامعي الأكاديمي لا زال قادراً على اختراق بعض الآفاق، بالرغم مما يعتري الدراسات الأكاديمية راهناً من الغرق في حدود وآفاق ضيقة. وإذا ما أخذنا بالاعتبار الشروط الصعبة التي تفترضها الدراسات الأكاديمية، فإن دراسة المغرب الاسلامي في بيروت يتطلب بعض الجرأة، فليس أمراً سهلاً الحصول على هذا العدد الهائل من المراجع التي تختص بحقبة محددة من تاريخ المغرب، ومع ذلك فإن صاحب الدراسة تمكن من الحصول على كمية كبيرة من المصادر والمراجع التي يحتاجها، ولا ريب أنه بذل جهداً مضنياً للحصول عليها.

ويمكننا أن نلاحظ بأن هذه الدراسة تطرح ثلاث مسائل كبرى على التوالي، انطلاقاً من عنوانها: النشاط الاقتصادي — المغرب الاسلامي — القرن السادس الهجري. وهذا ما يفسح لنا المجال لابداء ثلاث ملاحظات:

— من الملاحظ أن الدراسات الاقتصادية المختصة بالتاريخ الاسلامي لا تزال قليلة جداً، إذا ما قورنت بالدراسات الأدبية المقابلة أو الدراسات التاريخية أو غيرها، ولعل ذلك يعود إلى أسباب متعددة مترابطة. من ذلك مثلاً أن الدراسات الاستشراقية لم تستطع معاناة هذا الجانب بسبب إعداد روادها، هذا الاعداد الذي كان أدبياً أو ثقافياً بوجه عام، فالمستشرقون عادة ما يخرجون من الكليات اللغوية أو الأدبية أو التاريخية، وقلما جاءوا من المعاهد الاقتصادية.. والأمر ينطبق على الدارسين العرب أو المسلمين. من جهة أخرى فإن المصادر التي تتناول الجوانب الاقتصادية ليست بالكثرة، علماً أنها تتوزع شذرات في كتب الفقه والتاريخ، ولعل الوثائق العائدة للحقبة العثمانية تسهل هذا النوع من الدراسات الاقتصادية، إلا أن الباحث قلما يعثر على وثائق مشابهة للحقبات السابقة للفترة العثمانية. لذلك يمكننا القول بإن جهود عبدالعزيز الدوري، أو جهود موريس لومبار، على سبيل الأمثلة، لم تحل جميع المشاكل المحيطة بالدراسات الاقتصادية المتعلقة بالتاريخ الاسلامي الوسيط.

— الدراسات حول المغرب الاسلامي التي كتبها مشرقيون شبه نادرة، دون أن ننسى بكل تأكيد ما بذله إحسان عباس من جهد مميز في

(*) عزالدين أحمد موسى النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي خلال القرن السادس الهجري. دار الشروق — بيروت ١٩٨٣.

□ د. خالد زيادة: أستاذ في الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعيه، دكتوراه من السربون، باريس ١٩٨٠.

هذا المجال. إلا أن الاهتمامات المشرقية تنصب إما على الجوانب الحضارية (عظمة الأندلس) أو الجوانب الأدبية، أو الفلسفية (ابن رشد، ابن باجة). وهذه الاهتمامات متفرقة لم تجعل من المغرب موضوعاً سهلاً بالنسبة للباحثين. إن القطع بين المشرق والمغرب على مستوى البحث، لم ينته بالرغم من بعض الجهود التي حاولت ردم هذه الهوة.

— القرن السادس الهجري ليس فترة جاذبة للدراسات في المشرق الذي عرف خلال تلك الفترة سيادة السلاجقة والصليبيين والأيوبيين.. ولا شك بأن الدراسات التاريخية في الشرق العربي تمحورت إلى حد بعيد حول الأمويين والعباسيين وحول القرن الرابع الهجري الذي يعتبر عصر النهضة في الاسلام حسب الرأي الكلاسيكي «لآدم متز» والناسجين على منواله منذ حوالي قرن من الزمن. إلا أن الأمر ليس نفسه بالنسبة للمغرب الاسلامي الذي شهد في القرن السادس الهجري ظهور دولتين، أو سلالتين حاكمتين — هما: المرابطون والموحدون. جهدت الأولى وتمكنت الثانية من توحيد المغرب الاسلامي والذي شمل آنذاك: المغرب الشرقي من طرابلس إلى بجاية — والمغرب الغربي من وحران وتلمسان حتى مراكش وتول — والأندلس.

من خلال هذه الملاحظات نستطيع أن ندخل إلى دراسة عزالدين موسى حول النشاط الاقتصادي في المغرب. وقد حاول المؤلف أن يحدد المعطيات السياسية والاجتماعية والتاريخية التي تؤسس لدراسة النشاط الاقتصادي فجهد في تحديد هذه المعطيات (مئة صفحة أو ثلث الكتاب تقريباً) ونلاحظ على سبيل المثال، بروز الموحدين مع ابن تومرت ودعوتهم إلى التوحيد التي تحولت من توحيد إلهي إلى توحيد سياسي، بروز البربر كقوة اجتماعية وسياسية مع المرابطين وبشكل خاص مع الموحدين. وسيادة البربر ستؤدي إلى حد ما إلى تلوين الفقه آنذاك ببعض الأسس الاجتماعية — الاقتصادية الخاصة بالبربر. لكن سيادة البربر جاءت في أعقاب الغزوات العربية البدوية، عشرات الآلاف من بدو القبائل العربية الهلالية وغيرها قدمت إلى بلاد المغرب مما أدى إلى تغيير ديموغرافي لا ريب فيه. يضاف إلى ذلك هجرات داخلية، داخل الأندلس، ومن الأندلس إلى المغرب، ومن المغرب إلى الأندلس، أو من المغرب إلى المشرق.. وأخيراً فإن صعود غير المسلمين من يهود ومسيحية قد أعقبته محنة بسبب عقيدة أو سياسة الموحدين، مما أدخل عاملاً في النشاط الاقتصادي سلباً أو إيجاباً.

هذه هي المعطيات التي يجهد المؤلف في توضيحها في مطلع دراسته، إلا أننا لم نستطع أن نتبين الحدود بين العوامل التي أسهمت في بروز الموحدين وسعيهم إلى توحيد المغرب، وبين العوامل التي أضافها الموحدون، بسبب سياستهم، إلى الوضع فأثرت فيه أو عدلت من سيرورته. وكأمثلة على ذلك نذكر: لم نستطع أن نتبين ما إذا كان صعود البربر هو الذي أدى إلى قيام دولة الموحدين، أو أن دولة الموحدين هي التي عملت على استنهاض البربر؟ قد يكون الأمران مترابطان أو غير مترابطين إلا أن المؤلف لم يجب بشكل واضح على مسألة مركزية من هذا النوع. لم يستطع المؤلف أيضاً أن يوضح بشكل مناسب أثر الغزوات الهلالية القبائلية على الوضع الاقتصادي والوضع الزراعي خصوصاً مع أنه بذل جهوداً لتوضيح ذلك الخ.

لماذا يا ترى بقيت هذه الأمور وغيرها الكثير غامضة بالنسبة للقارىء؟ أعتقد أن الأمر يتعلق بالمنهج المتبع وبالتقنيات المستخدمة.

يعمل المؤلف على استنطاق مصادره استنطاقاً دقيقاً، وجل مصادره تعود إلى الحقبة المدروسة، وهذا يعني أنه قد قام بجهد كبير، خصوصاً أنه استغنى إلى حد بعيد عن دراسات المستشرقين. إلا أن المؤلف لم يستطع أن يربط بإحكام بين جميع المواد التي تجمعت لديه وتصنيفها تصنيفاً مناسباً واستخراج ما يريد استخراجه. بمعنى آخر يمكننا أن نجمع مواد ومعطيات كثيرة، وهو شيء لا بد منه، لكن يبقى أن نعطي معنى لتسلسل الوقائع او لتضارب المصالح والميول. ويمكنني أن أقول هنا بإن المؤلف قد سار في الطريق المعاكس كجمهرة الباحثين الذين يعثرون على معنى جاهز للتاريخ فيحاولون أن يجعلوه لباساً لوقائع يختارونها مناسبة لوجهتهم، أما

عزالدين موسى فإنه بحث عن الوقائع بحثاً مضنياً لكنه لم يعثر على الخط الذي ينظم هذه المواد وهذه الأحداث وهذه الوقائع، فبقي في وسط الطريق التي أنتهجها. ويمكننا أن نبدي ملاحظة هنا حول الدراسات الأكاديمية التي:

ــ إما أنها تغلف أبحاثها بوجهة أيديولوجية محددة فتخرج عن هدفها العلمي.

ــ وإما أنها تنكب على الوقائع فتكتب تاريخاً ليس له معنى..

وليس هنا مجال الحديث عن أزمة الدراسات الجامعية، إلا أن الروح الجامعية تحتاج إلى تجديد عميق بدون شك.

يقسم المؤلف دراسته إلى ثلاثة أقسام تتناول ثلاثة أوجه من النشاط الاقتصادي: الزراعة ــ الصناعة ــ التجارة، ضمن الترتيب المذكور، وهو عكس الترتيب المتبع عادة في الدراسات المشابهة.

والترتيب الذي استخدمه المؤلف (زراعة ــ صناعة ــ تجارة) هو نفس الترتيب الذي استخدمه أستاذه عبدالعزيز الدوري في كتابه (تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ــ دار المشرق، بيروت) وأعتقد أن هذا الترتيب ينطوي على ثغرة تسهم في غموض المعنى أو إضاعته.

فإذا أخذنا بالرأي الشائع القائل بإن حضارة الاسلام هي حضارة مدن، وإن الريف كان يوجه ويحكم من قبل المدن ــ وليس ثمة ما يدعو حالياً إلى مناقضة هذا الرأي ــ وإذا عرفنا بإن التجارة والصناعة هي التي أسهمت بشكل رئيسي في ازدهار المدن، فمن الضروري أن نتعرف إلى المدن، ودولة المدينة ــ المخزن بلهجة المغرب ــ التي كانت تتحكم بالريف. وبخصوص دراسة عزالدين موسى فقد كان من الأجدى البدء بشرح أوضاع التجارة أو الصناعة في المدن، وبشرح سياسة الموحدين الاقتصادية لنفهم أوضاع الريف أو الزراعة.

أبدي هذه الملاحظة لأن الطريقة التي يعالج فيها المؤلف شؤون الزراعة تسمح لنا بإبداء مثل هذه الملاحظة، فهو يعكف على تحديد سياسة المرابطين وبشكل خاص الموحدين تجاه الريف والأراضي الزراعية. مما كان يستوجب البدء بمعرفة أوضاع الموحدين والمعطيات التي حددت الشكل الذي اتخذته سياستهم الزراعية... على أي حال، لم يتضح لنا بشكل خاص أن السياسة الزراعية لدى الموحدين كانت تسبق في المقام الأول سائر أجزاء سياستهم الاقتصادية.

على أي حال فإن الدراسة عموماً تتبع المنهج الوصفي. فحين يتصدى المؤلف لبحث شأن الاقطاع نجده يعدد أشكاله على النحو التالي: إقطاع الرواتب ــ إقطاع التسكين ــ إقطاع التأليف ــ إقطاع لقاء خدمة ــ إقطاع هبة ومنّة. ولسنا ندري ما إذا كانت هذه الأشكال تندرج تحت ما نسميه فصلاً بالاقطاع، أم أن الاقطاع ينحصر بمعناه اللغوي. خصوصاً أن المؤلف يفصل بين الاقطاع وبين الملكية الخاصة للأرض. وبين هذين النوعين وبين الملكية العامة التي هي ملكية الدولة من الأراضي. إن الغموض الذي يلف الدراسات حول الزراعة والملكية الزراعية في التاريخ الاسلامي عامة لم تجله المعلومات التي يقدمها المؤلف، علماً بأن ما قدمه من معلومات ثمينة قد يسهم مستقبلاً في تطور الدراسات حول هذا الموضوع.

وبشأن الصناعة يدلي المؤلف بما يأتي: «كان الغالب على المغاربة في القرن السادس أنهم يعجبون بالصناعة ويحبون تعلم حرفها ويكرهون القصور فيها. والمهن لا تذم إلا لقلة عائدها أو قصور القائم عليها عن اتقانها» (ص ٢٠٧) ولسنا ندري من أين جاء المؤلف بهذا الرأي، فإذا عدنا إلى المراجع التي يعود إليها المؤلف مثل كتب ورسائل: السقطي وابن عبدون والجرسيفي، وابن عبدالرؤوف، نجد أن هؤلاء قد عبروا عن آراء مخالفة لا يذكرها المؤلف. ويذكر الجرسيفي على سبيل المثال قوله: «ليس ذوو الحرف الخسيسة كأهل الصناعات النفيسة (ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة، تحقيق بروفنسال القاهرة ١٩٥٥ ص ١٢١) والواقع أن المؤلف يقصر حديثه عن صناعات: النسيج ــ الورق ــ الجلد ــ الصناعة ــ الصناعة الخشبية ــ الآت الموسيقى ــ المطاحن ــ الزيوت ــ السكر ــ الخمور.. الخ. والمتبع هو وصف أحوال هذه الصناعات لديه، وليس لنا سوى التذكير بفائدة المنهج الوصفي في عرض المادة التي توفرت لدى الباحث، إلا ان المنهج

الوصفي يقصر عن القدرة في تعميق وتحليل الظاهرة التي يتناولها المؤلف. والواقع أن المؤلف لم يستطع أن يربط ربطاً منطقياً بين رأيين يوردهما، الأول في الصفحة ٢٠٧ وقد سجلناه سابقاً وبين رأي يورده في صفحة ٢١٧، وفيه: «إن وضع الصناع كان تعيساً، وحياتهم حياة تعب ونكد ودخلهم يكاد لا يقيم الأود. ولهذا فقد يتخذ الصانع غير مهنة في وقت واحد. وربما تفننوا في أساليب الغش في أعمالهم.. الخ».

ثم يتحدث المؤلف عن التجارة، ونجد ارتباطاً بين تدهور أو تقدم أحوال التجار وبين الوضع السياسي والأمني. ويلاحظ: «لقد نجح الموحدون في إشاعة الأمن في جميع أرجاء دولتهم خلال القرن السادس.. وقد أكد عبدالمؤمن على حماية التجار وتأمين طرق التجارة متوعداً بقتل من يخالف هذا الأمر، بل أنه أنزل العقوبات بأصحاب حوادث الاعتداء على التجار أو قطع الطرق التي عرفت منفذاً بذلك وعيده، وسار خلفاؤه على نهجه..» (ص ٢٧٠ ــ ٢٧١) ونلاحظ من خلال ذلك اهتمام الموحدين بالتجارة، يؤكد ذلك ما يورده المؤلف من وقائع تبين سياسة الموحدين في هذا المجال، ومنها ــ قطع جميع المغارم والقبالات والمكوس (على التجار) التي فرضها المرابطون ــ الدولة لم تدخل شريكاً مع التجار الذين افتتحت بلادهم ــ الدولة الموحدية كانت تبني الأسواق إن احترقت ــ الموحدون مهدوا الطرق في جميع أنحاء دولتهم وبنوا الجسور وشيدوا المنازل وجهزوا توفيراً للماء... كل هذا يدل على أن الموحدين قد اهتموا بالتجارة اهتماماً خاصاً، يفوق اهتمامهم بأحوال الزراعة مثلاً. وقد لحظ المؤلف أن تطور أحوال التجارة الداخلية قابله بعض التدهور في التجارة الخارجية بسبب موقف الموحدين المتشدد من الدول المعاصرة لهم أو بسبب حروبهم مع هذه الدول. ويستخرج المؤلف الخلاصات التالية بشأن التجارة: نوع من التكامل الاقتصادي ضمن بيئات المغرب الثلاث قد تم خلال العهد الموحدي ــ استيراد المواد الخام مما يدل على ازدهار صناعي ــ ازدياد سيطرة المدن الايطالية على التجارة المغربية في ذلك الوقت ــ مشكلة الموحدين مع السودان أدت إلى انخفاض في قيمة الدينار الذهبي بسبب اخفاق الموحدين في استكشاف معادن الذهب في المغرب (ص: ص ٢٣٠ ــ ٢٣١).

في الخلاصة يحاول المؤلف أن يرسم رؤية عامة للنشاط الاقتصادي في المغرب وأثره في الأحوال الاجتماعية. من ذلك: الازدهار الاقتصادي بشكل عام وأثره في نمو الطبقة الوسطى وانتعاشها. كما يشير إلى انتشار التصوف بسبب التباين الاقتصادي: «إذ كان الموحدون قد نجحوا في القضاء على المرابطين فقد أخفقوا في تحقيق آمال العامة، إذ استمر التباين الاجتماعي، وقد سبقت الاشارة إلى ذلك، ولهذا تعاظم نفوذ المتصوفة (٣٤٩) علماً بأن توحيد المغرب سياسياً واقتصادياً كان المحاولة الأخيرة التي بذلها الموحدون في التاريخ..

في النهاية سنبدي حول الكتاب ملاحظتين عامتين:

ــ لقد نجح المؤلف في جمع مادة كبيرة من المعلومات سيكون لها فائدة في كتاب التاريخ الاقتصادي في المغرب في الفترة المذكورة. إن كتاب عزالدين موسى بالاضافة إلى كتاب الدوري المذكور سابقاً تشكل مداخل إلى الموضوع، وهذا لا يقلل من قيمتها على الاطلاق. بقي أن توجيه هذه المواد وإعطائها معنى ومغزى مهمة تخرج عن الاطار الأكاديمي البحت، وأغلب الظن أن الأزمة المنهجية التي يعكسها الكتاب ضمنياً لا تقع على عاتق المؤلف بل على التأليف الجامعي بصفة عامة.

ــ نلاحظ من خلال سياق الكتاب، ومن خلال الخرائط المتقنة التي أعدها المؤلف، إن العلاقات الاقتصادية مع المشرق كانت شبه معدومة. وهو أمر يحتاج إلى دراسة خاصة بكل تأكيد. ولكن بالرغم من هذا الانقطاع على المستوى الاقتصادي، نلاحظ بأن الصلات على المستوى الثقافي، والبنى الذهنية كانت لا تزال قائمة وبقوة إلى حد بعيد. نذكر على سبيل المثال إن ابن تومرت كان قد تلقى علومه في المشرق وتأثر بذلك. إلا أن الأهم من هذا هو أن نفس الظواهر الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تبرز في المشرق، كانت تبرز في المغرب.

●



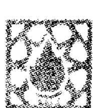
استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الدكتور: «عبدالعزيز محمد اللميلم» عرض لرسالته الدكتوراه بعنوان: «نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء من ٢٢١هـ إلى ٢٧٩هـ». ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى أن نزيد من اطلاع قرائنا على نتائج باحثينا مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، كما يفيد الجميع.

نفوذ الأتراك في الخلافة العبّاسيّة

وأثره في قيام مدينة سامراء من ٢٢١ الى ٢٧٩ هـ

□ دكتوراه — جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية — كلية العلوم الاجتماعية قسم التاريخ — ١٤٠٠هـ.

«عرض موجز للرسالة»



قسم الباحث الرسالة إلى مقدمة وتمهيد وسبعة فصول وخاتمة ومجموعة من الملاحق تحتوي على العديد من الصور الفوتوغرافية والخرائط والرسوم والمسكوكات — إلى جانب فهرس للموضوعات وثبت بالمصادر والمراجع.

المقدمة:

تحدث فيها عن الدوافع لاختيار الموضوع.

التمهيد:

خصصه لبيان ملامح الحكم العباسي.

الفصل الأول:

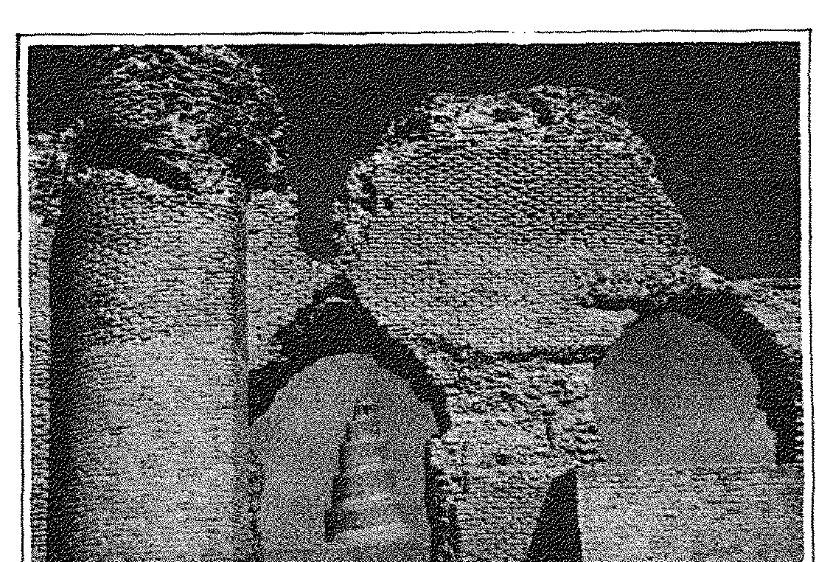
تحدث فيه عن موقف العرب والفرس من قيام الدولة العباسية منذ بدايتها وحتى عهد المعتصم. الذي بدأ فيه التحول باستبدال العرب والفرس بالأتراك وإحلال القوة التركية محل القوتين العربية والفارسية لأسباب ومبررات وضحها في نفس الفصل.

وفي الفصل الثاني:

تكلم عن الأتراك، موطنهم، نشأتهم، تقلباتهم في آسيا، قبائلهم، شيء من أعرافهم وخصائصهم، وفتح المسلمين لبلادهم، واتصالهم بالعرب، واستخدامهم في الدولتين الأموية والعباسية إلى أن تسللوا إلى مناطق النفوذ في الجيش في أيام المعتصم ومن تلاه من الخلفاء.

أما في الفصل الثالث:

فقد تحدث فيه عن خلافة المعتصم وموقفه من الأتراك، كما تحدث عن الفتن والاضطرابات التي سادت الدولة العباسية إثر خلافة المأمون، حتى استطاع المعتصم بحزمه القضاء عليها، وكيف تمكن من الحد من سلطات العنصرين العربي والفارسي وميله إلى عنصر جديد هو العنصر التركي الذي كان في نظره هو العنصر الوحيد الذي يمكن أن يكون سنداً بدلاً من العنصرين السابقين، بل ويمكن الاعتماد عليه في القضاء



□ آثار الملوية في سامراء.

على الفتن والثورات التي عجز المأمون عن إخمادها «مثل فتنة الزط، وفتنة بابك الخرمي» فاستكثر من الأتراك، كما أوضح موقف المعتصم من المشكلات التي خلفها عهد المأمون وأسلوب علاجه لها، كما أشار إلى تفكير المعتصم بل وتنفيذه لنقل الأتراك إلى عاصمة جديدة هي «سامراء» تخلف بغداد، والتي أصبحت فيما بعد العاصمة المركزية للخلافة العباسية.

وفي الفصل الرابع:

تحدث عن المرحلة الأولى من السيطرة التركية بعد المعتصم والتي امتدت من عهد الواثق إلى نهاية عهد المتوكل من سنة ٢٢٧ إلى سنة ٢٤٧هـ، وما حدث في تلك الفترة من وقائع وأحداث تطرق إليها وبسطها في ثنايا الفصل، كما ركز على الأحداث الهامة التي وقعت من الأتراك على الخليفة المتوكل، كما عني عناية كبيرة بتحقيق اتهام ابن المتوكل «المنتصر» بالاشتراك في التآمر مع الأتراك على قتل أبيه المتوكل، حيث وصل إلى نتائج لا بأس بها تنفي هذا الاتهام الذي دبره الأتراك أو بعضهم على الأقل، ونظراً لدقة هذا الاتهام وما أثير حوله فقد فصله بشكل واضح في الفصل التالي:

اما في الفصل الخامس:

فقد بين فيه صورة مجسمة لهذا النفوذ الذي اخذ يمتد ويتفاقم حتى ظن كثيرون أن الأمر اصبح لهؤلاء الأتراك، وقد ناقش الباحث أموراً كثيرة مما وصف به بعض الباحثين هذا النفوذ منذ المنتصر إلى المهتدي.

وفي الفصل السادس:

تكلم الباحث عن المعتمد وما حدث إبان عهده من انحسار للنفوذ التركي حتى كاد أن يصبح أثراً بعد عين، وهذا بالطبع نتيجة أسباب معينة لعل من أهمها ثورة الزنج وما ألحقته بالدولة العباسية من أضرار جسيمة «بقيادات تركية» وعجز الأتراك وهم عماد الجيش حتى ذلك الوقت عن هزيمة ذلك الدعي «قائد الزنج». عندها يسند المعتمد قيادة الجيش ومهمة القضاء على تلك الفتنة الزنجية إلى أخيه أبي أحمد الموفق، حيث نجح في ذلك وقضى على هذه المشكلة وحد من نفوذ الأتراك القادة وألزمهم حدودهم.

أما في الفصل السابع:

فقد تحدث الباحث عن سامراء، وأصل تلك التسمية، وعن سبب اختيارها لتكون عاصمة للخلافة العباسية تخلف بغداد العاصمة، هذا بالرغم من أن بناء تلك المدينة كان لأسباب خاصة وظروف معينة. كما تطرق الباحث إلى نماذج من حضارة سامراء، كما تحدث أيضاً عن المحاولات التي قام بها خلفاء بني العباس للانتقال منها إلى أماكن أخرى بدء بالمتوكل وانتهاء بالمعتمد الذي هجرها إلى غير رجعة في سنة ٢٧٩هـ متوجهاً إلى بغداد. حيث استحالت ابنيتها الضخمة إلى أطلال تمتد إلى مسافات شاسعة تزيد عن أربعة وثلاثين كيلو متراً من الجنوب إلى الشمال، وأخيراً واصل الحديث عن هذه المدينة ومدى مساهمتها في الحضارة العباسية.

مدرسة الإسكندرية ومكانتها العلمية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الأموي

فاضل خليل ابراهيم



تعتبر اسكندرية مصر، إحدى المدن الثلاث عشرة[١]، التي أنشأها الاسكندر سنة ٣٣٢ ق.م، وبعد وفاته، اتخذها أحد قواده، وهو بطليموس سوتير (٢٢٣ ـــ ٢٨٥ ق.م)، قاعدة لملكه، ثم اقام بها أكاديمية للثقافة والعلوم اليونانية، وألحق بها مكتبة[٢]، بعد أن كانت مدينة منف «دار الملك والعلم»[٣].

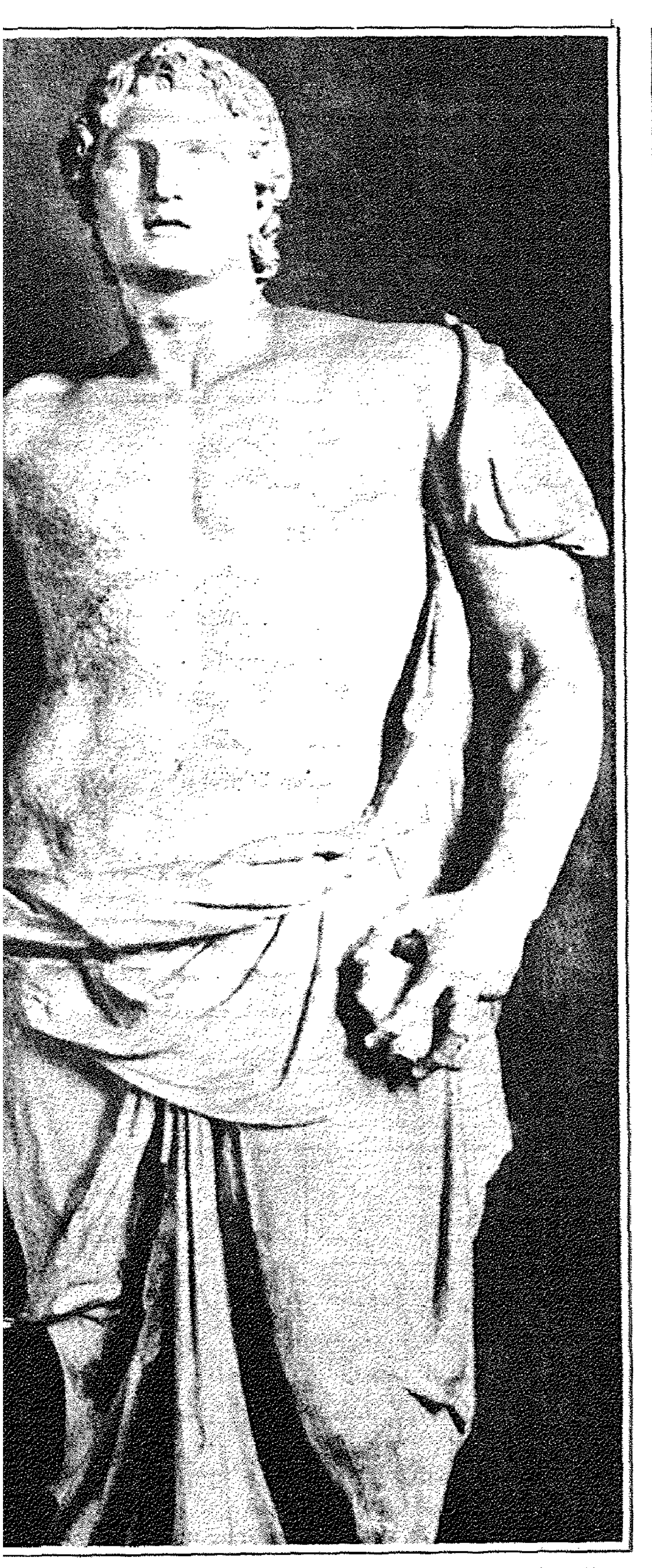
وجاء إثراء المكتبة وإغناؤها على يد بطليموس فيلاذلفوس[٤] (٢٨٥ ـــ ٢٤٧ ق.م)، الذي اهتم بجمع الكتب من مختلف الأرجاء[٥]، فأصبحت من أشهر وأعظم مكتبات العالم آنذاك، إلا أن هذه المكتبة قد أصابها الدمار سنة ٤٨م[٦]، بسبب حريق الأكاديمية. وأنشأ على أثرها مكتبة أخرى في معبد السراييوم (سرابيس)، وأصبحت دراسة الفلسفة والعلوم في المعبد استمراراً لما كان عليه الحال في الأكاديمية[٧].

وفي سنة ٣٩١م، تعرض السراييوم للخراب[٨]، وشمل ذلك ـــ بطبيعة الحال ـــ المكتبة الملحقة به[٩].

وعلى الرغم مما آل إليه مصير السراييوم ومكتبته، فإن ذلك لم يؤثر على المسيرة العلمية للاسكندرية، إذ أن هناك أكاديميات ومدارس أخرى أشارت إليها وثائق في مجموعة كتب الأباء الشرقيين[١٠] إضافة إلى الأديرة[١١] والمكاتب الخاصة.

وعليه، فقد استمرت الاسكندرية في عطائها العلمي، ولو بدرجة أقل، طيلة القرون اللاحقة، على الرغم من قلة المعلومات في هذا المجال، فقد «كانت المبادىء العامة للفلسفة الأفلاطونية والأرسطوطالية المتأخرة، وطيدة البنيان تماماً في الاسكندرية... في القرن الرابع»[١٢]. كما كانت كتب المنطق تُدرّس إلى آخر الأشكال الوجودية، منذ عهد النصرانية حتى مجيء الإسلام[١٣]. وقد تواصل هذا النشاط الفلسفي خلال القرن السادس، عندما استقر فيها الفلاسفة اليونان، الذين عادوا من بلاد فارس، بعد أن أغلقت مدارسهم في أثينا سنة ٥٢٩م[١٤].

أما الدراسات الطبية، فقد كان لها مدرسة خاصة سميت بـ «دار العلم»[١٥]، قام بها جماعة من الأطباء، أطلق عليهم الاسكندرانيون، جعلوا من كتب جالينوس مادة أساسية لهم، فعملوا لها جوامع وتفاسير ومختصرات، ليسهل حفظها وحملها[١٦].


□ الاسكندر.

وهناك أطباء اسكندرانيون عاصروا الإسلام، منهم: ماغنس[١٧]، فوليس الأجانيطي، الذي ينسب إليه تأليف كتابين في الطب، أحدهما «الكناش في الطب» والآخر «كتاب في علل النساء»[١٨]، وكذلك أهرن القس[١٩]. ويحتمل أن يكون هؤلاء الأطباء ممن تخرجوا على يد الاسكندرانيين في دار العلم.

وعلاوة على الفلسفة والطب، فقد كانت الاسكندرية مركزاً للعلوم الكيمائية[٢٠]، إلا أنها امتزجت بالسحر والطلاسم والتنجيم[٢١]، وهكذا فقد كانت الاسكندرية موئلاً للاستقصاء العلمي، عشية الفتح العربي الإسلامي[٢٢].

ولقد اقترن أول اتصال للعرب المسلمين بالتراث العلمي الاسكندري، بالمسألة القائلة: إن عمرو بن العاص وبأمر من الخليفة عمر بن الخطاب، قام بإحراق خزانة الكتب[٢٣] (مكتبة) الاسكندرية. إلا أن البحث العلمي الحديث[٢٤]، قد توصل إلى نفي هذه المسألة.

وأخذ الاتصال بالعلم الاسكندري أبعاده الواضحة خلال العصر الأموي، وتمثل ذلك، باتصال خالد بن يزيد بعلماء وفلاسفة الاسكندرية، الذين ترجموا له كتباً في الحكمة[٢٥]. ودرس على أيدي بعضهم الكيمياء. وفي سنة ٦١هـ/ ٦٨٠م، ذهب يعقوب الوهاوي إلى الاسكندرية، ليتم تحصيله للعلم[٢٦]. ودراسة الفلسفة[٢٧].

وفي مجال الطب، جلب العرب كناش الطبيب الاسكندري أهرن[٢٨]، ووُضع في خزانة الكتب في دمشق، ثم تُرجم إلى العربية. ولا بد أنه قد جُلب معه كتب طبية أخرى.

واتصل عمر بن عبدالعزيز، قبل توليه الخلافة، بأحد أساتذة مدرسة الطب في الاسكندرية[٢٩]، والتي نقلت فيما بعد إلى أنطاكيا.

لقد جاءت مسألة نقل مدرسة الاسكندرية إلى انطاكيا، في رواية كل من المسعودي[٣٠]، المقتضبة، ورواية ابن أبي أصيبعة[٣١]، التي نقلها عن الفارابي، وملخصها، ما يلي: كان التعليم أول أمره في الاسكندرية، ثم نافستها روما في عهد أغسطس، فأصبح التعليم في موضعين، إلى أن جاءت النصرانية فبطل التعليم

في روما وبقي في الاسكندرية، وإلى أن كان الإسلام بعده بمدة طويلة، فانتقل التعليم من الاسكندرية إلى أنطاكيا... في أيام عمر بن عبدالعزيز.

يقدم المستشرق مايرهوف، جملة أسباب، عن انتقال هذه المدرسة، منها: العزلة التي أصبحت عليها الاسكندرية، منذ أن فتح العرب مصر، وذلك بسبب الحروب التي أُستعرّت بين العرب والبيزنطيين، وأنها قد فقدت أهميتها الثقافية والاقتصادية، بعد أن أصبحت دمشق عاصمة الدولة الجديدة، كما أن المدرسة لم تجد لها سنداً لدى الأقباط المصريين، وأن العلماء الذين يعرفون اليونانية قد تناقص عددهم[٣٢].

وعن أسباب اختيار أنطاكيا دون غيرها من المراكز الأخرى، يقول: إن ذلك يرجع إلى سهولة الحصول على المخطوطات اليونانية من آسيا الصغرى، لأن حركة التبادل كانت نشيطة دائماً على الحدود في أوقات السلم[٣٣].

ويضاف إلى هذه الأسباب، قرب أنطاكيا من عاصمة الخلافة[٣٤]، وعراقة تاريخها العلمي والفلسفي، الذي يعني بدوره، وجود علماء وكتب، تساهم في تدعيم هذه المدرسة، التي كادت أن تفقد دورها العلمي في مصر.

وتطرح في خضم هذه المسألة، تساؤلات عن دور الخليفة عمر بن عبدالعزيز في نقل المدرسة، وهل كان ذلك تحت إشرافه، أم أنها نقلت في عهده وحسب؟

لدى مطالعة رواية المسعودي وابن أبي أصيبعة، لا نجد أي تصريح، بأن عمر بن عبدالعزيز قد أمر بنقلها أو أشرف عليها. فرواية المسعودي تقول: إن التعليم قد «نُقِلَ... في أيام عمر بن عبدالعزيز من الاسكندرية إلى انطاكيا»[٣٥]، أما رواية ابن أبي أصيبعة، فلا تشير إلى اسم عمر وتكتفي بالقول: «إلى أن كان الإسلام بعده بمدة طويلة، فانتقل التعليم من الاسكندرية إلى أنطاكيا»[٣٦]، وفي مكان آخر «فلما أفضت الخلافة إلى عمر، ذلك في صفر سنة تسع وتسعين للهجرة، نقل التدريس إلى أنطاكيا وحران وتفرّق في البلاد»[٣٧].

وعلى الرغم من ذلك، فهناك بعض القرائن، توحي بأن لعمر دور في نقل هذه المدرسة، منها،



□ العالم بطليموس الذي عاش وعمل في الاسكندرية.

اتصاله بابن أبجر، أحد أساتذة الاسكندرية، عندما كان في مصر، والذي يبدو، أنه قد اتفق معه على نقلها إلى الشام، إضافة إلى اهتمام عمر بالطب، بصورة خاصة، عندما أمر بنشر كناش أهرن في الطب بين الناس، واهتمامه بالعلم[٣٨]، الذي لا يتعارض معه تدينه، بصورة عامة.

وهناك مسألة أخرى متعلقة بنقل المدرسة، وهي تحديد شخصية المدرس والطبيب الاسكندري، الذي اتصل به عمر بن عبدالعزيز، والذي سمي بـ «عبدالملك بن أبجر الكناني»، فقد ذكر ابن أبي أصيبعة، أن عبدالملك بن أبجر الكناني، كان طبيباً ماهراً، من أساتذة الاسكندرية، أسلم على يد عمر بن عبدالعزيز في مصر، قبل توليه الخلافة، ثم صحبه إلى دمشق سنة ٩٩هـ، عندما تولى الخلافة، واعتمد عليه في صناعة الطب[٣٩]. أما ابن جلجل، فلا يشير إلى اسمه كاملاً، بل يقتصر على «ابن أبجر»[٤٠]، وكذلك ابن صاعد، حيث يقول: هو «ابن الحبر»[٤١].

وهناك شخص آخر، يشابهه بالاسم والأصل والمهنة، اتفقت كتب الطبقات ورجال الحديث، على

أنه عبدالملك بن أبجر الكناني، المحدث والطبيب الكوفي، ذو النسب العربي الذي يرجع إلى قبيلة بني أبجر، توفي بعد سنة ١٦١هـ[٤٢].

ويظهر أننا أمام شخصيتين مختلفتين، حمل أحدهما اسم الآخر، فالأول، هو الطبيب والمدرس الاسكندري، الذي جاء اسمه عند ابن جلجل (ت ٢٨٢هـ)، مختصر وغير واضح، بصيغة «ابن أبجر»، ثم جاء مؤرخو العلوم بعده، فمزجوا بينه وبين ذلك الطبيب العربي الكوفي، لتشابه رسم الاثنين، فعرّفه ابن صاعد (ت ٤٦٢هـ)، بأنه الكناني، ونقل ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ)، اسمه كاملاً.

ومما يؤكد اختلاف الشخصيتين، أن جميع كتب الرجال، التي تحدثت عن الطبيب الكوفي، لم تشر إلى أنه قد اتصل يوماً بعمر بن عبدالعزيز، أو أنه كان في الاسكندرية أو اتصل بها.

بقيت المدرسة في أنطاكيا مدة طويلة، خلال العصر الأموي وبعده، إلى أن نقلت إلى حران. إلا أننا لا نعرف شيئاً عن طبيعة نشاطها الفكري والعلمي طيلة هذه الفترة، سوى ما نستشفه من قول للفارابي، أن هناك ـــ فعلاً ـــ مدرسة فيها أساتذة ومكتبة عامرة. ويرجح مايرهتوف، أنها كانت تمارس عملية الترجمة إلى السريانية[٤٣]، ولا يستبعد مشاركة طبيب عمر بن عبدالعزيز في التدريس فيها.

الهوامش والمصادر والمراجع

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر:١٩٥٧م، ١٨٣/١.
(٢) دي لاسي اوليري: علوم اليونان، القاهرة:١٩٦٢م، ص ٢٣ ـــ ٢٤.
(٣) ابن صاعد: طبقات الأمم، بيروت:١٩١٢م، ص ٢٩.
(٤) اوليري: المرجع السابق، ص ٢٤.
(٥) القفطي: تاريخ الحكماء، ليبسك:١٣٢٠هـ، ص ٢٥٥.
(٦) الفردبتلر: فتح العرب لمصر، القاهرة:١٩٣٣م، ص ٣٥٤.
(٧) (٨) (٩) المرجع نفسه، ص ٣٥٨، ٣٥٩، ٢٦١.
(١٠) ماكس مايرهوف: مقال «من الاسكندرية إلى بغداد»، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية جمع وترجمة ـــ عبدالرحمن بدوي، القاهرة:١٩٦٥م، ص ٣٨.
(١١) بتلر: المرجع السابق، ٣٦٦.
(١٢) اوليري: الفكر العربي، بيروت:١٩٧٢م، ص ٢٩.
(١٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، المطبعة الوهبية:١٨٨٢م، ١٣٥/٢.
(١٤) Dunlop, D.M.: Arab Civilization, London:1971, p 172
(١٥) القفطي: المصدر السابق، ص ٧١.
(١٦) المصدر نفسه، ص ٧١ ـــ ٧٢.
(١٧) المصدر نفسه، ٣٢٢.
(١٨) ابن النديم: الفهرست، بيروت:١٩٦٤م، ص ٢٩٣.
(١٩) (٢٠) اوليري: الفكر العربي، ص ٤٠.
(٢١) احمد أمين: ضحى الإسلام، ط ١٠، بيروت، ٢٦٢/١.
(٢٢) اوليري: الفكر، ص ٢٩.
(٢٣) أوردها المؤرخون العرب المتأخرون منهم، عبداللطيف البغدادي في كتابه الإفادة والاعتبار ص ٢٨ وتقي الدين المقريزي في كتابه الخطط جزء الأول ص ١٥٩.
(٢٤) افضل من ناقش المسألة، هو المستشرق بتلر، حيث افرد من كتابه «فتح العرب لمصر»، فصلاً كاملاً من ص ٣٤٨ ـــ ٣٦٩، نفى فيه نفياً علمياً هذه المسألة.
(٢٥) ابن النديم: المصدر السابق ص ٢٤٢.
(٢٦) بتلر، ص ٣٦٨.
(٢٧) افرام الأول بوصوم: اللؤلؤ المنثور، بغداد:١٩٧٦م، ص ٢٩٣.
(٢٨) اوليري: علوم، ص ١٢٤.
(٢٩) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ١١٦/١.
(٣٠) المسعودي: التنبيه والإشراف، القاهرة:١٩٣٨م، ص ١٠٤ ـــ ١٠٥.
(٣١) عيون الأنباء، ١٣٤/٢ ـــ ١٣٥.
(٣٢) مقال: «من الاسكندرية إلى بغداد»... ص ٦٨.
(٣٣) المرجع نفسه، ص ٦٩.
(٣٤) شاكر مصطفى: مقال «التعريب في الإسلام»، مجلة البيان، عدد ١٠٩، ١٩٧٥، ص ١٩.
(٣٥) التنبيه، ص ١٠٥.
(٣٦) عيون، ١٣٥/٢.
(٣٧) المصدر نفسه، ١١٦/١.
(٣٨) ابن عبدالحكم: سيرة عمر بن عبدالعزيز، بيروت:١٩٦٧م، ص ١٣٣.
(٣٩) عيون، ١١٦/١.
(٤٠) ابن جلجل: طبقات الأطباء، القاهرة:١٩٥٥م، ص ٥٩.
(٤١) طبقات الأمم، ص ٤٨.
(٤٢) انظر، ابن سعد: الطبقات، ليدن، ٢٣٦/٦.
ابن قتيبة: المعارف، مصر:١٩٦٩م، ص ٦٦.
(٤٣) مايرهوف، ص ٦٩.

□ حوليات كلية الآداب

— **الروابط العائلية ــ القرابية في مجتمع الكويت المعاصر**
الحولية الثالثة ــ الرسالة العاشرة: في الاجتماع
تصدر عن كلية الآداب ــ جامعة الكويت،
١٩٨٢م ــ ١٤٠٢هـ .... د. فهد ثاقب الثاقب

— **البيئة والسلوك**
الحولية الثالثة ــ الرسالة الحادية عشرة: في علم النفس
تصدر عن كلية الآداب ــ جامعة الكويت،
١٩٨٢م ــ ١٤٠٢هـ .... د. طلعت منصور

— **لورنس ومحفوظ**
دراسة أدبية سيكولوجية مقارنة
الحولية الثالثة ــ الرسالة الثالثة عشرة: في الأدب
تصدر عن كلية الآداب ــ جامعة الكويت،
١٩٨٢م ــ ١٤٠٢هـ .... د. محمد رجاء الدريني

— **آل قدامة والصالحية**
الحولية الثالثة ــ الرسالة الرابعة عشرة: في التاريخ
تصدر عن كلية الآداب ــ جامعة الكويت،
١٩٨٢م ــ ١٤٠٢هـ .... د. شاكر مصطفى

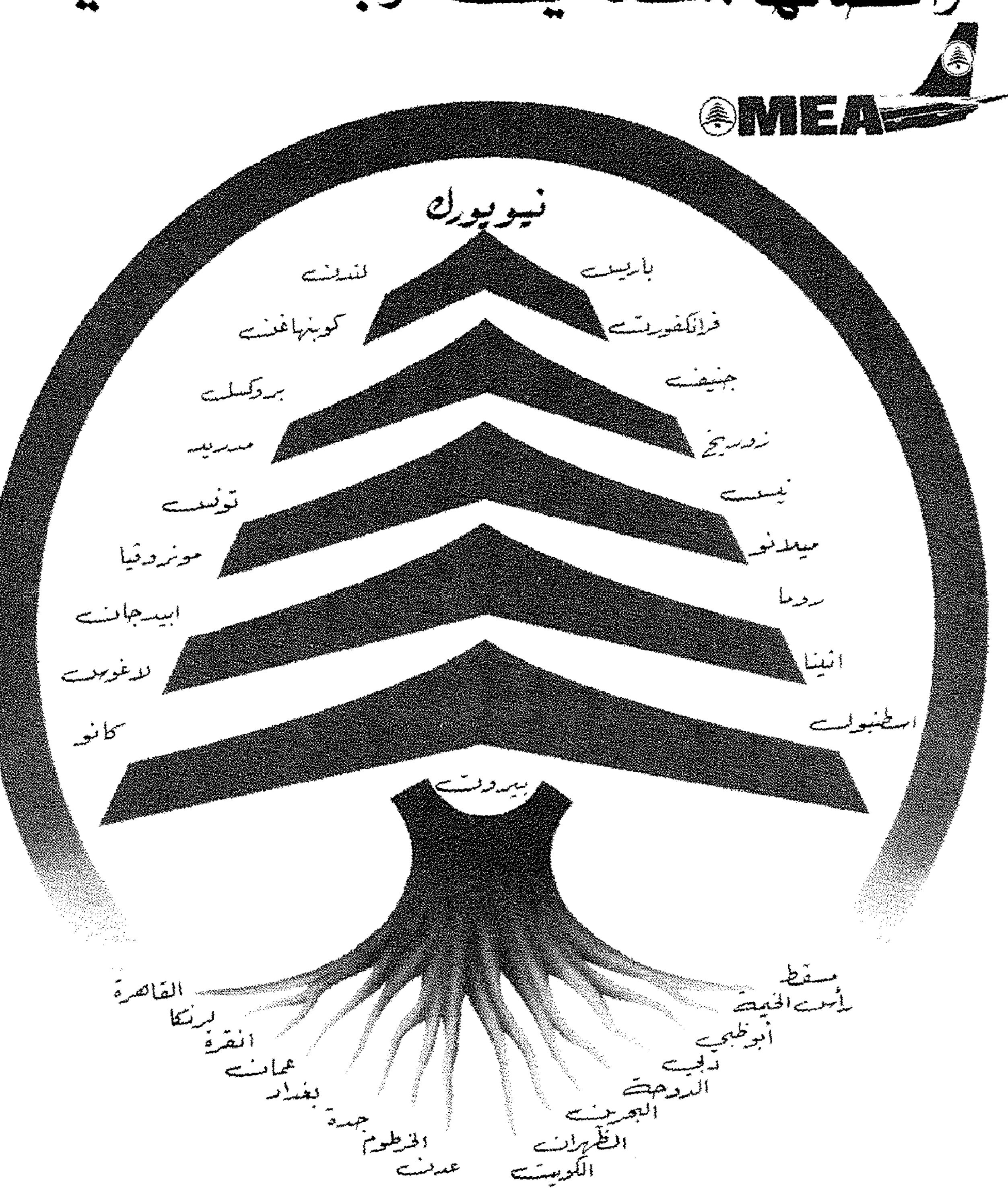
— **أسلوب إذ في ضوء الدراسات القرآنية والنحوية**
الحولية الرابعة ــ الرسالة الخامسة عشر
١٩٨٢م ــ ١٤٠٣هـ
تصدر عن كلية الآداب ــ جامعة الكويت .... د. عبدالعال سالم مكرم

— **مفهوم التفسير في العلم (من زاوية منطقية)**
الحولية الرابعة ــ الرسالة السادسة عشرة
١٩٨٣م ــ ١٤٠٣هـ
تصدر عن كلية الآداب ــ جامعة الكويت .... د. عزمي موسى إسلام

— **العمل الاجتماعي في المجال التربوي**
الحولية الرابعة ــ الرسالة السابعة عشرة
١٩٨٣م ــ ١٤٠٣هـ
تصدر عن كلية الآداب ــ جامعة الكويت .... د. جلال الدين الغزاوي

— **وحدة ميتافيزيقا أرسطو ومنزلة الرياضيات فيها**
الحولية الرابعة ــ الرسالة الثامنة عشرة
١٩٨٣م ــ ١٤٠٣هـ
تصدر عن كلية الآداب ــ جامعة الكويت .... د. أبو يعرب المرزوقي

مَوطنهَا لبـــنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جُذورهَا راسِخة في الشرق الأوسَط
وأغصانهَا ممتدّة في أرجاء الدّنيا





الفهرس العام للسنة السادسة

الآثار والحضارات

تاريخ أوروبا والعالم

تاريخ الفنون

توثيق ومعلومات

متفرقــات



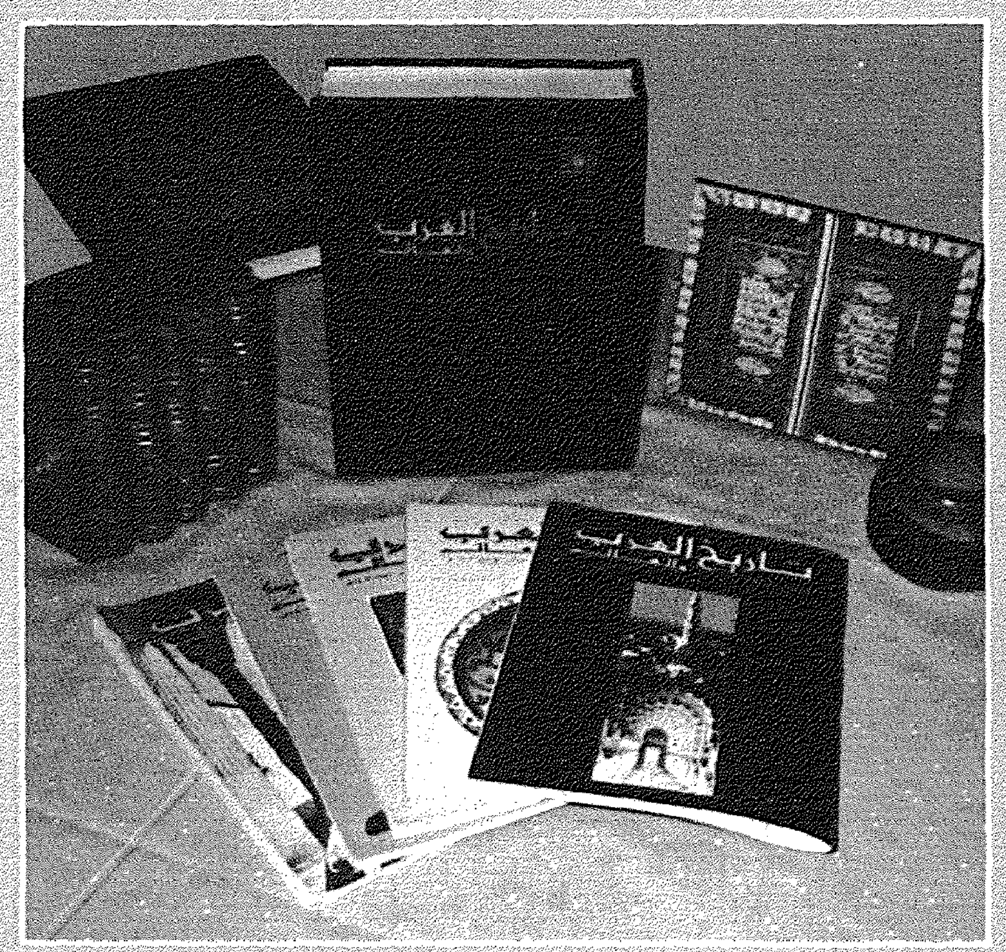
□ مساكن البربر المسلمين.

إحتفظ بمجلّدات السّنوات الخمس من مجلّة

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

تسعة مجلّدات فخمة + اشتراك مجّاني لعام كامل



٤٠٠ دولار أو ما يعادلها بما فيها أجور البريد المضمون

إقطع هذه القيمة وأرسلها مرفقة بقيمة المجلّدات باسم مجلة تاريخ العرب والعالم إلى العنوان التالي:
شارع السادات - بناية أبو هليل - ص.ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان

الاسم الكامل: ____________________

العنوان: ____________________

المدينة: ____________________

الامضاء: ____________________

أرفق القيمة: ☐ شك ☐ شك بريدي ☐ حوالة بريديّة